ميلبا إسكوبار

بيت الجمال



«أحد أفضل كتب هذا العام»

- الجائزة الوطنية للرواية الكولومبية -

مكتبة | 590

ميلبا إسكوبار

بيت الجمال

الكتاب

بيت الجمال

تأليف

ميلبا إسكوبار

ترجمة

إدريس ولد الحاج

الطبعة

الأولى، 2019

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-930-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:

Melba Escobar

La Casa de la Belleza

ميلبا إسكوبار

مكتبة | 590

بيت الجمال

رواية

ترجمة: إدريس ولد الحاج



حلِّق سريعاً، غيّر طريقك،
واحلم كثيراً، فالعالم لك.

أغنية «صفحة بيضاء»، فرقة لوس ديابليتوس

1

أكره الأظافر الصناعية بألوانها الفاقعة، والشعر الأشقر المصبوغ، وَتنانير الحرير البارد، والأقراط اللمّاعة، في الساعة الرابعة عصراً. لم يسبق لنساءٍ بهذا العدد الهائل قط، أن بَدَوْنَ كمتحولاتٍ جنسياً، أو مومسات متنكّرات في هيأة سيدات محترمات.

أكره فرْطَ العطر لدى هؤلاء النسوة، المبالِغات في المكياج، إلى حدٍّ يَبْدون فيه كصراصير المخبزة، فذلك يُثير عطسي، ناهيك عن حُمى الأكسيسوارات: هواتف ذكيّة بأغطية واقية ذوقها صبياني، وألوانها مثيرة، كالفوشيا مثلاً، مرصّعة بعدسات صغيرة تُحاكي الأحجار الكريمة، وصور لاصقة مصغّرة تافهة. أكره كلّ ما تُمثله هؤلاء النسوة غير القابلات للتحلّل، ذوات الحواجب المنتوفة. أكره نبرة أصواتهن الحادة، المصطنعة، كطفلاتٍ في الرابعة من العمر، أو مومسات عرضٍ وطلبٍ صغيرات، تمّ تعليبُهن في أجساد إناثٍ منتصِباتٍ كالذكور. كلّ شيء ها هُنا ملتبسٌ، فالنسوة هؤلاء، من فصيلة «المرأة الطفلة الذّكر»، يُصِبنَنِي بالحيرة، يشغلنَ تفكيري، يدفَعنَني إلى التأمل في كلّ ما هو محطّم ومعطَّل في بلدٍ كهذا، حيث قيمة المرأة يحدّدها حجم المؤخرة، واستدارة الثديين، وضيق

الخصر. أكره أيضاً أولئك الرجال المقلَّصين، المختَزلين في صيغتهم الأكثر بدائية، الباحثين على الدوام عن أنثى يعاشرونها، لأجل المباهاة بها، وعرضها كدِرع بطولة، ثمّ المقايضة بها لاحقاً، لأجل الحصول عن وضعٍ اعتباري ما، وسط «صناديد» آخرين من الطينة نفسها. بَيدَ أنني، وبقدر ما أمقتُ هذا العالم المافيوي، السائدةِ قيمُه منذ أكثر من ثلاثين سنة في البلد، في طريقة تفكير القَتلة والسياسيين ورجال الأعمال، وفي كلّ ما يمُتّ للسلطة بصِلَة، فإنني أكره كذلك عالم نساء بوغوتا، اللائي أنتمي إليهن، وأناضل في آن من أجل التميّز عنهن.

أكره تلك العادة التي تُطلق بمقتضاها صفة «إنديو» (هندي أحمر) على كلّ مَن ينتمي، بحسبهن، إلى طبقة اجتماعية دنيا. أكره تلك العادة السيئة التي يُميَّزُ بموجبها بين الـ«حضرتك» والـ«أنت»، حيث تُفردُ عبارة «حضرتك» بخاصة في أوساط الخدم. أكره عبودية النُّدل في المطاعم، حينما يَهُبّون مسرعين للترحيب بالزبناء، مردِّدين صِيَغاً من قبيل: «ما يريد جنابكم»، «ما يحب جنابكم»، «كما يأمر جنابكم». أكره أشياء وتصرفات كثيرة، أشياء تبدو لي غير منصفة، بليدة، اعتباطية وفظيعة، وبقدر ما أكرهُها، يرتدّ كرهِي لنفسي، لأنني جزء من هذا الواقع الذي لا مفرّ منه.

حكايتي أنا حكاية عادية، ومن دون الدخول في سرد التفاصيل، يجدر القول ربما إنني ابنة مهاجر فرنسي حلَّ بالبلد في إطار صفقة لإنشاء مصنعٍ للفولاذ. هنا كان مسقط رأسنا، أخي وأنا. هنا، كسائر أناس طبقتنا الاجتماعية، نَشأنا على التصرّف كأجانب يعيشون في بلدٍ مسيّج، سواء في إقامتنا في الجهة الشمالية من بوغوتا، أو في شقتنا بالمدينة القديمة بكارتاخينا، مع بضع عطلٍ

صيفٍ بباريس، وأخرى بجزر روساريو. لم تختلف حياتي كثيراً عن تلك التي تعيشها أيّ سيدة بورجوازية، إيطالية كانت أو فرنسية أو إسبانية. تعلَّمتُ أكل ثمار البحر الطازجة واصطياد قنافذ البحر منذ نعومة أظفاري، وببلوغي سن الواحدة والعشرين، صرتُ قادرة على التمييز بين نبيذ بوردو ونبيذ بورغون. كنت أعزف على البيانو وأتحدث بالفرنسية من دون لكنة، وكان إلمامي بتاريخ القارة القديمة لا يضاهيه سوى جهلي بتاريخ بلدي.

منذ أن تشكّلت ذاكرتي، كان يتوجّب علينا الاهتمام بأمننا. فأنا امرأة شقراء، بعينين زرقاوين، وطول يبلغ متراً و75 سنتيماً، ومع أنّ هذه المواصفات أضحَت اليوم أقل إثارة للاستغراب، فقد كانت في صغري مَجلَبة لعطف الراهبات، والتعامل التفضيلي لزميلاتي، كما شكّلت محطّ اهتمامٍ تحوّلَ عندَ والدي إلى بارانويا اختطافٍ لمْ تعرفْهُ أُسرَتُنا قط لحُسن الحظ. ولقد ساهم غنى أسرتي، وكذا ملامحي الأنجلوسكسونية، في تفاقم عزلتي، رغم أنني اليوم صرتُ أميل إلى الاعتقاد بأنّ ترديدي لهاته الأسطوانة لم يكُن سوى محاولة لإخفاء حقيقة وقوفي بنفسي، وبإرادتي الحرة، وراء منفاي الجسدي والروحي، لأنني كنت بعيدة على الدوام، أينما حللتُ أو ارتحلت.

في هذه المرحلة من العمر، يكون الحزن عادة جزءاً من المشهد الداخلي. لقد بلغتُ في الشهر الماضي السنة التاسعة والخمسين من عمري، وأنا أنظر إلى الماضي وإلى دواخل نفسي أكثر بكثير من تطلّعي إلى العالم الخارجي، ويرجع ذلك بالأساس إلى عدم اكتراثي من جهة، ولأن الأشياء التي أجدها في الخارج لا تستهوينِي من جهة ثانية. الأمر سيان ربما. أتصور أنّ لاضطرابي العصابي أثراً كبيراً في تلك القراءة السوداء التي أقوم بها للواقع المحيط بي، غير أنّ ذلك

أمرٌ لا مفر منه، وكما كان يردّد أوكتابيو باث، هذا «محل نظرٍ» أنا صاحبتهُ، ولا أملك غيره. فأنا أتقبّل طبيعتي الطبقية، وأتقبّل كذلك أحقادي، بل وأعانقها حتى، ولعلّ هذا هو التعريف الصحيح للنضج.

عندما تركتُ بلدي، لم تزَل الأمهات حينها يحرصن على ألّا ترتدي بناتهن تنانير قصيرة تسمح بإبراز ما فوق الركبة، اليوم لا يكاد يُترك شيء للخيال. هذه واحدة من الأشياء التي صدمتني عند عودتي. أحسستُ أنّ صدور بعض النسوة تلاحقني بوقاحة تكاد تكون عنيفة. على كلّ حال، لم أتمكّن قطّ من التأقلم مع نمط الحياة بكولومبيا، وفي فرنسا كنت دائماً غريبة.

أكثرَ منهُ مغادرةً لأجل الدراسة، كان ذهابي إلى باريس هروباً. هناك، وجدتُني أعيش في هناءٍ لسنوات عديدة. تزوجت وصرتُ أماً لطفلة، وزاولت مهنتي، غير أنّ السنين استحالت أشواكاً، والذكريات مُسوخاً في ذاكرتي، إلى أن أدركت في يومٍ من الأيام أنّ ساعة العودة قد دقت. هكذا، وأنا مطلَّقة، بعمر السابعة والخمسين، وابنة في الثانية والعشرين ربيعاً تَدْرسُ بالسوربون، كان عليّ أُن أعلِّب حياتي في ثلاث حقائب قديمة، وآخذ طريق العودة من دونها. تتكلّم ألين الإسبانية بلكنة، مع ارتكاب الأخطاء. هي فتاة جميلة، نحيفة وفارعة الطول، بنزوع إلى تفضيل النساء على الرجال، تفضيلاً لم يتّضح بعد ما إذا كان نهائياً أم عابراً. الأمر لا يُقلقني كثيراً، مع أنني أعلم أنه لو عاشت المسكينة هنا، لكان ذلك مَدعاة لأن تقلق، أو تتحمّلَ على الأقل وصلات الموعظة، وحتى التنكيل الاجتماعي. لقد تغيّرت الأمور بعض الشيء، هذا أمر مؤكّد. صار ممكناً على الأقل مشاهدة بعض الأجانب في الشوارع، وأضحى عدد مَن

يفكّرون بشكلٍ مختلف في تزايد. ومع ذلك، باستثناء صديقتي لوسيا إسترادا، التي عُدت للتواصل معها بعد ما يقرب من عقدين من الزمن، فأنا وحيدة إلى حدٍّ بعيد. ومع هذا، فأنا لستُ في حاجة إلى أحد، في الواقع.

«كولومبيا شغفٌ كبير»، هذا ما كانت تُعلنه اللوحة الإشهارية التي استقبلتني في المطار، بيدَ أنه في اليوم الموالي، كانت الصحافة تتحدث عن خمسة عشر قتيلاً في مجزرة بجنوب البلاد. ذلك الشغف، هو ما دفعني في الآن نفسه، وبكل عنفوان، إلى كرهِ أناسٍ كثيرين. أكره مثلاً السيدات أوروتيا وبومبو وماك أليستِر، اللائي يدعونني لاحتساء الشاي، أو للدعاء لصديقةٍ مريضة، أوْ لِأولئك الأطفال الإحدى عشر، المتوفين في حادث الانهيار الأخير في جنوب المدينة، الذي لم تطأ أرضَهُ أقدامُهن قط. كما أنني أكره البوّابين الذين يتلذّذون برفض مرور كلّ الناس، والخفر الذين يُعرقلون مرور السيارات الأخرى، والمحتاجين الذين ينتزعون مرايا السيّارات عند أعمدة إشارة المرور... إذ فقط في عملي، أعود للتصالح مع الجانب المتضامن في شخصي؛ ذلك الجانب الذي لم تَطَلْه المرارة بعد.

في مستهل سنة 2013، تمكّنت من الحصول على شقة جيدة بشارع 93، قرب حديقة إِلتشيكو، حيث إنني، بعد عودتي إلى البلد، نفضتُ الغبار عن بعض أسهمي التجارية التي ظلّت مجمّدة، فاستطعتُ اقتناء الشقة وكذا بقعة أرض في منطقة غواسكا، حيث أفكر في بناء منزل صغير هناك في الجبل. أنشأتُ عيادة في الشقة، وبفضل مصداقيتي، حصلتُ على زبناء في وقت وجيز. لا بد أن أعترف بأنني أجد أغلبهم مملّين. فعادة ما يكون من السهل التكهّن

بمخاوفهم، وكذا عقدِهم، وأحكامِهم، وما يعتزمون القيام به. لكن، في غياب وسائل ترفيه أخرى، عكفتُ خصيصاً على تقديم العلاج. لحسن الحظ، فالمدينة تقدِّم عرضاً ثقافياً واسعاً، ومن حين إلى آخر، يستهويني الذهاب إلى حفل موسيقي، أو معرض تشكيلي، وهو ما أخصِّص له كلّ أسبوعٍ نصفَي يومٍ بعد الزوال، أكون فيهما في راحة. على كلّ حال، يكسب المحلل النفساني ما يكفي وزيادة، وبالنظر إلى ظروفي وسني، لا حاجة لي بالعمل الكثير.

مع مرور الوقت، شرعتُ في القيام بحصص المشي عشيّةً، في أنصاف الأيام التي لا أشتغل فيها. لقد أضحى من المستحيل الذهاب إلى مركز المدينة، دون أن يجد المرء نفسه عالقاً لساعتين في زحمة المرور، ممّا اضطرني إلى التحرّك في الجوار فقط، ومشياً على الأقدام بالتحديد. في إحدى تلك الجولات، اكتشفت مكتبات جديدة، ومحلاً رائعاً لبيع الحلويات، وبعض محلات بيع الألبسة الجاهزة. غير أنني لم أشعر برغبة في أن أقيس أي شيء، فيوماً عن يوم، أصبحتُ أجد صعوبة في التعرّف على جسدي، وغالباً ما صار وجهي نفسه يفاجئني في المرآة، وأمّا ساقاي العاريين، فصارا خريطة ملتبسة، شاحبة ومَنسية.

في إحدى جولات المشي تلك في الحي، وأنا أذرع شارع 82، وجدتني ألتهم حلوى بالشوكولاتة مع كابوتشينو، في محل الحلويات مِيتشِلْ. شعرتُ عندها بتأنيب الضمير، فقرَّرتُ المواصلة حتى شارع 15، ثم قفلتُ راجعة إلى البيت، مشياً دائماً. على بُعد بضعة مجموعات سكنية من بيتي، في واحد من أصائل شهر مايو المضيئة، توقفتُ أمام بناية بيضاء ذات أبواب زجاجية، لم أكن قد دخلتها من قبل. «بيت الجمال»، هذا ما يُقرأ من خلال حروف فضّية. أطللتُ

بدافع الفضول. أظنّ أنّ الاسم هو ما جلبني. كنت منهَمِكَة في اكتشاف الطابق الأول، المليء بمنتجات مضادة للتجاعيد باهظة الثمن، وأخرى لترطيب البشرة، والتنحيف، وعلاج التجعدات الصغيرة والسيلوليت، عندما رأيتها فجأة، بمحاذاة فضاء الاستقبال. كانت تنتعل حذاء رياضياً أبيض، وزيّاً موحّداً أزرق، ولها تسريحة ذيل الحصان. شعرها الطويل شديد السواد كان متدلّياً على ظهرها. لم تكن للبقع المظلمة حول عينيها، ولا لأثر العياء البادي على محياها، أهمية تُذكر، كان جمالها صريحاً أخّاذاً، مباغتاً إلى حدّ بعيد. كانت الفتاة مفعمة بالحياة. شيءٌ ما متوحشٌ وخالصٌ تملكُه، كان يجعلها تبدو حقيقيةً، وعلى نحو يصعب وصفه. لم أعرف إلى حدود الآن ما إذا كان مردّ ذلك إلى انضباطها واعتدادها بنفسها، أم هو هِبة وراثية بكلّ بساطة. يبدو أنني لن أعرف ذلك أبداً. ستبقى كارن لغزاً كبيراً. خصوصاً في مدينة كهذه، حيث يشبه كلُّ إنسانٍ ماهيتَه، ويكشف لك هندامه، وطريقته في الكلام، ومكان سكناه، عن قواعد سلوكه المكرورة، والتي يَسهُل التكهّن بها. ما لفت انتباهي هو وجه الغزال لديها، لكن، وعلى الخصوص، تلك الوداعة في تعبير محياها. أراهنُ أنها لا تقوم إطلاقاً بأدنى مجهود من أجل أن تَظهر بذلك الشكل، وإذا كان هناك من شيءٍ يمكنني قوله بمجرّد النظر إليها، فهو أنّ السَّكينة تعشِّش في روحها.

لعلّ بقائي هناك مشدوهة، أنظر إليها كما لو تعلّق الأمر بظهور شبح، هو ما جعلها تقترب مني وتسألني:

- هل من خدمة، سيدتي؟

ابتسمتُ من دون مجهود يُذكر، كما لو كنتُ أعبِّر بذلك عن شكري لكوني حية أرزق. بدا لي غريباً أن لا ينتبهَ أحد لجمالها فيما

يبدو. كما لو أنّ زهرة أوركيد من النوع البالغ الرقة سقطت في مستنقع وحل. حولَها، جلست نساء بكعبٍ عالٍ وابتساماتٍ كاذبة. فتاة الاستقبال، بدتْ كمهرِّج، بشفتين كرزيتين، واحمرارٍ في الوجه مُبالَغٍ فيه. أما هي، فَلَا؛ كانت تبدو وكأنها تعلو على كلّ شيء، وتضفي معنى على اسم المؤسسة.

- شكراً، أَجَل، أودّ إزالة الشعر، قلتُ عندئذٍ، كما لو لم أكُن أزيل شعري بنفسي منذ أن أصبحتُ راشدة.

- لدينا شغور كثير في هذه الأثناء. هل تود السيدة القيام بذلك الآن؟

- نعم، جيد الآن، أجبتها كمن تمّ تنويمها مغناطيسياً.

- عذراً، ما اسم حضرتكِ؟

- كلير، كلير دالفارد، قلت.

- اتبعيني، من فضلك، أضافَت.

تبعتُها مباشرة.



- منذ سنّ مبكرة جداً، ترطِّبُ السوداوات والمُوَلَّدات شعرهن بالمكواة، والكْريم المرطب، ومجفف الشعر، وبأقراص قابلة للمضغ. ثم أنهن يسرّحن الشعر بواسطة الجذب والشد، على طريقة لَيّ العمامة، أو بقلب الاتجاه، كما يضعن الأقنعة المغذية، ويخلدن للنوم وقد لففن شعرهن بجوارب النايلون، ويستعملن مانع تسرّب مصنوع من السيليكون. فالتوفر على شعر ناعم هو من الأهمية بمكان، شأنه في ذلك شأن استعمال حمالة الصدر، وَهو جزء لا يتجزأ من الأنوثة، فلا مفرّ من إيلائه العناية اللّازمة. من أجل ذلك، ينبغي التسلح بالشجاعة، والتزود بالمقابض المعدنية، والاستعداد دوماً لتحمّل الجذب الشديد، وقضاء ساعات طويلة في إنجاز هذه المهمة المكلِفة، والمزعجة، لكن الضرورية أيضاً، لِمنْ أراد الحصول على مظهر مثالي، تقول كارن بصوتها الجهوري.

- والصبيات الصغيرات، أيتوجّب عليهن أيضاً القيام بذلك؟

- إذا كنّ صغيرات جداً، فلا ضرورة لذلك. لكن ما أن يصبحن آنسات، ابتداء من سن الثامنة أو التاسعة فما فوق، حتى يَنشُدنَ كلهن الشعر الناعم، كيف لا؟ قالت وهي تسحب الضمادات.

عندما حلّتْ بالمدينة، أُعجِبتْ بها كثيراً. أجل. هي فعلاً جميلة

بالنسبة إلى كثيرين، وتحديداً بسبب تلك الهالة الخفيفة من الحزن التي تميّزها، والتي يبدّدها أحياناً صباح مشمس وهّاجٌ وغيرُ منتَظَر.

لقد تركت طفلها البالغ أربع سنوات في رعاية أمها بكارتاخينا، وجاءت إلى بوغوتا. إحدى زميلاتها كانت قد فتحت مركز تجميل في كيريغوا ومنحتها عملاً. وعدَت أمها بأنها سترسل مالاً شهرياً لرعاية إميليانو، وهو ما وفَت به. تقطن أمها في منزل بحي سان إسيدرو، مع الخال خوان، العازب المريض. يعيش كلاهما من راتب تقاعد الخال، عن سنوات اشتغاله الثلاثين في مكتب البريد، ومن الحوالات التي ترسلها هي.

شبَّت كارن على سماع موسيقى البايناتو والباتشاتا، وَلاحقاً، التشامبيتا. كانت أمها، التي لا تكبرها سوى بسبع عشرة سنة، ملكة جمال الحي في يوم من الأيام. بناء على ذلك المعطى، حلمت بالخروج من الفقر، لكنها انتهت حبلى من رجل أشقر يتكلم بالكاد اللغة الإسبانية، والذي افترضت أنه بحّار، ومن زيارة الحب الخاطفة تلك، أُنجِبت تلكَ المُوَلّدَةُ التي لا تتقاسم وأمَّها اللقب فحسب، بل الجمال والفاقة كذلك.

باعت دونيا(*) يولاندا بالدس اليانصيب ونقانق فريتانغا، واشتغلت كعاملة منزلية، ونادلة في حانة بمركز المدينة، وفي النهاية، تفرّغت لرعاية حفيدها، وتحمل مرض التهاب المفاصل، والشكوى من كونها أنجبت أنثى عوض الذكر. عند بلوغها سن الأربعين، صارت تبدو كالعجوز تقريباً.

مغامرات دونيا يولاندا العاطفية تسبَّبت لها في حملين إضافيين،

(*) دونيا: السيّدة بالإسبانية.



وبالذكور في كليهما. ولِحظِّها العاثر، وُلد الأول ميتاً، بينما توفي الثاني أياماً قليلة بعد ولادته. كانت يولاندا بالدس تقول إنّ نساء عائلتها كُنّ يعانين من السحر كلهن. إنّ عملاً خبيثاً كان يوضع لهن فجأة، فيُخضعُهن للعزلة كمصير وحيد.

تتذكر كارن قداس السابعة صباحاً أيام الأحد، والاستيقاظ مع تغريد الكناري. تتذكر أكلة السانكوتشو بالسمك، وبشرتها المشدودة، ومعاينتها دائخة منظرَ الأضواء البيضاء، تاركة جسدها يطفو فوق الماء لفترة طويلة. مع مرور الوقت، أضحى طقس انعزالنا لوحدنا داخل مقصورة التدليك تلك، مستظِّلتين بشبابها، وإيقاعها البحري، وقوة يدها الصارمة الناعمة، حاجة ملحّة بالنسبة لي، كحاجة الجائع إلى الأكل.

منذ رأيتها أول مرة، ودَدتُ أن أعرف مَن تكون. بكياسة مَشُوْبة بالرقّة، صرتُ أوجّه لها السؤال تلو الآخر، بينما طفقت تمرِّر أطراف أناملها فوق ظهري. هكذا علمت أنها حلت ببوغوتا في يناير 2013، في الفترة المشمسة من السنة. أقامت أولاً في سوبا، في حي كورينتو، حيث كانت إحدى الأسر تعرض للإيجار شقة صغيرة بحمام ومطبخ، بمبلغ ثلاثمئة ألف بيزو، تشملُ كلّ الخدمات. كانت تكسب الحدّ الأدنى من الأجر، وعند نهاية الشهر لا توفر ولو بيزو واحد، فلم يكن بإمكانها إرسال شيء للأسرة. بالإضافة إلى ذلك، كان الحي غير آمن، وكانت كارن تعيش في كنف الخوف. وفي فجر ذاك اليوم الذي أطلق النار فيه مخمورٌ على شخصين، بسبب عرقلتِهما السير في الطريق العام بداعي الاحتفال، قررتْ كارن البحث عن مكان آخر لتعيش فيه.

انتقلت إلى سانتا لوسيا، بجنوب المدينة، قريباً من شارع

كاراكاس، بيدَ أنه أصبح عليها الآن أن تَعبُر المدينة كلها، لأجل الوصول إلى الصالون حيث تشتغل.

عندما أخبرتها زميلة لها بأنهم يعرضون منصب شغل في أحد مراكز التجميل المميزة بشمال المدينة، حصلت كارن على موعد للمقابلة. كان ذلك في بداية أبريل والمدينة تعرف تساقطات طوفانية. كارن حديثة العهد بالمنزل الجديد، وقد أنبأها حدسها بأنّ غزارة الأمطار قد تكون بشارة عن أيام وفرة قادمة.

يقع بيت الجمال في منطقة زونا روسا. من الخارج، توحي البناية البيضاء بالنظافة وبنوع من الجدية. شكلها عبارة عن مزيجٍ من عيادة طب الأسنان ومتجر ملابس الموضة، وبعبورِ أبوابها الزجاجية، يتمّ الولوج إلى عالمٍ نسوي بامتياز. فتاة الاستقبال، من خلف المكتب، تلقي التحية بأجمل ابتسامة. ثمّة مستخدَمات بلباس موحد، ممكيجات، بتسريحات أنيقة، يوزعن الابتسامات، والكريمات، والعطور، والأقنعة المغذية الرفيعة، المعروضة في متجر الطابق الأول. فوق الطاولة الصغيرة التي تتوسط قاعة الانتظار، كان هناك ركام من المجلات المكدّسة على شكل عمود.

تتذكر كارن أنها قَدِمَت إلى المحل يوم الخامس من أبريل، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. بمجرد تخطّيها عتبة الأبواب الزجاجية، تشبّعت بشرتها بعبقِ مزيجٍ من فانيلا ولوز وماء ورد وشامبو وخزامى.

فتاة الاستقبال، والتي سيكون لها متسع من الوقت للتعرّف عليها لاحقاً، بدت لها كدمية خزف صيني. الأنف أفطس، العينان كبيرتان، والشفتان مستديرتان، بلون الكرز. أيّ نوع من أحمر الشفاه تستعمل يا ترى؟ تساءلتْ وهي تتوجّه صوب قاعة الانتظار.

في الداخل هناك مرآة كبيرة، وأريكتا حلاقة جلست فيهما سيدتين لإزالة شعر الحاجبين، ووضع المكياج، وتجريب المنتجات. ترتدي المستخدمات كلهن سراويل زرقاء، وبلوزات ذات أكمام قصيرة باللون نفسه. يَبدونَ كممرضات، لكن، خلافاً لهؤلاء، يبدو منظرهن أكثر أناقة: الشعر مصفف بعناية، والمكياج كثير، الأيدي رائعة، والخصر خصر يعسوب. كان لإحداهن لون بشرة أسمر برونزي، وعلى زرٍّ وضعته فوق صدرها، يمكن قراءة اسمها: سوزانا.

ترتدي عاملة النظافة لباساً موحداً أزرق كذلك، غير أنه أكثر قتامة. اقتربَت منها وقدَّمَت لها ماء منسّماً بالفواكه والأعشاب. قَبِلَت كارن المشروب. عاينَت دخول مغنيةٍ نمط تْرُوبي بُوبْ، تلك الشهيرة بلقب ريكا. هي فتاة سمراء فاتنة، ذات لون برونزي أخّاذ يثير الحسد، وعمرٍ لربما أكبر ممّا تبدو عليه. بدت بنظارتين شمسيتين وضعتهما على شكل تاج، وخواتم ذهبية في كلّ أصابعها، والعديد من الأساور. تقدّمت مثلها إلى نقطة الاستقبال، ثم جلست بجانبها وبيدها مجلة.

- دونيا فينا في انتظار حضرتك، يمكنك التقدّم، أعلنت فتاة الاستقبال.

- شكراً، قالت كارن وهي تتكلّف إبراز حرفَي الكاف والراء، لإخفاء لَكنتها.

صعدت عبر درج حلزوني. تجاوزت الطابق الثاني، وواصلت إلى الثالث. على يمينها، أربعة مراكز للعناية بالأشفار، وثلاثة خاصة بالأظافر. في الوسط، كان هناك أربع مقصورات، وفي أقصى الممر، إلى اليسار، مكتب دونيا خوسيفينا دي بريغارد. اقتربت كارن

من الباب غير المغلوق تماماً، لتسمع صوتاً آتياً من الجهة المقابلة يدعوها لأن تتقدّم. في وسط قاعة دافئة تسمح ستائرها الشفافة برؤية صباح كثير الضياء، رحَّبت بها سيدة غير محدَّدة السن، ذات حذاء منخفض الكعب، سروال كاكي، تنورة بلون بنّي فاتح وعقد جواهر، مع تسريحة شعر ومكياج خفيف.

- اِجلسي، حضرتك، قالت لها بنبرة صوت قوية.

عاينتها دونيا خوسيفينا وهي تمشي إلى أن وصلت إلى الكرسي الموجود بجانب المكتب الوحيد في الغرفة. فحصتها مثل سكانر من الأعلى إلى الأسفل، بعينين خضراوين، وهي ترفع الحاجبين بشكلٍ طفيف.

بعد ذلك غاصت طويلاً بنظرها في عيني كارن، فرفعت الأخيرة رأسها.

- دعيني أرى اليدين، قالت لها.

قرّبتهُما كارن منها، في نكوصٍ مباغت إلى مرحلة المدرسة الابتدائية، لكن دونيا خوسيفينا لم تأخذ المسطرة لتعاقبها، بل تركت يد الشابة تستقر لِبرهةٍ فوق يدها بكلّ بساطة، ثم وضعت النظارتين وفحصتها بفضول، بعد ذلك أعادت العملية مع اليد اليسرى، ثم طلبت منها الجلوس.

أمّا هي، فطفقتْ تتجول في القاعة. «حتّى لو كنتُ بهذا العمر وهذا الشكل، ما كنتُ لأجلس كذلك»، خمّنت كارن.

- هل تعلمين حضرتك كمْ عمرُ بيت الجمال؟

- عشرون سنة؟

- خمسة وأربعون. تصوّري، كنت حينها بالكاد قد أنجبتُ أبنائي الثلاثة، وقد صار لي الآن أبناءُ أحفاد.

أمعنَت النظر في خصرها الملفوف بكياسة في حزام من جلد ثعبان، ثم أظافرها المصبوغة بلون زهري فاتح، وعينيها اللوزيتين، ووجنتيها الناتئتين، اللتين تبدوان كحجر أوبّال فاتح اللون ومرصّع. كان بوسع المرأة الموجودة أمامها أن تكون نجمة سينما.

- بيت الجمال وأسرتي هما كلّ ما أملك؛ لذلك، فأنا متطلِّبة جداً ولا أقدِّم تنازلات.

- فهمت، قالت كارن.

- نعم، صغيرتي، يبدو أنك فهمتِ. لقد انتقلتِ من مركز مرموقٍ بكارتاخينا إلى آخر عادي ببوغوتا. لماذا؟

- لأنني أكسَب هنا أكثر من هناك، أو على الأقل هذا ما فكَّرتُ به عندما غادرتُ الساحل.

- المال دائماً. . .

- لي طفل في الرابعة من عمره.

- كلكن لديكن.

- في الرابعة من العمر؟ قالت كارن من دون تفكير.

- أرى أنّ روح الدعابة لا تعوز حضرتكِ، قالت دونيا خوسيفينا وهي تعود لصيغة «حضرتك» بطريقة فجائية. هذا محل جدير بالنساء الجديّات الكيّسات، المستعدات للعمل لاثني عشر ساعة يومياً، واللائي يقمن بعملهن على أحسن ما يرام، ويُدركن أنّ العمل بالتجميل يتطلب مِهنية مطلقة. ونظراً إلى ما لحضرتك من حيوية ورشاقة، فأنا على يقين بأنّ الأمور قد تسير جيداً معكِ هنا. انظري حضرتك: قد تملك الزبونات المال، بل والمال الكثير في حالة البعض منهن، لكن شعوراً مفرطاً بفقدان الثقة في أنوثتهن ينتابهن في غالب الأحيان. فالخوف يتملّكنا جميعاً، وكلما بدأنا نشيخ، تزداد

حدّته. لذلك، في هذا المحل، يجب أن نكون بارعات جدّاً في عملنا، لكن مع توفير الإحساس بالدفء، والتفهُّم والقدرة على الإنصات.

- فهمت، قالت كارن بطريقة آلية.

- أنت لم تفهمي بطبيعة الحال، بنيّتي. لستِ في عمر يسمحُ لكِ بالفهم.

صمتَتْ كارن.

- إذاً، وكما كنت أقول لك، لا يمكن الاعتراض على رغبات الزبونات. إذا رغبنَ في الحديث، تجب محادثتهن؛ وإذا فضّلنَ السكوت، لا يجب أن تكون حضرتك البادية بالكلام. طلبُ بقشيشٍ أو خدمة كيفما كان نوعها موجِبٌ للفصل. الردّ على الموبايل في ساعات العمل موجِب للفصل. الغياب عن المحل من دون إذنٍ مسبَق موجِب للفصل. أخذ أيّ مستلزم من مستلزمات العمل إلى البيت من دون إذنٍ موجِب للفصل. لا تُطلب عطلة إلّا بعد مرور سنة كاملة من بداية العمل، واشتراكات التقاعد والتغطية الصحية تُقتطع من رواتب حضراتكم. أمّا العطل، وهي في الواقع توقّفٌ عن العمل غير مؤدّى عنه، فلا يجب أن تتجاوز الأسبوعين، وتشمل عطل الأعياد. مَباردُ الأظافر والكريمات والزيوت ومَباسِط المزج وباقي المواد، كلها على حساب حضراتكم.

- هل لي أن أسأل عن الأجر؟

- هو بحسب المردودية. عن كلّ خدمة تجنون أربعين في المئة. إذا تفوَّقتِ في شغلك وطلبت الزبونات عدّة مواعيد معك، بعد شهرين أو ثلاثة قد تتمكنين من جمع مليون بيزو، مع احتساب البقشيش.

- أنا موافِقة.

عندئذٍ كشفت دونيا خوسيفينا عن ابتسامتها.

- ليس بهذه السرعة، صغيرتي. لديّ مقابلتين أخريين هذا المساء.

تساءلَت كارن باستغراب كيف يمكن لسيدة أنيقة، ومهذبة في ما يبدو، أن تنتقل بكلّ سهولة بين سجلّي الـ«أنت» و الـ«حضرتك»، من دون احترامٍ لأية ضوابط.

- وددتُ فقط أن أقول لحضرتك إنني مهتمة جداً، أضافَتْ مفضِّلةً الاستمرار في سجل الـ«حضرتك».

عندما كانت كارن تهمّ بالخروج، أوقفتها دونيا خوسيفينا:

- شيء آخر أودّ الإشارة إليه. بالنسبة إلى مَن لا يحبّ اللكنة الساحلية، دعيه وشأنه، فلا أحد في هذا البلد أو غيره من البلدان يستحسن طريقة كلامنا نحن أبناء بوغوتا الأقحاح.

بعد مرور أسبوع، كانت كارن ضمن فريق بيت الجمال. لو أنها اشتغلت في قسم الحواجب والماكياج والرموش، لوجدت صعوبة في التنافس مع سوزانا، بحسب ما أسرّتْ به لي مرة. وبما أنّ لكلّ أسلحته، سرعان ما أصبحت ملكة الطابق الثاني. لقد كلفوها بالمقصورة رقم ثلاثة، حيث ستتكلّف بإجراء عمليات تنظيف الوجه، والتدليك وإزالة الشعر. نظراً إلى جمالها وحذرها ومهنيَّتها، صارت واحدة من المفضّلات، خصوصاً في مجال إزالة الشعر. اكتشفَتْ أنّ نساء بوغوتا، عندما يأتين من أجل البيكيني الشامل، أي إزالة الشعر من الجسد كله، لا يفعلن ذلك بمحض إرادتهن، بل يأتين بطلب من الزوج أو الخطيب أو العشيق. كانت تحكي لي عن زبوناتها وزبونات

زميلاتها في المحل، وهكذا، من خلال الحديث، أتى الذكر على اسم صابرينا غوثمان.

لِكارن معرفةٌ بمَن لها شامة وُلادةٍ في رِدْفها، ومَن تعاني من الدوالي، ومَن لها مشاكل مع ثدييها الصناعيين، ومَن هي بصدد الانفصال عن زوجها، ومَن تتّخذ عشيقاً، ومَن يخونها زوجها، ومَن تسافر إلى ميامي خلسة، ومَن شخَّصوا لها سرطاناً في الأسبوع الفارط، ومَن تجري حصص تدليك يومية لتخسيس الخصر من دون علم زوجها.

تشبه منضدة التدليك أريكة الطبيب النفساني. هناك، تُمدِّد المرأة جسدها الأعزل، في حركة استسلام تام. ومستجيبةً لنداء «استريحي حضرتك، أطفئي الموبايل»، تلجُ المقصورة وهي على أتمّ الاستعداد لقطع الاتصالات لفترة من الزمن. هكذا، لربع ساعة، أو نصفها، أو ما يزيد ربما، ستكون منعزلة عن العالم، متّصلة فقط بجسدها، بالصمت، وأحياناً، بالدردشة الحميمية، حيث تتداعى الأسرار التي قلّما تتمّ مشاطَرتها، حتى مع أقرب المقربين.

حلّت صابرينا غوثمان بالمحل ذات خميسٍ ممطر، بشعرٍ مبلّل وبِلباس الثانوية الموحّد، وقد بقي نصف ساعة بالكاد عن وقت الإقفال. كانت تفوح منها رائحة كحول قوية. شرحت لكارن أن حبيبها دعاها لعشاء رومانسي سينتهي في فندق من خمسة نجوم. بحسب ما فهمته منها، كان هذا الحبيب هو الشخص نفسه الذي جاء في مناسبتين سابقتين من أجل «تتويج» بُلوغها، حتى تصير امرأة مكتملة، غير أنه ذهب دون أن يمنحها ذلك الشرف، لأنها لم تكن مقشَّرة كتفاحة، بحسب التبرير الذي قدَّمته الزبونة.

لقد حلّ بِبوغوتا ليومين، لذلك كان لا بد من استغلال الفرصة

هذه المرة. لم تشرح لها ما المقصود باستغلال الفرصة، لكن كارن فهمت أنّ ذلك يعني فضّ بكارة الصبية. كانت حصة إزالة الشعر عذاباً لكلتيهما، إذ بالغت الزبونة صابرينا في الشكوى، ولمّا عاينت كارن خروج قطرات من الدم، كانت نذير شؤم بالنسبة إليها.

عندما غادرت الفتاة المحل، بقيت كارن تُعاين رشة الدم الصغيرة فوق غطاء المنضدة وتتساءل كيف السبيل لإزالتها. حاولت بالماء والصابون والأمونياك، لكنها لم تفلح سوى في تحويل اللطخة إلى اللون الزهري الفاتح، والذي سيرافقها في ما تبقى لها من أيام في المحل.

3

ستتذكر اسم حبيب زبونتها بعد بضعة أيام، عندما سيتمّ العثور على جثة صابرينا غوثمان. في موجز أخبار سريع، اكتفوا بالقول إنّ شابة تبلغ من العمر سبع عشرة سنة، طالبة بالمركز الرياضي النسائي، فارقت الحياة من جراء تمدّد للأوعية الدموية، وأن مراسم التأبين ستتم في اليوم نفسه، 24 يوليو، في كنيسة الحبلُ بِلا دَنَس، عند الساعة الثانية عشرة زوالاً.

ومع أنه لا يُرخَّص لهن بالخروج في بيت الجمال، أحسَّت كارن برغبة ملحَّة في حضور التأبين. دخلت الحمام، ونزعت لباسها الموحد، ثم ارتدت سروال الجينز، والقميص الأبيض، وطلبت من سوزانا أن تُعيرها سترتها السوداء، التي قَدِمَت بها للعمل في ذلك اليوم.

خرجت في يوم ماطر محتميةً بمطرية بقيمة خمسة آلاف بيزو. تقدَّمت وسط زعيق السيارات، محاولةً تفادي برك الماء الصغيرة، إلى أن وصلت إلى الشارع 11، حيث استقلّت حافلة ركاب مهترئة. بمجرد دخولها، أغلقت المطرية، وفتحت حقيبة النقود، اشترت التذكرة، وتوجهت صوب الجهة الخلفية للحافلة، مختنقة بين أجساد الرجال وعبق البتشول لدى نساءٍ بشعر طويل سيئ

الصباغة. عندما أمسكت بالعمود، كَدأبِها كلّما ركبت حافلة، فكرت ألّا شيء يصيبها بالقرف مثل تماس يدها مع ذلك الجسم المعدني اللّزج الوسخ.

لم تتوقف حركة صعود الركاب. التصق صدر رجل ذي كرش كبير بصدرها. كان فارع الطول، بحيث أن كارن، حينما كانت ترفع ناظرها إلى الأعلى، كانت ترى ذقنه الأسمر فوق رأسها.

صعد طفل عمره إحدى عشرة سنة تقريباً، ليبيع حلوى النعنع. قال إنه من مُرحَّلي إقليم توليما، وإن له أربعة إخوة، وإنه معيلهم. بحثت كارن في حقيبة نقودها ومدَّت له خمسمئة بيزو، قبل أن تضغط على زرّ التوقف. توقف السائق فجأة، فقفزت، لتطأ قدماها رصيف الشارع.

قبل أن تلج الكنيسة، توقفت في أحد المحلات التجارية. كانت تودّ إزالة الرائحة السيئة التي علقت بملابسها. استعملت قارورة عطر موضوعة للتجريب، شانيل رقم 5. نظرت في مرآة صغيرة موضوعة في علبة أحمر الخدود، عدلت تسريحة شعرها بواسطة الأصابع، أخرجت أحمر الشفاه من حقيبة اليد، ووضعته بعناية قبل أن تواصل طريقها.

عند وصولها إلى الكنيسة، تقدَّمت بين الحضور الكثير إلى الأمام، كما لو أن شريطاً متحرِّكاً يحملها. في الصف الرابع أو الخامس وجدت مكاناً شاغراً. أمام ناظرها انتصب النعش المغلق. خطر ببالِ كارن أنّ قليلاً من الناس فقط بوسعهم تذكّر الأجساد كما تتذكرها هي. كانت أصابع رجليها طويلة ونحيفة، ولها عروق بارزة على مستوى الساقين. تذكرت بقع النمش على كتفيها الضيقين، والأنف المستقيم، والعينين الواسعتين، والشفتين الرقيقتين، ثم خطر

ببالها أنّ صابرينا كانت جميلة، جمالاً رمادياً لربما، كجمال هذه المدينة، غير أنه كان جمالاً غير صارخ ومليئاً بالأسرار.

داهمها حزن شديد، كموجة وسط بحر هادئ، وفي حركة انفعالية، شدَّت قبضة يدها بكلّ قوة لمقاومة الدموع. فكرت في ماسكرا الرموش وهي تنساب فوق خديها والناس يتساءلون مَن تكون هذه الدخيلة التي تبكي الفقيدة بوجه أسود. فكّرَتْ في المجهود الذي بَذَلَتاه معاً قبل يومين أو ثلاثة، لجعلها تبدو كتفاحة أو كصبية. ثم تذكّرت أنها في كنيسة فشعرت بالخجل. انتبهت عندئذٍ فقط للرجل الذي كان بجوارها. لقد سبق لها رؤيته بكل تأكيد. لا بد أنه من المشاهير. اعتقدت لوهلة أنها شاهدته كمقدِّم لفقرة أخبار النجوم بالنشرة المسائية، لكنها استبعدت الفكرة بعدئذٍ نظراً إلى عمره المتقدم. ثم تذكّرته بعد ذلك. كان مؤلف كتابَي **السعادة أنت** **وأقدِّر ذاتي**. ارتسمت ابتسامة على وجه كارن في تلك اللحظة. منذ أربع سنوات، قبل أن يتغير مجرى حياتها بميلاد إميليانو، كانت تتابع دراستها بالأسدوس الأول من شعبة العمل الاجتماعي، في جامعة كارتاخينا.

خطر ببالها أنه بسبب سذاجتها حينئذٍ، مع أنها اليوم لا تقلّ سذاجة عمّا كانته في الأمس، أو لتمثلاتها الخاطئة إذّاك عن العلاقات الغرامية ربما، رغم أنها لا تزال على الحال نفسه، قد وقع لها ما وقع. ذلك أنّ أستاذ القدرات الذهنية كان يتحدث بطريقة رائعة. صحيح أنه كان متقدّماً في السن، إذ كان يكبرها بكثير، وهي التي لم تتجاوز بالكاد الثامنة عشرة من عمرها، لكنهُ بالنسبة إليها، كان عالِماً متنوراً. كان للأستاذ نيكسون بارّوس سحر رجال الكاريبي: حلو الحديث وقهقهاته يطلقها بعفوية وعنفوان. ذلك ما

أثار إعجابها وجذبها إليه؛ وكانت، وهي تنظر إليه، تبدو كالمُنوّمة مغناطيسياً. لم يكُن نيكسون ممّن يتهيّبون دفق الرقة، وظنّته رجلاً حقيقياً. لقد أعجبها شعره المُجعّد، وقطرات العرق التي تغطي جبينه دون أن يُبدي أدنى اهتمام بها، وتلك الأقمصة المحلية من نوع غوايابيرا، التي يرتديها بقياس يكبره بعض الشيء، ثم عطر الكولونيا الذي يضعه.

مع الأستاذ نيكسون اكتشفت سوق بازورتو، وعاشت أول تجربة سُكْرٍ في حانة إلغوسي باغانو. ما يقرب من السنة قضته في الغياب عن الدروس ومداراة سرٍّ كان يجعل وجهها يتورّد خجلاً. منذ البداية، كانت كارن على علم بأنّ الرجل متزوج للمرة الثانية، وأن له زوجة تصغرهُ سنّاً وطفلاً صغيراً. بيد أنه في اليوم الذي انحنى فيه ذاك الرجل لتقبيلها، لم تتوقف للتفكير في الأمير الوسيم الذي كانت أمها تحلم لها به، ولا في لون الرجل الأسود، أو أنه متقدّم في السن، أو أنه متزوج، فقط أغمضت عينيها وأطلقت العنان لشفتيها في استسلام تام.

مع مرور الأيام، ازدادت فرحة كارن، واستفحل شغفها وهبالها، حيث أضحت لا تفكر إلّا بواسطة جلدها.

سمحت بافتضاض بكارتها في زقاق مظلم من أزقة جيتسيماني وواصلت على المنوال نفسه، تسمحُ أن يُفعل بها أين ومتى تسنّى ذلك، بمتعة واستسلام يزدادان يوماً عن يوم، لثلاثة أو أربعة أشهر لاحقة، بينما ظلّ نيكسون يحدِّثها عن أشياء كثيرة تجعلها في قمة الدهشة. لأجله، قرأت كارن **مئة وصلة فركِ أسنان قبل النوم**، لصاحبته ميليسا باناريلو، و**الجنس الآخر** لسيمون دي بوفوار، و**رسائل حب من رسول**، لباولو كويلو، و**هكذا تكلم زرادشت**

لفريدريك نيتشه، من بين كتب أخرى أيقظت فيها ثورة مدمِّرة. عندئذٍ بدأت تنظر بشكل مختلف للنساء اللواتي ينتفن شعر الحاجبين، وتركت شعر الإبطين ينمو كتعبير عن الحرية. «لست أوجد في هذا العالم لإرضاء الرجل»، هكذا ردّت على أمها حين سألتها عن سرّ ذلك الشعر الكثيف الذي يظهر من إبطيها. «كُفّي عن الهراء بُنّيتي، فليكن إرضاءً لي إذاً»، قالت دونيا يولاندا، التي بوسعها الامتناع عن الأكل إذا شحّ المال، لكنها لن تتخلى أبداً عن الذهاب إلى صالون الحلاقة.

كانت الأم تراهن على جمال ابنتها كارن كأفضل وسيلة للخروج من حالة الفقر. لطالما ردَّدت على مسامعها أنْ لوْ كانَ مظهرها لائقاً في ذلك الصباح الذي رآها فيه الغرينغو[1] شعثاء، وببقعها المظلمة حول العينين، ما كان ليتركها هكذا نهباً للضياع. وبحسب ما فهمَته من أمها، كان أبوها شاعراً، فناناً، ورحالة، رغم أنّ حدس كارن كان يُخبرها باستمرار بأنّ أمها تخترق أشياء، حيث أخبرتها مرة بأنه كان مغنياً شعبياً من مدينة سينسيليخو، ثم ملاكماً من بلدية توباكو، فَملاحاً إنجليزياً، وهي الرواية التي أعجَبَت كارن أكثر من سابقاتها.

كانت فتاةً مراهقةً طويلة القامة ونحيفة، وكانت أمها تطعمها بأحسن ما تستطيع توفيره من تغذية، مع أنها لم تلحَظ لها نموّاً باستثناء العظام. ورغم أنها كانت كلّ صباح تهيّئ المشواة، لتُعدّ لها طبق ريفولتيخو بالبيض والقشدة الطرية والأرز والفاصوليا الخضراء

---

(1) غرينغو: لقب يُطلقه سكان أميركا الجنوبية على الأميركيين الشماليين، سائحين كانوا أو مقيمين، مثل ما يفعل المشارقة عندما يطلقون لقب «الخواجة» على الأجانب من الغرب.

واليوكا والسمك، لم يكن جسد الصبية يتمدَّد سوى إلى الأعلى. بالنسبة إلى كارن، كانت السعادة مرادفةً لذلك الفطور المرفوق بعصير التوت في شرفة المنزل، حيث يكون ضجيج مكبرات الصوت الضخمة قد توقف، وشارع إلبيراتا قد استعاد هدوءه من صخب الأهازيج، حيث تتنافس أنغام باييناتو وريغيتون وتشامبيتا ورانتشيراس من دون توقف، وتتكرّر الحرب نفسها نهاية كلّ أسبوع، بأطفال يثيرون نقع الشارع حفاةً، والشبّان من أبناء الحي يجلبون علب جعة كوستينيبيتا مثلجة، لاحتساءها أمام أبواب المنازل، بينما يتجاذب آخرون أطراف الحديث جالسين على كراسي ريماكس، والعم ريتشارد في كرسيِّه الهزّاز، دائم الصمت والجدية، بعينيه الحمراوين من جراء قلة النوم وابتسامته المتكلّفة، ينظر إليها بعطفٍ مخمورٍ.

في تعبيرٍ عن تمرّدها، تركت كارن خصلات شعرها المتجعّد تنمو على طبيعتها. لكن مع مرور الوقت، وانتقادات أمها ودراستها للتجميل، لم تتعَب فقط من شرح أسباب تركها لخصلاتها المجعدة على طبيعتها، بل تجاوزت ذلك لتتخصَّص في الشعر الناعم.

بالنسبة إلى عائلتها، وأصدقاءها، والناس الذين تعرفهم، تُعادلُ مواقعةُ رجلٍ باستعمال العازل الطبي تلقّي صفة المومس. «متى وُجد الحب، انتفى وجود العازل»، هكذا ظلّت تردِّد دونيا يولاندا. حكمها هذا كانت تُكمِله بواحدة من بناتِ تَطَيُّرها الكثير: «إذا صرّح لكِ رجل بحبه، انظري إلى بؤبؤي عينيه. إذا تمدَّدا، فهو كاذب لا محالة». لقد صرّح لها نيكسون بحبه وبقي بؤبؤي عينيه على حالهما. لكن، بعيداً عن كل هذه التفسيرات، كانت كارن تثق فيه كثيراً.

لم يكن نيكسون واحداً من أولئك السود الذين لا يتحدثون سوى عن المال والسيارات، وعن النساء كما لو كنّ من المواشي.

نيكسون لم يكُن يضع سلاسل الذهب، ولم يكن شغوفاً بموسيقى التشامبيتا أو حفلات ملك الروتشا. كان نيكسون يعشق الشعر كمثل أبيها، هذا ما كان يخطر ببالها، رغم أنها في الواقع لم تكُن تعرف أيّ شيء عن أبيها، وكان يدرك أنها تفضل متابعة دراستها في إحدى الشُّعَب في الجامعة على المنافسة في مسابقات ملكات الجمال الجهوية التي تقام في نهاية السنة.

في ذلك الأسدوس الأول، بالإضافة إلى إجراء الامتحانات والأشغال التطبيقية، جرَّبت كارن الماريجوانا، ورقصة السالسا الكلاسيكية، لكن خصوصاً الجنس، متى وحيثما اتفق؛ واكتشفت أنّ بوسعها النكوص إلى مرحلة بدائية تشعُر فيها بالمتعة.

كانت قراءة أقدِّر ذاتي تُمكّنها من إبقاء مسؤوليتها عن أفعالها على مسافة حذرة، أو تخفيف الشعور بحدّتها على الأقل من خلال حجج كتابٍ يمتح من مذهب المتعة. وهي تقرأه، بدأت تداهمها حالات الغثيان الصباحية، والثديين المنتفخين، والرغبة في النوم والعياء. كانت قد وصلت منتصف الكتاب عندما قررت إجراء الفحص ذات يوم أحدٍ صباحاً.

«تبّاً»، قالت في نفسها. كانت قد أقفلت بالكاد سنتها التاسعة عشرة.

امتنعت أمها عن مخاطبتها لأسابيع، إلى غاية تلك العشية القائظة التي سمعت فيها كارن صوت دراجة نارية، بينما كانت مستلقية على السرير تتصفّح مجلة قديمة واضعة أسطوانات لفّ الشعر في رأسها.

– ما هو برنامجكِ، هل ستظلّين هكذا ممدَّدة طوال النهار من دون حركة؟

- لقد قدَّمتُ الأكل للخال، قالت كارن.

- قومي بعملٍ ما، أنتِ حامل ولست مريضة، فَإما أن تفعلي ما أقول لكِ أو ترحلي من هنا.

من بين كلّ الصخب الذي تركته قراءاتها لتلك الفترة، كان مَن رافقها أكثر واستمرت تقرأه إلى يوم ما قبل وضعها لمولودها، هو كتاب **أقدِّر ذاتي**، رغم أنها لم تعُد تشعر أنها معنيّة برسالته.

لم يكن مَن جلس بمحاذاة كارن خلال ذلك الصباح الماطر في جنازة صابرينا غوثمان سوى مؤلِّف كتابها المفضل، إدواردو راميلي. كان عمر الأستاذ يتجاوز الستين لربما، بسحنة برونزية مائلة إلى لون القرفة، عينين زرقاوين، شعر أشيب مصفوف بعناية ومثبت إلى الخلف بالجال، كمُتأنّقي الزمن الجميل.

- شانيل رقم 5، همَسَ لها في أذنها.

صمتت كارن، ليس لأنها لم تَدْرِ أن مؤلِّف **السعادة أنت** كان يضع عطرَ وَنْ مليون باكو رابان، ولا لأنها لا تريد مجاراته، بل لأنّ حنجرتها انسدت. كشف راميلي عن ابتسامة ارتسمت على نصف وجهه، بينما صار يُمعِن النظر في الراهب، مستشعراً حضرة الجمال بجانبه.

- ما هو اسمكِ؟ سألها بعد نهاية طقس القربان المقدس.

عندئذٍ سُمعت عبارة «ششششت»، ممتدةً ومدوّية، واضعةً حدّاً لمحاولاتهِ في استدراجها للحديث. ثم جاءت عبارة «فلتنصرفوا بسلام» المعلومة، مُعلِنَة نهاية القداس. في الصفين الأولين، وقف أفراد العائلة المقربون. لم تتوقّف إحدى النساء عن البكاء وهي تعانق طفلاً في التاسعة من عمره تقريباً. ارتفع صوت آلة الأرغن

وغنّى كورالٌ غير مُدَوْزَنٍ ترنيمة «السلام عليك يا مريم»، بينما شرع الحضور في مغادرة الكنيسة. قطعت كارن الممر وهي تهمّ بالخروج. استشعرت عطر راميلي وراء ظهرها على بُعد بضعة أمتار، قبل أن تفقده من جديد عندما استوقفته امرأتان طويلتا القامة. انصبّ تركيزها على السيدات بتسريحتهن المنفوشة، كبياضِ بيضٍ تمّ خفقه حتى صار بكثافة الثلج، وعلى بدلاتهن ذات الخيوط الكثيرة، وعلى أجسادهن المتصلِّبة. حملت بعضهن مطريات، بينما رافقَ أخرياتٍ سائقاً أو بودي غارد بمظلّة ضخمة يقدِّمها لربة عمله عند الخروج، حتى تتمكن من تفادي البرك الصغيرة عند المشي، بينما يهرول الخادم تحت المطر الكثيف، للوصول إلى السيارة التي سيستقلانها معاً، السيدة في الخلف، والخادم في الأمام. عند عبورها الشارع 100، صُعقَت لزعيق المنبهات والدخان العادم، ومنظر حافلات النقل الخضراء القديمة قِدم جوع الشحاذين، والبُتْر المسلحين بمنظف الزجاج لاقتناص القطع النقدية، والمرَحّلين بلافتاتهم الكرتونية الوسخة، حيث يكتبون عموماً حكاية شعب منقرض، أو قصة مذبحة، بأخطاء إملائية، بالمؤشر نفسه ذي اللون الأسود غالباً، وبخطّ شخصٍ أتمّ بالكاد دراسته بالقسم الثالث ابتدائي، شخص بضغطٍ منخفض لم يستند إلى غير الرصيف عند الكتابة، ليتخذ له بعد ذلك مكاناً في الزاوية نفسها من الشارع كلّ يوم، بحثاً عن تضامن السائقين المُراوغ. بعض النسوة، من السود أو السكان الأصليين في أغلب الأحيان، بأطفال محمّلين إلى الصدر أو الظهر، يسندن الرضيع بيد واللافتة باليد الأخرى، ويضعن آنية جمع النقود تحت الإبط، في توازن بهلواني بئيس، مُتنبِّه على الدوام لتغيّر ضوء شارة المرور.

عندما تشير الأخيرة بالأحمر، تهاجمُ العربات جحافلٌ من المتسولين والمرحّلين والمحتالين والمدمنين والمُقعَدين والمهرجين والعاطلين عن العمل والأميين والمهمَّشين والمعطوبين والأطفال والنساء الحوامل، في حِرَفِيَّة يومية مكرورة ومكشوفة لم تعد تفاجئ أحداً، أو تكاد، لأنّ مَن يرقبون هذا الواقع بقلق مبرّرٍ هم عادةً الملتحقين حديثاً بهذه المدينة، أولئك الذين تقع جبالهم وقراهم، بِحسبِ ما كان يُلقّنُهُ طلبةُ معهد سان بارتولومي، «على تخوم الحضارة».

بهذه المنطقة الجبلية، الباردة في معظم فترات السنة، يحلّ كلّ يوم أناسٌ من جميع الجهات، ولقد خطر ببال كارن أنها واحدة من هؤلاء، كمثل بائعي المانجو، وتجّار الخردة، وجامعي العظام، ولاعبي الخفة والمتسولين الملحاحين.

غير أنّ ما أثّر فيها أكثر لم يكن زخمَ الحِرَفِ المتولّدة عن الفقر، بل أن تبدو الأمور مألوفة بذلك الشكل. كانت تعاين ذلك الصنف من النساء في سياراتهن الرباعية الدفع المصفّحة، يرفعن دوماً الزجاج عندما يقترب أحدهم مادّاً ذراعه. تلك الحركة، وحركات أخرى كثيرة، كانت تبدو كجزء من دليل استعمال قرأنه كلهن، في منطقةٍ يُؤثثُ الحرسُ وسياجاتُ الحديد والكلابُ بكماماتٍ مشهدَها اليومي.

عند وصولها إلى بيت الجمال، كانت تجرّ رجليها وكانت يداها باردتين. صعدت مهرولة إلى الطابق الثاني وغيّرت ثيابها بأقصى سرعة. كانت مستعدة للدخول إلى المقصورة لمّا سمعت طرقاً قوياً في باب الحمام.

- نعم؟ قالت وهي تعقد أربطة حذاءها الرياضي.

- تريد دونيا فينا أن تحدِّثك، أخبَرَها صوت من الجهة الأخرى.

- أنا قادمة، ردّت وهي تنظر إلى المرآة لتعديل تسريحة ذيل الحصان قبل أن تخرج. «هذا جزاء مَن يذهب إلى حيث لم يتمّ استدعاؤه»، قالت في نفسها. الآن تحديداً، وقد أصبحت قريبة من جمع المليون المنشود، ستتسبّب لنفسها في الفصل من العمل، بسبب زبونة تعرَّفت عليها بالكاد. كانت دونيا فينا في انتظارها، وقد تركت الباب موارباً.

- تودّين حضرتكِ الحديث معي؟

- اِجلسي حضرتك، قالت دونيا خوسيفينا بنوع من الحدّة.

نظرت إليها كارن بعينين متفحِّصتين دون أن تعثر على مفتاح ما سيأتي. كان حاجبها الأيسر مرفوعاً بشكل طفيف.

- كارينسيتا، صغيرتي، أُبلغتُ علماً بأنكِ غِبتِ عن الشغل من دون موافقتي وفي ساعات العمل الرسمية، شَرَعَت بالقول. أريدكِ أن تعلمي ألّا شيء يَخفى عليّ، وأنه حتى عندما لا أوجد في المحلّ، لديّ مَن يخبرني بكلّ شيء. أتسمعين، يا صغيرتي؟

- نعم، سيّدتي.

- الآن، ولأبرهن لكِ عن سعة اطّلاعي عمّا يحدث، سأخبركِ أين كنتِ: ذهبتِ إلى جنازة تلك الفتاة المسمّاة صابرينا غوثمان. أتودّين معرفة كيف علمتُ بذلك؟ لقد اتصلَتْ بنا هذا الصباح أم الفتاة، قالت إنها كانت من رواد هذا المكان وإنها تعتقد أنها جاءت هنا أول أمس. لم أكن أعرف مع مَن تتعامل، لذلك بحثنا في لائحة المواعيد. هكذا علمتُ أنكِ فقدتِ زبونة. أقدِّم لك فائق العزاء، صغيرتي.

- بالكاد رأيتها مرتين أو ثلاث.

- أربع مرات، للتدقيق، ردّت دونيا خوسيفينا. وماذا تعرفين عنها؟

- لا شيء يستحق الذكر، دونيا فينا، كانت مراهِقةً عادية.

- آه، يا صغيرتي، تتحدّثين بوثوق كما لو كان ذلك صحيحاً حقاً. من الأفضل أن تفهمي أنه، إذا فُتح تحقيق، سيطرح عليكِ رجالُ المباحث الأسئلة نفسها، لذا يحسُنُ بكِ أن تعرفي كيف تُجيبين.

- ما نوع الخدمة التي قدَّمْتِ لها؟

- كالمعتاد.

- الشمع؟

- أجل.

- والبيكيني؟

نعم، سيدتي.

- شاملاً؟

- أجل.

- هل أنتِ متأكِّدة من أنك لا تعرفين مع مَن كانت ستلتقي؟ لعلمكِ، قد يكون لهذا الشخص علاقة باختفاءها.

في تلك اللحظة، وبشكلٍ مباغت، أطلّت آني:

- آسفة للمقاطعة. زبونتكِ التالية في الانتظار، كارن.

- هل يمكنني الانسحاب، سيدتي؟

- يمكنكِ الانصراف، لكن من الأفضل لكِ ألّا تُكلمي أحداً في الموضوع. جرّبي أن تحدّثيهن عن زبونة توفّيت بعد موعد لها معك، وسوف لن تطأ قدمُ واحدةٍ منهن مقصورتَك بعد ذلك.

- بالإذن، أضافت كارن وهي تتساءل ما إذا كانت دونيا فينا تعني حقاً ما تقوله، ثم خرجت تاركة الباب مواربا خلفها. في منتصف المسافة توقّفت وقَفلت راجعة:

- معذرة، سيدتي، لكن إذا كانت الفتاة قد دُفِنَت، عمّ سيبحثون الآن؟

- وما أدراني أنا، قالت دونيا خوسيفينا بعصبية. والآن أغلقي ذلك الباب، فلديّ أشياء أهمّ لمباشَرَتِها.

4

مع مرور السنوات، أضحى إدواردو سريع التأثر. أصبح يبكي لمجرّد مشاهدة شريط رومانسي، أو لرؤية تساقط شعره على الوسادة، أو لمعاينة مشاكله مع الانتصاب. الأسوأ في كلّ هذا هو أنني علمتُ بالأمر، بعد أن أخبرني هو بنفسه، ويبقى عزائي الوحيد، بحسب علمي، أنه لم يستقدمهنّ قط إلى المنزل طيلة مدّة زواجنا، أو هذا ما أُفضّل اعتقاده. كان معجَباً على الخصوص بواحدة سوداء تُدعى غلوريا، لم يكن عمرها يتجاوز العشرين سنة لربما. آه من سن العشرين، هذا ما خطر ببالي عندما رأيته معها في شرفة مطعم متخصِّص في ثمار البحر بشارع 77. حدث ذلك بالصدفة. في ذلك اليوم تحديداً، كان لي موعد مع اختصاصي الأمراض الجلدية، وقرَّرتُ العودة مشياً. لمحتُهما من بعيد. كنت أسير في الرصيف المقابل. كان يُطبِقُ راحة يده ثم يفتحها في حركة إغراء قديمة أعطته ذات يوم نتيجة معي. تعرَّفتُ على اسم الفتاة لأنني استعملت حاسوبه في يوم من الأيام وَفتحت ملفاً عنوانه «غلوريا»، حيث عثرت على الصور. التزمتُ الصَّمت كما في مرات كثيرة. في نهاية المطاف، لا يمكنني أن ألومه عن بحثِه خارج البيتِ عمّا توقفتُ عن منحه إياه منذ مدّة طويلة. ما آلمني كثيراً هو أنانيته، وقلة اهتمامه بي وتركه إيّاي

وحيدة. أما قضية الشابة فكان تأثيرها أقلّ بكثير. منذ عدة سنوات وأنا أفقد الرغبة بالتدريج، وهو الأمر الذي تفاقم مع سنّ اليأس. كنت أرى أنه إذا احتاج إلى ممارسة الجنس فليذهب ويحصل عليه حيثما يجده. لكن، ليكن لي رفيقاً على الأقل، ليعبأ بشؤوني كحدٍّ أدنى، رغم أنني لم أعُد أدري في واقع الأمر ما هي شؤوني تحديداً، إذْ منذُ سنوات عديدة، صار تركيزي عليهِ يكبر يوماً عن يوم.

في ذلك اليوم، عندما رأيتهما بأيدٍ متشابكة، يتذوقان كوكتيل الجمبري، كان الطبيب قد كشف عن إصابتي بمرض البهاق. قاومتُ الرغبة في البكاء أمام ذلك الطبيب الأرعن، الذي طفق ينظر إليّ بتأسف، بَيْدَ أن ما يشفع له هو كونه بعدُ قليل تجربة، لا يكاد عمره يتجاوز الثلاثين.

خرجتُ صامتة، هادئة، واسقرّ رأيي على العودة مشياً إلى البيت. مررتُ أوّلاً بحيّ بومونا، وأنا أفكر أنّ التشخيص إيّاه يفسر تلك الخِصلة البيضاء الكثيفة التي سبق أن نبتت لي قبل أشهر، والتي أفسدت رونق شعري الأسود، وكذا تلك اللطخة في الكعب وفي الخد الأيسر. لا أنفي أنني كنت محبَطَة وكئيبة، بخاصة وأنني كنت قد ضبطتُ للتوّ زوجي مع منحوتة الأبنوس تلك، والتي كانت لي فرصة مشاهدتها عارية من قبل. كان أمراً لا يُحتَمَل وإهانة مضاعفة، وأسوأ ما في ذلك كان عدم اكتراثي للأمر في نهاية المطاف. لستُ أدري ما مردّ ذلك، هل لِتداعيات سن اليأس، أم لِتعوّدي على العيش في كنف المأساة. الأمر المؤكد هو أنني استمررتُ على ذلك الحال من السلبية واللامبالاة اللتين ظننتُ أنني لن أبرأ منهما أبداً، إلى أن تجدّد لقائي بِكلير.

هي مَن جاء ليُعيد لي بعضاً من الطاقة المسلوبة. لم تكن تجمعنا صداقة متينة عندما درسنا معاً في المرحلة الإعدادية. كان مَردُّ التقدير الذي يحظى به أبي إلى عمله كطبيب أمراضٍ عقلية أكثر منه إلى كونه ميسور الحال، وكانت كلّ واحدة منّا تعيش في عالم مختلف. كانت كلير جميلة جدّاً، متعالية، فخورة، من عائلة محترمة ومتفوّقة في كلّ المواد، أمّا أنا فكنت فتاة عادية، وفوق ذلك، كان لي شعر سيئ المنظر بلونٍ كلون الحساء، ونظارتان قبيحتا الشكل. لقد جمعتنا صلة القرابة التي تربط كلتينا بمَن هي اليوم زوجة وزير الداخلية. بالنسبة لي ظلت كلير تلك المرأة الراقية، المنتمية إلى عالم مختلف عن عالمي كلّياً. بَيْدَ أنها كانت لطيفة جداً معي عندما التقينا منذ بضعة أسابيع، بدت لي شغوفة وأحسستُ أنها وحيدة للغاية، بحيث عدنا لنلتقي مرة ثانية منذ أربعة أو خمسة أيام، واحتسينا كمية هائلة من كؤوس الويسكي. أعترف أنني لم أشرب ويسكي قط في حياتي. صحيح أنني تذوّقته، أي أنني أعرف مذاقَه، إلا أنني لم أشرب قط كأساً كاملاً. عندما كانت تسنح الفرصة، كنت أشرب كأس نبيذ، أو أحياناً شامبانيا، أو بايْليز، أما الويسكي فلا. لكن كلير سَقَتني واحداً ثم سألتني:

- أتريدين كأس ويسكي؟

ما كان لي أن أقول لها: «أليس عندكِ زجاجة بايليز مخبّأة هناك، يا بنيّتي؟»، كجدة من الجدات أو فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. كلّا. استجمعتُ قواي وقلت: «نعم، اسقني واحداً». أتذكَّر ذلك فتنتابني الرغبة في الضحك. لم أستسِغْ مذاق الكأس الأولى، لكن الكؤوس التالية بدت لي ممتعة جداً. هذه هي الأشياء التي تحدُث لي مع كلير؛ ذلك أنه، حسناً، نحن ننتمي إلى الجيل نفسه،

حتى أنني أظنّ أنني أصغُرها سناً، لكن، بقربها أحسّ وكأنني التزمُّتُ عينُهُ، في مقابل ذلك، تبدو هي مستقلة ومتحرِّرة. فالشباب، في نهاية المطاف، حالة روحية؛ ثم إنها تقترب من الستين ولا تزال جميلة، جميلة جداً.

حسناً، بالعودة إلى إدواردو، تعرَّفتُ عليه عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري، في زهرة العمر، كما كان يقول. كان هو في سن السابعة والثلاثين. قبل ذلك، قضيت حياتي كجُرذِ خزانة الكتب. توفيت أمي وأنا في سنّ الحادية عشرة. كنت دميمة على العموم، أو لنقُل إنه لم يكن لي حظ من الجمال. معرفتي بالرجال والعلاقات ظلَّت قليلة، وكانت من خلال الكتب أكثر من أيّ شيء آخر. قرَّرت أن أصبح اختصاصية أمراض عقلية لأنني نشأتُ على الاستماع إلى أبي وهو يتحدث عن الحالات المرضية، وبدا لي ذلك أمراً طبيعياً جداً. لا أعتقد أنني فكرت يوماً في خيارٍ آخر، مع أنني اليوم أرى أنه كان عليّ دراسة علم الأحياء.

لقد تعرَّفت على إدواردیتو في إحدى المحاضرات. بدا لي مسترخياً، ثم سأكتشف لاحقاً أنه شخص طائش. كان يبدو رجلاً واثقاً من نفسه، من دون رغبة في لفت انتباه أحد، رغم أنني صرت مع مرور الوقت أفسِّر ذلك السلوك كنرجسية من طرفه. ومع أن الكائن البشري نرجسي بطبعه، ويميل إلى رفض أيّ اكتشافٍ يضع نظرتَه للعالم موضع شك، فإنّ إدواردو يذهب بهذا السلوك إلى حدّه الأقصى، إلى أن يصبّ في خانة اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع. تطلَّب مني الوصول إلى هذا التشخيص زهاء ثلاثين سنة، حتى إنني تفرَّغت للكتابة لا للمرضى، لربما كان المساكين سيعانون الأمرّين معي، لأن الوصول إلى تشخيص معيَّن يتطلَّب منّي وقتاً

طويلاً. لكن، في نهاية المطاف، لم تكُن السرعة يوماً جزءاً من عالمي. أن أثير انتباه شخص ذي حضور قوي كإدواردو كان ممّا أثار استغرابي. كنت دوماً صاحبة صدرٍ مثيرٍ بثديين كبيرين، لعلّ ذلك ما أثار إعجابه. لعله السبب، مضافاً إلى المخطوط، أو لربما كنت متفهمة جداً، وأتصرَّف معه كأم. ما زلت أذكر تلك المرة التي ناداني فيها «مامي». كان شارد الذهن يتصفَّح إحدى الجرائد، سألته عن شيء، عمّا إذا كان قد حدد موعداً مع طبيب المسالك البولية، أو شيء من هذا القبيل، ودون أن يرفع رأسه من الجريدة قال لي: «لا، يا مامي»، بعدئذٍ احمرّ وجهُه خجلاً، وأما أنا، فدخلتُ في نوبةِ ضحك هستيري.

عقدنا قراننا بعد سنة من تعرّفنا على بعضنا. لم أعرف سوى رجلٍ واحد قبله، وكانت علاقة غريبة لم يرتَح لها كلانا. لقد شغفني إدواردو حبّاً، فبالإضافة إلى طيبوبته، كان مسلِّياً، محاوراً جيداً، متفتِّحاً، ابن زمنه، وَراقياً، بصيغة أخرى، كان نقيضَ ما كُنتُه أنا. على سبيل المهر، إذا جاز التعبير، قدمت له كتاباً نَشَرَهُ بكلّ نجاحٍ بتوقيعه. كان مخطوطاً حول علاقات الحب القاتلة. كان بالنسبة إليه كتاباً استثنائياً واقترح عليَّ إدخال بعض التعديلات. بعد ذلك نشره باسمه، وأمّا اسمي أنا، لوسيا إسترادا، فلم يظهر له أثر في أيّ مكان.

لَكم كنت ساذجة في تعاملي مع إدواردو، إذ لم أكتفِ فقط بعدم الاكتراث للأمر، بل جعلني ذلك أشعر بالفخر. فكرتُ أنه أعجب بالكتاب لدرجةٍ جعَلَتْه ينشره باسمه. كان أمراً لا يُصدَّق. ثم كتبت كتاباً آخر عاد ونشَرَه باسمه، لكنني قلت له هذه المرة: «اسمع، حياتي، أنا في الواقع لا أصلح كثيراً لقضاء الوقت في المقابلات

والردّ على البريد وشرح النظريات المعروضة هنا في الكتاب، باختصار، إذا أردتَ، واصل التوقيع باسمك». وكانت مفاجأتي أنه قال إنّ الفكرة جيدة، وأنه سيوقِّعه بكلّ سرور. كنت نوعاً ما أنتظر منه ردّاً من قبيل: «لا، حبيبتي، أنت تستطيعين، أنت تستحقين هذا الاعتراف، كيف خطر ببالكِ أنني سأوقِّع بدلاً عنك؟». لكن لا، لم يحدث شيء من هذا، ما حدث فعلاً هو أنّ ثلاثة عقود من الزمن وسبعة عشر كتاباً كرّسَت إدواردو ثانيَ أبرز كتّاب أميركا الجنوبية في مجال التنمية الذاتية، ويعرف الجميع مَن هو الكاتب الأول.

في بداية زواجنا طرحنا للنقاش فكرة إنجاب طفل، هو لم يغلِق الباب، وبشكل من الأشكال، كنت أتمنى أن يفتحه لي. لكن ذلك لم يحدث. لقد رفض، كما رفض العيش في بلدٍ أجنبي، بدعوى أن له هنا متابعيه وشركاءه. استمررتُ أنا في الكتابة، هذا ما كان في المقابل يسافر بي إلى كلّ مكان. كان هو يلقي المحاضرات، وأنا كنت أكتب، هو يوقِّع الكتب، وأنا أكتب، هو يذهب للتسوّق، وأنا أكتب، هو يخرج نهاية الأسبوع مع إحدى العشيقات، وأنا أكتب. هذا ما سارت عليه الأمور لِثلاث وثلاثين سنة. أن أكون قد عانيتُ، ما يُصطلح عليه بالمعاناة حقيقة، هو أمر لم يحدث إطلاقاً. لقد عشتُ بشكلٍ جيد. أحب الكتب، وبين أحضانها أشعر بالأمان والطمأنينة، ولقد حصلتُ على حياة جيدة، ناهيك عن أنّ حبي الشديد لإدواردو جعل سعادته مرادفة لسعادتي. كانت لنا مواضيعنا المشتركة، مع أنه في الحقيقة لا يحب كثيراً الحديث عن الكتب. في النهاية، لا فكرة لديّ حول المواضيع التي كانت تجمعنا. . الطبخ؟ ربما، إذ كان يجيد تحضير ثلاث أو أربع وصفات، وعندما كان يطبخ، كان يتحدث عمّا يفعله. لم أعُد أعرف حينها ما الذي نفعله

معاً، لكنني لم أكُن أشعر بالمرارة، ولا بالتعاسة، لا شيء من ذلك إطلاقاً. وعندما انفصلنا فقط، تمكنت من إجراء تشخيص: إن المريض العصابي، أي إدواردو في هذه الحالة، يجعل من عالمه المحيط مرآة متماثلة ينتظر من خلالها أجوبة مطابقة لانتظاراته الخاصة حول نفسه والعالم. بصيغة أخرى، يبحث المريض في زوجته وأصدقائه وعمله عن جوابٍ لإسقاطاته، وعمّا يريدهم أن يكونوه في تصوّره المثالي اللّاواعي. من هذا المنطلق، فهو لا يعترف بوجود الآخر كشخص مستقلّ، إذ لا وجود لهذا الأخير إلّا كانعكاسٍ لرغباتِه غير المُشبعَة. وعندما يحدث فشلُ الرغبة المُمَثلَنة الذي لا مناص منه، يكون الإحباط الذي لا رجعة فيه، والذي يُطلق العنان لسيرورة يُسمِّيها فرويد، سَيْراً على نهج يونغ، «نكوص الليبيدو». هكذا عشتُ ثلاثة عقود مع رجلٍ لم يعرفني، ولم يشأ أن يعرفني قط.

رجل كان أهمّ شيء بالنسبة له هو أن يشعر بأنه محبوب، وأنه محطّ إعجاب وتقدير من طرف جمهور مجهول الهُوية لكنه غير قابلٍ للتجاوز. كان وجودي بالنسبة له مجرَّد وسيلة إعادة تأكيد مستمرَّة لقيمته.

والمؤكد أنه بحسب طريقتي، كنت سعيدة. أفترض أنه، في تصوّري، «كانت السعادة تتجلى في نفي رغباتي الخاصة، والتخلّي عن نفسي، بل وحتى معاقبتها»، هذه كلمات كلير. كنت أخدمه بكلّ ما في الكلمة من معنى، والمثير للسخرية أنني ما زلت أخدمه. فَمِن دون أن نصل إلى اتّفاق حول الطلاق، ذهبتُ للعيش في شقة صغيرة في حي العزلة، والتي أؤلف انطلاقاً منها كتباً لإدواردو، مقابل أجرٍ شهري وبعض اللقاءات الخاطفة، والفاشلة في معظم الأحيان. فأنا

ما زلتُ أرى هذا الرجل جميلاً، صاحب نكتة وشياكة تُثير الإعجاب، رغم أن الرغبة، وكما قلت سابقاً، لم أعُد أشعر بها منذ مدة طويلة. ما وقع هو أنّ إدوارديتو عانى كثيراً في صغره، كان له أب أساءَ معاملته كثيراً، فتحتّم عليه أن يتعلّم كيف يحصّن نفسه، أن يحتمي من الناس. ليس من السهل إصدار الأحكام على الآخرين. هذا ما قلته لكلير. لا تنخدعي. فلا أحد يكون على الدرجة نفسها ممّا يُظهرهُ من طيبوبة أو سوء. لم يكن إدواردو رجلاً سيئاً، رغم أن هناك شيئاً من الصحة في أنّ صورتي استحالت صورة أم، نعم، صورة أم. كنت أقرِّب له خُفّي البيت، وأُعدّ له القهوة، وأجهّز له الحمام، وكان يلجأ إليّ طلَباً للمواساة، وإعادة تأكيد تلك العلاقة، صغيري المسكين إدُو.

في آخر لقاء جمعنا، حاول تقبيلي. كنا قد ذهبنا للعشاء في مطعم جديد. أقلّني إلى البيت وطلب أن نشرب كأساً قبل المغادرة.

- أنا متعبة، قلتُ محاوِلَة ثَنيَه عن رغبته.

- كأساً واحدة، عزيزتي «لوتشيّا».

صارت الكأس كؤوساً، حيث أنهى الخمس أو الست جرعات المتبقية في القنينة، وأرفق ذلك بمونولوج طويل. كنت أغالب النعاس في الطرف الآخر من الأريكة. أراد إدواردو أن يتحدّث عن عجزه، ثم اقترب مني يريد تقبيلي، فأشحتُ بوجهي.

- لا أستطيع، حبيبي، عذراً، قلت له بجهد.

- لا تستطيعين أم لا ترغبين؟ سأل وهو يشعل سيجارة دون أن ينظر إليّ.

طلع فجر ذلك الصباح البارد من يوم الثالث والعشرين من يوليو، وَإدواردو ممدّداً على الأريكة. كنت قد غطّيته ببطانية قبل أن

أذهب إلى النوم. نمت حوالي الساعة الثالثة صباحاً، وبعد ساعتين وصلني صوته. لكن، ما الذي يفعله؟ قلت في نفسي وأنا بين النوم واليقظة، لأنني سمعته يتعثّر ويُحدِث جلبة في الصالة الصغيرة عند الفجر، وهو يوشوش متحدثاً في الهاتف. لقد أيقظَني صوت ارتطام حادّ. خرجتُ لمُعاينة ما حدث. كان إدواردو يبحث عن حذاءه بسرعة وارتباك، والصالة لا تزال معتمة. لقد ألقى بقنينة الويسكي المفتوحة جانباً، فاندلق السائل المتبقي فوق الباركيه.

- ما الذي وقع؟ سألتُه بانشغال.

- عذراً، لوسيا، يجب أن أغادر. سنتحدّث لاحقاً.

- في هذا الوقت المبكّر؟

- هناك صديق لي في ورطة كبيرة، يحتاج إلى مساعدتي. سأحكي لكِ لاحقاً.

غادر إدواردو فقمتُ سريعاً بإفراغ المَرمدة من أعقاب السجائر التي تركها زوجي السابق. تساءلت كيف يكون لشخصٍ تجاوز الستين من عمره صديقاً في ورطة في ذلك الصباح الباكر. قد يحدث هذا في سنّ المراهقة. لكن، في هذا السن؟ ذكَّرني ذلك بأسباب هجري له. إدواردو شخص أناني و، مع الاحترام الواجب له، يفكِّر بغريزته أكثر منه برأسه. لَكَم كنت أكره رائحة أعقاب السجائر! ومن بين أجمل الأشياء التي ميّزت دوماً منزلي، من جهة، ألّا أحد كان يدخن فيه، ومن جهة ثانية، ذلك الهدوء التّام، أيّ السلام. كنت قد اشتريت كتاب تعلّم يوغا للمبتدئين، وسجاداً خاصاً بتلك الطقوس وبعض الشموع. أثار ذلك سخرية إدواردو الذي استصغر منّي أن أُقبِل على مزاولة شيء جديد وأنا في عمر متقدِّم. كنت كلّ مساء أخصِّص ساعة لتلك الممارسة التي صرتُ أبرع فيها تدريجياً، فلقد

أضحى مجرّد عدم اضطراري لمرافقة إدواردو في سفرياته سبباً كافياً لمنحي الكثير من الحرية. هكذا صرتُ أخصّص عشية أو عشيتين للذهاب إلى السينما، وأحياناً كنت أخرج في نزهات مشي طويلة في حديقة وَايْ، حتى إنني فكرت في شراء كلب.

أخذت شريحة خبز توست ووضعتها في جهاز التحميص. مرّرتُ منديلاً على أرضية الباركيه لتنظيفه. أصابتني رائحة الويسكي بالغثيان، ففتحت النوافذ على مصراعيها. أعددت قهوة، وسقيت النباتات قبل أن آخذ حاسوبي المحمول إلى غرفة الطعام لمراجعة ما كتبتُ قبل يوم من ذلك. قرّبت شريحة التوست وفنجان القهوة، وضعت النظارتين وشرعتُ في القراءة: «هكذا تصير الخيانة أهم أسباب الطلاق والمعاملة السيئة بين الأزواج. فهي سبب الاكتئاب والقلق وفقدان التقدير الذاتي وتغيرات نفسية أخرى كثيرة، تتعلق كلها بالجانب الأكثر سوداوية من علاقة الحب المريض». قرأتُ هذا مرتين وانفجرتُ ضاحكة. عجزتُ عن مواصلة القراءة. يبدو **الحب المريض** وكأنه يتحدث عنّا. انتابني شعور بفقدان الرغبة في أي شيء. ماذا سيحدث إن أنا امتنعتُ عن كتابة ذلك الكتاب؟ كانت عوائد الملكية الفكرية التي تدرّها الكتب الأخرى كافية لكي نعيش منها معاً. صحيح أن عقداً ملزِماً كان يحتم علينا إنجاز **الحب المريض**، وكان صدوره منتظَراً في السنة الموالية. غير أنّ في وسع إدواردو أن يعثر على كاتب شبح آخر: يوجد اليوم كتّاب شبان جيدون، ولبعضهم تكوين في علم النفس.

بالإضافة إلى ذلك، كان ذلك المشروع الذي يقيمه وشريكه يُدرّ عليهما مالاً وفيراً في ما يبدو. فلن يحدث شيء إن نحن لم نُصدِر كتاباً واحداً، إذ لن نموت جوعاً، رغم أن إدواردو أضحى يوماً عن

يوم أشدّ طموحاً، بل أكثر جَشَعاً وجَب القول. ذلك بالتالي ما دفعني إلى الانفصال عنه. كانت رغبته في شراء عقار نيو هوب، إضافة إلى حادث غلوريا، بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس. لم تنفع معه انتقاداتي لنمط الحياة في ميامي، حيث سعر المتر المربع من الأرض هو الأعلى في المدينة. لقد شدّد على أننا سنكون أكثر اطمئناناً بعيشنا وسط «أناس من صِنفنا».

- أناس من صنفنا؟ منذ متى أصبحتَ نموذجاً للكولومبي ذي النزعة الطبقية؟

- لا تُحدِّثيني الآن بهذه الأفكار الشيوعية السخيفة، لوسيا، كلّ مَن رآكِ سيظنك ميتة من الجوع، قال.

لم يستمرّ النقاش طويلاً. كان يدفعُ بألّا عيبَ في أن يطمحَ المرءُ للأفضل وَينشدَه.

- «نحن نستحق ذلك، عزيزتي» قال لي.

عندئذٍ رأيته يسحب ملفاً أخضر من حقيبته الجلدية. فتحه بهدوء فظهرت بعض الوثائق.

- عزيزتي، لقد اتُّخِذَ القرار وكلّ شيء جاهز، ما عليكِ سوى أن توقّعي وسنكون قد قمنا بأفضل استثمار في حياتنا.

شرع إدواردو في قراءة الوثائق بصوت مرتفع، وبين الفينة والأخرى كان يقوم بالتعليق على بعض التفاصيل: «ستعجبين لا محالة بالحدائق العمودية، الموجودة فوق الصخرة خلف الإقامة». «هناك 350 حيّزاً لركن السيارات، أربعة حراس، 48 كاميرا مراقبة». واصل القراءة. «ستعجبك الصّالة المشتركة، حبيبتي، لها مطبخ ملحق وأثاث مصمّم بذوق رفيع، غير أن أجمل شيء هو الكلوبْ هاوس، ولأنكِ من هواة السباحة، ستُعجبين به كثيراً، فَفيه

مسبح مكيّف نصف أولمبي، مع معلّم سباحة، وسونا، وحمام تركي، وقاعة بيلاتس...». ظلّ قوله «لأنكِ من هواة السباحة» يرنّ في مسمعي. الأمر صحيح في الواقع. في فترة شبابي كنت أعشق السباحة، واستمررتُ على الحال نفسه في المرحلة الجامعية. أتساءل اليوم لماذا توقفتُ عن ممارستها. «لأنكِ من هواة السباحة»، ردّدت مع نفسي، فوجدتُني أغرق في بحر من الأسى.

لقد أحببتُ أنا بدوري موسيقى جون بيز والثنائي سايمون وغارفنكل، وكنت أعشق قضاء نهاية الأسبوع في الجبل، ولطالما استهواني إعداد حساء الأخياكو، لكن إدواردو لم يكُن يحب الأخياكو، ولم تكن تعجبه تلك الموسيقى، وإذا حدثَ وغادَر بوغوتا، لا بدّ أن يكون ذلك عبر الطائرة، هكذا صرتُ أتأقلم شيئاً فشيئاً، ولِفرط تأقلمي أصبحتُ بلا ملامح. بعد أن أنهى خطابه، ودون أن يحفل بعينيّ المحمرّتين، ولا بصمتي المطبق، غيّر سترته وتعطّر قبل أن يخرج.

- وداعاً حبّي، قلت له مبتسمة وأنا جالسة على حافة السرير.

- لا تفرطي في الأكل، أضاف قبل أن ينصرف.

تمدّدت في السرير وبين يدي كيس بطاطس مقلية وعلبة شوكولاتة. في حدود منتصف الليل، كنت قد شاهدت حلقة من سلسلة مسرح الجريمة «سي إس أي»، وحلقتين من مسلسل «رجال ماديسون» وكنت متعبة جدّاً. فكّرتُ أنّ نساء المسلسل الأخير بطلات حقيقيات، لكنهن لا يحصلن في الأخير على أي شيء. لم يكن إدواردو قد عاد بعد، وكانت عيناي منتفختين من فرط البكاء.

عندما أطفأتُ التلفاز، تخيلتُ نفسي نائمة في سرير آخر، سرير أصغر، لكنه سريري. نمتُ بعدها وأنا أحلم بنافذة تطلّ على

الشارع، أو حبّذا على حديقة، ومطبخ مفتوح، وبعض النباتات، وطاولة طعام مستديرة، فوقها مصباح صغير معلّق. عندما رجع إدواردو، وقد بدأ الصبح ينبلج، كنت قد نهضتُ من فراشي وجلستُ أمام الحاسوب. كنت أتحرّى عن شقق في حيّ العزلة.

- هل بدأتِ العمل مبكراً؟ سألني.

- ما رأيكَ أنت؟ أجبته وأنا عاقدة العزم على العثور على هذا الحيّز من العالم الذي أنهيتُ فيه منذ قليل جمع أعقاب السجائر، هذه الغرفة الخاصّة التي لم يعُد له بعدئذٍ فيها مكان.

عندما انتهيت من تنظيف الشقة، قرّرتُ أن أطلب من كلير أن نبدأ في اللقاء مرّة في الأسبوع. قررتُ كذلك عدم السماح له بالعودة للتدخين في بيتي مرة أخرى. رفعتُ اليومية ووضعتُ علامة على تاريخ: 23 يوليو. «انطلاقاً من اليوم، يُمنع التدخين في هذا البيت على أيّ كان»، قلت في نفسي وأنا أرسم دائرة حول التاريخ بالقلم الأحمر نفسه، الذي كنت أصحِّح به مسودّات كتبِه.

5

حلّت صابرينا بلباس الجامعة الموحّد، لذلك لم يسمحوا لها بدخول حانة الفندق الذي واعدَها فيه لويس أرماندو. ورغم أنها كانت تحبّذ لو أنهما ذهبا إلى هناك وشربا كأساً، ثم أخذها بعد ذلك إلى مطعم، أو صَحبها على الأقل في نزهة، فإنه أصرّ على أن تصعد معه إلى غرفته. «لا صبرَ لي على التِهامِكِ بالقُبل»، قال لها. وكانت تلك الجملة كافية لتجعل قلبها يخفق بسرعة. «أتحبينني؟»، سألها ذلك الصوت الذي لطالما عبَّر لها همساً عن مدى رغبته فيها. «كثيراً»، أجابت وقد احمرّت وجنتاها خجلاً. كانت تلك المرة الأولى التي سمعت فيها ذلك السؤال من رجلٍ غير أبيها.

عندما دخلَت الغرفة، لاحظَت أنّ لويس أرماندو كان ثملاً. هي نفسها كانت ثملة، بسبب جرعات الأغواردييتني القوي الذي شربته لأجل تحمّل آلام إزالة الشعر. لو كانت في حالة صحوٍ، لتصرَّفت ربما بحِكمَة في الوقت المناسب، لكنها لم تكُن كذلك. لقد خطر ببالها للحظة أنّ مجيئها إلى هناك لم يكن فكرة سديدة، لكن، بدل أن تغادر، بقيت تنظر في عينيه، بحثاً عن شرارةِ حبٍّ اعتقدت ذات يومٍ أنها رأتها فيهما. كانت على أتمّ الاستعداد لكي تصير امرأة.

6

عند خروجها من مكتب رئيستها، شعرت كارن بأنّ نساء الطابق الثالث يراقِبْنَها. لِلحظاتٍ، تغاضت النساء الثلاث المشتغلات في قسم الرموش عن عيون زبوناتهن، ورفعنَ رؤوسهن لتفحّص كارن. حتى المكلَّفة بإعداد القهوة استدارت وطفقت تنظر إليها. تصوّرتْ كارن أنه لو لم يكُن لكلٍّ منهن زبونة تحت أنفها لاستفسرنَها عن شيء ما. لكن، ما هو ذلك الشيء؟ هل علمنَ كلّهن أن صابرينا غوثمان توفيت، وأنها كانت زبونتها؟

نزلت لتُعيد لسوزانا سترتها قبل أن تعود إلى مقصورتها. وجَدَتْها منهمكة في دردشة حاولت إخفاءها بمجرد أن عاينت وصولها.

- شكراً، قالت كارن وهي تسلِّمها السترة.

- لا شكر على واجب، جميلتي، ردَّت سوزانا بابتسامة عريضة.

ركزت بصرها على حقيبة اليد التي كانت قرب رجلي سوزانا وتساءلت مع نفسها ما إذا كانت ماركتها أصلية.

- نعم، هي أصلية، أجابت سوزانا، وقد بدت كمن له القدرة على قراءة الأفكار.

- جميل، عقّبت كارن.

- شكراً، أميرتي، قالت سوزانا. يبدو أنك فتاة طيبة. سجّلي رقم هاتفي، قد تحتاجين يوماً إلى صديقة، فَوسَط هذه القطط الحسودة، لن تَجِدي غير الخدش، أضافَت في ما يشبه الهمس.

أرادت سوزانا أن تُجري معها مكالمة ضائعة، حتّى تحتفظ كارن برقمها مسجّلاً على هاتفها، وبينما كانت تركّبُ الرقم، لاحظت كارن أنّ زميلتها تملك آخر صيحات الأيفون، ومن حقيبة يدها كان يبرز جهاز تَابْلِت.

- لِمَ تجلبينَ هذه الحقيبة؟ هل لإثارة غيرتهن؟ سَأَلَتْها.

- أجل، هو كذلك.

قَطعَتْ آني المحادثة لإخبار كارن بأنّ موعدها التالي قد حان.

- لا تهتمّي بالقطط، قالت كارن وهي تستعمل تلك العبارة لأوّل مرة، في إشارة إلى زميلاتها في المحل. لن يُسعفهن ما يكسَبْنَ من مال للحصول على تابلِت كهاته.

- آه، جميلتي، قالت سوزانا، لَكَمْ تبدينَ غير مطّلعة. إذا استدعى الأمر أن لا يأكلن، فسيمتنعن عن الأكل من أجل أن لا يبقين متأخّرات. متى وَدِدتِ سأعيرك الحقيبة أو بعض الملابس، إذا احتجتِ لذلك.

صعدت كارن إلى الطابق الثاني. وعند ولوج مقصورتها، أشعلت جهاز إذابة الشمع، بغرض تسخين الخليط. سمعت عندئذٍ طرقَتين قويّتين، وَقبل أن تفتح الباب، اتصلت بِآني في الاستقبال، وسألتها مَن كانت زبونتها في ذاك الموعد.

- أوَحقّاً لا تعرفين؟ أجابتها من الطرف الآخر قبل أن تقفل الخط. لحسن حظها، تذكرت الاسم عند فتح الباب، وحتى لو لم

تكُن قد استقبلتها من قبل، كانت ستتعرَّف عليها، فهي مقدّمة أخبار النجوم في النشرة المسائية.

لم تزل كارن عندئذٍ معجبة بمقدّمة برنامج التلفزيون، إذ لم يسبق أن عاملتها بسوء في المواعيد السابقة. كان جمالها هو ما يستحق الاهتمام حقّاً في نظرها، وكانت معجَبَة بشعرها الناعم الطويل.

- أخبريني دونيا كارن، كيف هي أحوالك؟ سألتها كارن بحماس.

إمّا أن دونيا كارن لم تسمع وإمّا أنها لم تشأ الردّ.

- يمكن لحضرتكِ وضعُ الملابس فوق هذا المقعد، سأترك حضرتك لحظة حتى تزيلي الثياب. هل سنُجري البيكيني الشامل؟ أيلزم حضرتك سروالاً داخلياً أحادي الاستعمال؟

- لا، الساقان والإبطان فقط.

- جيد، دونيا كارن، إذاً يمكن لحضرتك البقاء بالملابس الداخلية. سأكون مع حضرتك خلال دقيقة. أترغبين حضرتك في قهوة أو ماء منسّم بالأعشاب والفواكه؟

- ماء منسّم، لو تفضلت.

طلبت إعداد مشروب للمقصورة رقم ثلاثة، ثم بحثت في الدولاب عن بطانية كهربائية، فوجدَتْ واحدة هناك. كان ذلك من حُسن حظّها لأنه، إذا اختفى مستلزم من الخزانة المركزية، يتم تغريمهن جميعاً. عادت من جديد إلى المقصورة، لتجد دونيا كارن ممدّدة على المنضدة. هي سيّدة في حوالي الثلاثين من العمر، ويبدو أنها تتردَّد على المحل منذ عدة سنوات. سابقاً، كانت تعتني بها مستخدمة أخرى، إلى أن فقدت هاتفها الخلوي، فتمّ طرد المستخدمة رغم عدم توفّر دلائل تدينها، أو إجراء أي تحقيق يكشف

تورطها. هكذا انتهت سنواتها العشرون في الخدمة، وهكذا وضعت دونيا خوسيفينا جوهرةَ تاج الزبونات بينَ يدَي كارن.

- عُذراً، كارن هو اسمك حقّاً؟

- نعم، سيدتي.

- يُزعجني شيئاً ما أن يكون لنا الاسم نفسه. فهمتِ؟

- كيف ذلك، سيدتي؟

- لا تخاطبيني بسيدتي، فلستُ متزوجة. حسناً، كيف أشرح لكِ أنه لا يمكن لنا أن نتخاطب بالاسم نفسه؟ هل أرسم لك رسماً توضيحياً؟ «أهلاً، كارن، كيف حالك؟»، «بخير، وأنت، كارن؟»، «بخير، كارن». هل فهمتِ ما أرمي إليه؟، قالت دونيا كارن بينما كانت كارن تمرِّر لها منديلاً على بشرتها مع كريم منظّف.

- هل أضع لحضرتك رغوة مُخدِّرة أم هذا يكفي؟ سألت كارن.

- لكن، ألم تسمعي ما قلتُ لك؟ ردّت دونيا كارن بعصبيّة. من المؤكَّد أن لكِ اسماً ثانياً، أليس كذلك؟ وإلّا، فسأقترح عليك لقباً.

- كما تودّين حضرتك، دونيا كارن. ليس لي اسم ثانٍ.

- ألهذا الحدّ يصعب عليكِ فهم هذا؟

بينما كانت تضع لها بودرة معطّرة على رَبْلَتي الساق، أخذت كارن مِبْسطاً خشبياً وقاست حرارة الشمع على ظهر كفها الأيسر. تُذكّرها هذه الحركة دائماً بزمن مضى، كانت تقيس فيه حرارة رضاعات إميليانو، لتتأكد من أنها ليست حارقة. صارت تلتمس الأعذار لسلوك دونيا كارن: قد تكون قضت يوماً سيّئاً، إذ ليس من السهل على المرء أن يكون من المشاهير في نهاية المطاف، ومن المؤكد أنّ الناس يزعجونها في الشارع طلباً للتوقيعات، وإنه لَمن المثير للأعصاب أن تلوكها كلّ الألسن. مرّرت المِبسط لتغطي ساقَي

دونيا كارن بالشمع إلى حدود الركبتين، بعد ذلك قطّعت منشفة ورقية وضغطت بواسطتها على بشرتها، قبل أن تنزعها في حركة سحبٍ قويّة، فأطلقت الزبونة أنّةً خفيفة.

تذكرتْ كارن حادث زبون صالون آخر، كان قد صوّر دونيا كارن وهي في حالة هستيرية خلال حصّة باديكير، لأنهم قطعوا لها ظفرَ أصبعها البِنصر أكثر ممّا يجب. يروج أن ذلك الحادث كان من أسباب منع استعمال الهواتف النقالة في المقصورات، لتفادي أن تلتقط المستخدمات صوراً أو تسجلن فيديوهات للزبائن، ممّا يستجلب الملاحقة القضائية للمحل.

- سننتهي خلال ثوان، هل أغطي حضرتك ببطانية؟

أبدت دونيا كارن موافقتها بإيماءة من رأسها وهي مستلقية على المنضدة.

- حسناً، سننتقل الآن إلى الإبطين، وخلال لحظاتٍ سينتهي كل شيء، قالت كارن وهي تبسط للزبونة جِلْ الألُوّي فيرا على ساقيها وتدلّكهما تدليكاً خفيفاً.

خطر ببالها أنّ مَن قام بتسجيل ذلك الفيديو خلسة كان شخصاً سيِّئاً. ليس من الجيد في شيء الاستفادة من مصائب الآخرين، قالت في نفسها وهي تتأمّل بإعجاب نعومة بشرة دونيا كارن.

- الآن وجدت الاسم، قالت دونيا كارن فجأة، مُخرجةً كارن من تأمّلاتها، بوكاهونتاس، أضافت وهي تضحك بخبث. ألا ترين معي أنه اسم رائع؟ هو لك اسمٌ على مسمًّى، بشعركِ الأسود هذا، وعينيك اللوزيتين، وفمك الكبير، أحد أبويك من الهنود الحمر، أليس كذلك؟ وبقولها هذا انتابها ضحك هستيري.

- إذا شئتِ حضرتك أن تناديني بِبوكاهونتاس، فَلَكِ ذلك،

قالت كارن وهي تُعيد العملية من الأول: تنظيف المنطقة المعنية بإزالة الشعر، قياس حرارة الشمع، وضع البودرة، دهن المنطقة برغوة مخدّرة، وضع الشمع بالمبسط الخشبي، نزعهُ بواسطة منشفة ورقية ثم وضع جِلْ الألُوّي فيرا. بقيت دونيا كارن مُغمِضة عينيها خلال معظم وقت العملية، لكن بابتسامة خفيفة مرسومة على وجهها. تساءلت كارن ما إذا كان من عادتها أن تبتسم هكذا، أم أنها ابتسامة متكلّفة، موجّهة خصيصاً لها. الحقيقة أنّ ابتسامة كارن مارسيلا أرديلا، ما دام لها في المقابل اسم ثان، بقيت منطبعة على محيّاها منذ أن تُوّجت ملكة جمال صغيرات كولومبيا، في الثامنة من عمرها. ظلت منذئذٍ متشبثة بتلك الابتسامة، إلى أن لم تعُد تتحكّم فيها. كانت تبتسم في كلّ وقت وحين، حتى في الأوقات الحزينة أو الكارثية، وهذا من بين أسباب استحالة تقديمها لشيء آخر غير فقرة أخبار النجوم.

من حيثُ كانت تقف كارن، بدت لها حُشْوَتي ثدييها وكأنهما على وشك الانفجار. صحيح أن لها جسدُ تمثال منحوت، وأنها تحب إبرازه دائماً، وليس فقط في كتالوغات الملابس الداخلية. كانت ترتدي بيكيني خيطٍ مخرّم وحمالة صدر من حرير أسود، قياس ستة وثلاثين. بشرتها تميل للَون الكاراميل، وشعرها بين الأحمر ولون الشامبانيا. كان لها أنف صغير بملامح إحدى أميرات والت ديزني، وجسد إحدى عارضات مجلة **بلاي بوي**.

- لقد انتهينا، قالت كارن كمَن أزاح عن صدره عبئاً ثقيلاً.

نهضت دونيا كارن من على المنضدة بابتسامتها المعهودة. كانت تحرِّك مؤخرتها يميناً ويساراً كطاووس في حالة عرض. ناوَلتْها كارن مَرْيَلَة، في الوقت الذي رنَّ فيه هاتف المقصورة.

- لكِ موعدٌ آخر، لا تسأليني الآن مع مَن، قالت آني ثم أقفلت الخط.

لم تتذكّر كارن صاحبة الموعد.

- سأترك حضرتكِ ترتدين ملابسك بينما أعدّ التوصيل، قالت لزبونتها.

- شكراً، بوكاهونتاس، ردّت دونيا كارن دون أن تنظر إليها ودون أن تتوقف عن الابتسام. لاحظي أنني أتأمّلك منذ عدة حصص. جمالك هذا جمال متوحش، كجمال هندية حمراء صغيرة بلباس بدائي يستر بالكاد عورتها، ألحت على القول، قبل أن تطلق مرة أخرى ضحكتها الصبيانية الحادة، مع أن هذا الشعر الرطب غير حقيقي، أليس كذلك؟ أضافت.

صمتت كارن.

أعطتها دونيا كارن ألف بيزو بقشيش، مبلغ لا يكفي حتى لرحلة ذهاب في حافلة، مع أنها اشترت أحد الكريمات من ماركة سيسلي وآخر من ماركة أولاي، وأدّت مقابلهما مليوناً وخمسمئة ألف بيزو، أي ضعف ما كانت تكسبه كارن إلى غاية الأسابيع الأخيرة. من بين كل ما جرى، ما حزَّ في نفسها أكثر كانَ ورقةَ الألف بيزو.

دأبت كارن على ترك البقشيش مخبّأً تحت مَرْتَبَة سريرها، حيث جمعت ما يفوق المليون بيزو. عندما ستُكمل مبلغ مليونَي بيزو، بحسب تقديراتها، سيكون بإمكانها استجلاب إميليانو أخيراً للعيش معها. سيمكّنها ذلك القَدْر من تأمين الغذاء، والمدرسة، وواجب مَن سيتكفل به لبضعة شهور على الأقل، بينما تتفرغ هي للعمل. بعد ذلك، ستشرع في جمع ما تبقى من مال، ستقدم خدماتها في المنازل، وستعثر على شغلٍ إضافي أيام الأحد، وستبذل كل ما في

وسعها لكسب مزيد من النقود. ما زالت تفصلها عن تحقيق ذلك الحلم ثلاثة أشهر إضافية من الكد. ليست بالوقت الكثير، هكذا ظلّت تردِّد في نفسها،على سبيل التعزية.

كانت تصعد الدرج، عندما سمعت صوت دونيا كارن:

- بوكاهونتاس!

استدارت كارن.

- أهووو! قالت مقلّدة تحية الهنود الحمر في الأفلام الأميركية.

طفقت كارن تنظر إليها، وفي هذه المرة، كانت هي مَن اصطنعت الابتسامة. كانت مقدمة البرامج تناديها بلقب الهندية الحمراء أمام أنظار جميع مَن في المحل انتقاماً، لأنها تشاطرها الاسم نفسه. أحسَّت بنظرات الزميلات تلتصق بجسدها كالعلق، وسمعت ضحكاتهن الماكرة كأخوات سندريلا غير الشقيقات. لحسن حظها، ظهرت سوزانا في الوقت المناسب، وهبّت لنجدتها:

- انظري كيف استطعتِ كسب ودّ كارن أرديلا، حتى أنها أطلقت عليك لقباً، كعربون تحبُّب!

ثم أكملت طريقها.

خفَّف ذلك من روع كارن، فلها هنالك حليفة على الأقل. لم تكن تعرف الدوافع، لكن من المؤكد أنّ سوزانا قد قرَّرت حمايتها. لم تكد تصل إلى مقصورتها حتى لقِيتْ سيدة متوسطة العمر، بشعرٍ سيّئ الصباغة، وساقين طويلين ومكياج كثير. قبل أن تتذكّر أين رأت ذلك الوجه سابقاً، أمسكت المرأة بذراعها:

- هل حضرتك السيدة كارن؟

- نعم، سيدتي، كيف يمكنني خدمة حضرتك؟

- أنا كونسويلو، أم صابرينا غوثمان. أتذكرينها حضرتك؟

لحظتئذٍ، عادت إلى ذهنها صورة الأم التي تعانق طفلاً صغيراً، في قدّاس التأبين الذي شهدته منذ ساعات.

- هل طلبتِ حضرتكِ موعداً معي؟ سألتها بعصبية.

- نعم، ردّت السيدة.

- تقدَّمي، من فضلك، قالت كارن وهي تقودها إلى المقصورة.

- وما الخدمة التي تطلبينها حضرتك؟

- أنا؟ لا شيء، يمكنني أن أؤدّي أجراً عن هذا إن شئتم، لكنني جئتُ فقط للحديث معكِ.

- أتريدين حضرتك قهوة أو ماء منسّماً؟

- لا أريد شيئاً، قالت السيدة وهي تتأمل المنضدة الفارغة، حيثُ تخيّلت ابنتها ممدّدة فوقها منذ يومين. جاءتها كارن بكوب ماء، ولم يكن ذلك مبرر خروجها بقدر ما كان تجنّب رؤيتها على ذلك الحال. أسندت المرأة ظهرها إلى الحائط وهي تعتصر ألماً، وجسدها يهتزّ لشدة النحيب. ستسقط على الأرض لا محالة، قالت كارن في نفسها، وهكذا كان. اضطرت كارن لأن تقوم من مكانها، وهمّت بأن تطلب من المرأة الوقوف، لكنها غيرت رأيها في آخر لحظة. انحنتِ الأمُّ الكامنةُ في داخل كارن، وجلست بجانب السيدة، ثم مرّرت ذراعها وراء ظهرها. كانت المرأة تنتحب. بقيتا على تلك الوضعية مدة طويلة. بين الفينة والأخرى كان نحيبها يتوقف لبرهة. بات وجهها مبلّلاً، ومكياجها سائحاً. صار منظرها قبيحاً.

- ألا ترغبين حقّاً في إجراء تنظيف؟ ألحّت كارن. فأنا لا أعرف حقيقة أيّ خدمة بوسعي أن أقدِّمها لحضرتك. أخبريني ما الذي تفضِّلينه: تدليك أم ترطيب؟

- أريدك فقط أن تحدثيني يا ابنتي.

أحسّت كارن بالارتباك لطلب الزبونة.

- لم تكُن ابنة حضرتك كثيرة الكلام، سيدتي. إذا وددتِ، ابدئي حضرتك بنزع الثياب، اِبقَيْ فقط بالسروال الداخلي، قالت وهي تُشغِّل موسيقى هادئة.

- هل أنتِ من أزَلتِ شعرها؟

- نعم، سيدتي.

- أحسنتِ العمل. بَدَت كدمية، قالت وهي تنزع حمالة الصدر.

- شكراً، قالت كارن وهي منشغلة بأغرب محادثة تُجريها في حياتها.

- تمدَّدي الآن فوق المنضدة، سأضع لحضرتك بطانية كهربائية لكي لا تشعري بالبرد. دقيقة لو سمحت. أتفضلين زيت اللوز أم الخزامى؟

- سبق وقلتُ لكِ أنني لم آتِ لهذا الغرض، أعادت القول بشيء من العصبية. لكن، ما الذي سيدفع ابنتي لإزالة الشعر لو لم تكُن على موعد؟ كنت أعلم أنها تواعد أحداً، لكنها لم تخبِرْني بشيء، بحيث إنني لا أعرف حتى اسمه.

لم تُجب كارن بشيء، وعوض ذلك دلّكت لها الصدغين والرأس والعنق، ثم همّت بالانتقال إلى الذراعين، لكنها انتبهت للماكياج السائح، فلم تستطع مقاومة إغراء تصحيحه. مرّرت لها ورقة كلينكس مع كريم مُزيل للماكياج، بعد ذلك وضعت لها جِلْ منظف وَختمت بكريم مرطب.

واصلت تدليك الذراعين، ولمّا أتى الدور على اليد اليسرى، عادت أمّ صابرينا غوثمان إلى البكاء. في ما تبقّى من وقت، ظلت تبكي بكاء خفيفاً، كما لو أنّ تلك اليدين الشابتين، القويتين والخبيرتين، وهما تلامسان بشرتها، كانتا تضغطان على نقط تأثير خاصة، فتحرّرانها من ألم دفين.

بعد مرور عشرين دقيقة، طلبت منها أن تستلقي على بطنها. عندئذٍ فقط، وهي تهم بالاستدارة، عادت وسألتها:

- هل لديكِ أطفال؟

- طفل في الرابعة من العمر.

دلّكت لها كارن منطقة الظهر طويلاً، إذ كانت كثيرة العقد العضلية.

- ويريدونني أن أصدق أنه كان انتحاراً... قالت فجأة.

- انتحار؟ كنت أظن أنه موت طبيعي.

- هذا ما كتبوا في الصحف، ماذا كنت تتوقعين؟

صمتت كارن.

- الآن طفلتي وُورِيت الثرى، ما الذي أستطيع فعله يا إلهي؟! ماذا بوسعي أن أفعل؟!

بمجرد قولها ذلك، دخلت الأم في نوبة بكاء شديدة، فتوجّب على كارن التوقف.

- هل اتصلتِ حضرتك بالشرطة؟

- هم يلحّون أنه ما دام التقرير الطبي يقرّ بوجود جرعة زائدة من التريبتانول، وليس هناك ما يدعو للشك في خلاصاته، فلا مجال لفعل أيّ شيء.

- التريبتانول؟

- هو دواء مخدّر، مضادٌ للاكتئاب يُستعمل في الانتحار. ما الذي تعرفينه، كارن؟ ألحّت الأم.

- لم تكن تبدو عليها علامات مَن يرغب في الانتحار. وكيف انتحرت؟ أو بالأحرى، كيفَ كان انتحارها بحسب ما يزعمون؟

- في مستشفى سان بلاس، تم الإخبار بأن سائق تاكسي تركها عند بوابة قسم المستعجلات. وقد قال ذلك الشخص أنه أقلها من ملتقى شارعَي 77 و90، حوالي الساعة الخامسة فجراً. قال إنها طلبت منه أن يقلّها بسرعة إلى مستشفى سان بلاس، وإن الأمر كان مستعجلاً، وإنه عند وصولهما لم تستيقظ، عندئذٍ نزل لمعاينتها فرأى أن بيدها علبة تريبتانول، ولمّا فتح العلبة، وجدها فارغة عن آخرها.

- بمعنى أنها هي من أخذت تلك الكمية من الدواء؟

- هذا ما جاء في التقرير الطبي.

- لكن، هل تمّ إجراء التشريح؟ هل طُلب من السائق أن يقدِّم شهادته؟

كانت أم صابرينا تبكي بشكل أكثر هدوءاً.

- لقد أُصِبتُ بالهلع، وارتأيتُ حينها أن الأَوْلَى إكرامها بدفنٍ يليق بها، أتعلمين أن المنتحرين لا يدخلون ملكوت الرب؟ قالت.

لمست كارن قدمها اليمنى فتنهّدت كونسويلو باريديس وأغلقت عينيها. بدأت بفرك مشط القدم بقليل من الكريم، بعد ذلك طفقت تُديره في هذا الاتجاه ثم في الاتجاه الآخر. استعملت يدها كمِدْلك في أخمص القدم، وحركتها إلى الأعلى والأسفل، ثم بطريقة دائرية.

- لستُ أدري ما يمكن قوله. لربما لم تنتحر. لربما...

في تلك اللحظة تحديداً، رنّ جرس الهاتف الداخلي بنوع من الإلحاح. لم تجد كارن بدّاً من الرد في النهاية.

- أستميحك عذراً سيّدتي. . . نعم، آني، أنا معك.

توجّب على كارن أن تقاطع أم زبونتها.

- أنا متأسفة جدّاً، سيدتي، لقد استوفينا الوقت. لدي زبونة أخرى حان موعدها، وهي تصعد الدرج في هذه الأثناء.

ارتدت أم صابرينا ملابسها بسرعة. قبل أن تغادر، عانقتها، وتركت لها بطاقة زيارة شخصية كتب عليها: **كونسويلو باريديس، وكيلة عقارية**، مع أرقام هواتفها.

سُمعتْ طرقتين على الباب إعلاناً بدخول روساريو تروخيليو.

- كيف حالكِ؟ قالت عند الدخول وهي لا تنظر إلى أيّ اتجاه. أريد حصّة تنحيف للخصر والفخذين، ثم تصحيح الحاجبين. مفهوم؟ كانت روساريو تروخيليو تلحّ على التنحيف رغم خفّة وزنها.

- بكلّ سرور، سيدتي. ردّت كارن قبل أن تخرج لجلب الجِلْ الساخن، والمَدالِك، وجهاز الموجات فوق الصوتية.

عند عودتها، كانت روساريو تروخيليو ممدّدة فوق المنضدة، تتكلم في الهاتف النقّال. بمجرّد أن رأتها تدخل، انتقلت للحديث بالإنجليزية، وقد صارت كارن تستأنس بهذا السلوك يوماً عن يوم.

في النهاية، اشتدّ غضب الزبونة لدرجة عادت معها إلى استعمال خليط من الإنجليزية والإسبانية، ثم صرَخَت مخاطِبَة زوجها بصوتٍ حادّ:

- لقد شرحتُ لسكرتيرتك أنني لن أذهب إلى سانتا مارتا على متن خطوط «إنديان إيرلاينز»، أتفهمني؟ إمّا تحجز لي في الدرجة الأولى وإمّا تسافر وحدَكَ مع الأطفال.

ما أن أقفلت الخط حتى بدأت دونيا روساريو في التشكّي: اشتكَت أولاً من حرارة الطقس، ومن الجهد الكهربائي لجهاز

الموجات الصوتية، ثم من قلة التهوية، ومن ضيق الوقت المخصَّص لها، ومن العاملة المنزلية التي غادرت من دون إشعار، ومن كون ابنتها لم تعُد تقضي معها وقتاً كثيراً، ومن مشكلة المرور، ومن ضعف جودة المياه، ثم من حرارة الطقس مرة أخرى. . . مرت الساعة بطيئة.

تساءلت كارن لماذا لم يسبق لأحدٍ أن نبّهَ السيدة تروخيليو إلى أن نحافتها أضحت موضوعاً مقلقاً، وأنه لا حاجة لها بالتدليك إطلاقاً. لقد وسوست لها نفسها أن تقول لها ذلك، غير أنها فضَّلت الاحتفاظ بمنصبها.

- لقد انتهينا، قالت كارن.

عندئذٍ خرجَت لتُعدّ لها إيصال الحساب وتركتها ترتدي ثيابها. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عصراً. ما زالت تفصلها ثلاث ساعات عن توقيت المغادرة. ورغم ذلك المزاج السيّئ، فقد تركت لها دونيا روساريو عشرة آلاف بيزو كبقشيش، وهو ما شكرتها عنه، وعندما نزلت إلى الطابق الأرضي، شاهدت حرّاسها الخّاصين. لقد دَرَجت ألسنة القطط النّمامة على ترويج أنها متزوجة من أحد السياسيين المهمّين. عندما ذهبت إلى الصندوق لتقديم الحساب شعرت مرة أخرى أنها تحت المراقبة، وحينما كانت تتهيّأ للصعود ومعها حساب دونيا روساريو، استوقفتها زبونتها المُوالية، بلمسة خفيفة على كتفها.

- إذا كنت مشغولة جدّاً، سأنتظرك هنا في القاعة، اطمئنّي.

استدارت كارن فالتقت عيناها بعينَيّ.

- دونيا كلير، تسرني كثيراً رؤيتك، دقيقة وأنزل لأجل حضرتك.

عندما أتمّت كلامها هذا، وضعت يدها فوق كتفي لبضع ثوانٍ.

منذ تلك المرة التي قادتني فيها الصدفة إلى دخول المحل، دأبت على الذهاب إلى هناك باستمرار. كنت دوماً أطلب خدمات كارن، فإذا ما تعذَّر عليها استقبالي، كنت أفضِّل الانتظار إلى يوم آخر على أن تلمسني امرأة أخرى. بقربها، كنت أشعر بنفسي على أفضل ما يرام، إذ يكون بوسعي أن أمدّد جسدي فوق الفوطات البيضاء الدافئة، أن أُسْلِم نفسي للصمت بعينين مغمضتين، وأَرتحِل.

لقد حدّثتني كارن عن صابرينا، وعن موتها غير المتوقّع، وعن أمِّها التي اضطرّتْ لمقاطعتها وهي في قمة التنفيس عن نفسها، لأن موعد الساعة الرابعة كان قد حلّ. كنت أستمع إليها، بِموجِبِ انحرافٍ مهني أصابني لربما، أو لاكتراثٍ صادق منّي، المهم أنني كنت أستمع إليها.

- وأنتِ، هل تظنين أنه كان انتحاراً؟

- أنا لا فكرة لدي.

- وهل تعرفين شيئاً؟

- كانت ستقابل حبيبها.

- جيد. كم يبلغ من العمر؟

- لست أدري. هي لم تُخبرني بذلك، لكن يبدو أنه مقاولٌ شاب، في حوالي السابعة والعشرين، أو الثلاثين على أكبر تقدير ويشتغل خارج بوغوتا. لا أدري لماذا أجبتها بالنفي حين سألتني إن كنت أعرف شيئاً، ولماذا نفيتُ علمي بأيّ شيء لمّا وجَّهت لي رئيستي السؤال نفسه.

- ربما كان حدساً منك، أو أنك توخّيت حماية نفسك. أو

لعلّه التزامك بالحفاظ على سرية محادثاتك مع الفتاة. في كلّ الأحوال، فقرارك جدير بالاحترام.

لاحظتُ أنها وصلَتْ إلى مرحلة مقشّر الوجه الفوّار، المصنوع من نواة الزيتون، والذي يتعيّن تركه لستة دقائق على البشرة. لقد مرّ الوقت بسرعة.

- دونيا كلير، إلزَمِي الصمت حضرتك لسِتّ دقائق، إلى أن أزيل المُقشِّر.

- حسناً، حدِّثيني أنت.

- لكن عمّ أحدِّثك؟

- عمّا تشائين؛ ولا داعي لمخاطبتي بِدونيا، من فضلك.

في تلك الدقائق الستّ، تحدثت كارن عن نيكسون باروس، والد ابنِها؛ عن إميليانو، عن روساريو تروخيليو وكارن أرديلا، وعن عمليات الجمع والطرح التي تُجريها نهاية كلّ شهر. حدثتني كذلك عن كتاب **أقدِّر ذاتي** لراميلي، وعن أهمية أن يبقى المرء منتبهاً على الدوام لإشارات الملائكة الذين يرافقوننا. في تلك الدقائق الستّ، أدركتُ أن كارن هي بطلة قصة كانت قد بدأت تُكتَبُ في ذهني.

- أَجْري لي تدليكاً الآن.

- الآن؟ سألتني كارن باستغراب.

- أَجَل، قلتُ محاوِلَةً أن أبدو كمَن يتصرّف بعفويّة. لست أدري ما سرّ تلك القوة الغريبة، التي كانت تدفعني للبقاء بجانبها. لم تكن لدي رغبة في المغادرة. كنت أريد البقاء هناك، بعينيّ المُغمضتين، أحسُّ بنعومة يديها وأستشعرُ نَفَسها.

- سأتأكّد من عدم وجود موعد آخر ينتظرني، وعندئذٍ، سيكون ذلك من دواعي سروري.

عندما أقفلت خط الهاتف قالت لي: «يمكنني أن أجري لك التدليك. أترغبين حضرتك بسروال داخلي أحادي الاستعمال أم تفضلين البقاء بهذا الذي عليك؟».

- أنا مرتاحة هكذا، قلت وأنا أحسّ بارتباك طفيف. نزعت ملابسي مُستدبرةً كارن. على كل حال، كانت المقصورة معتمة. الآن لم تعُد يداها تلامسان وجهي وعنقي فحسب، بل صرت أستشعرهما في كل تضاريس جسدي.

- هل تودين حضرتك الاستماع إلى هدير البحر؟

لم أتمكّن من الإجابة، إذ تظاهرتُ بالنوم. شغّلتْ كارن صوتَ الهدير بتقنية ستيريو، ثم عادت لتدلّك لي ربْلتَي الساقين، واللتين بدَتَا لي عندئذٍ وكأنهما تختزلان العالم كله، مع أنني لم يسبق لي أن فكرتُ بهما قط.

- هل تقومين بتمارين رياضية؟ سألتْني.

ابتسمتُ.

- كنت رياضية منذ سنوات خَلَت، الآن بالكاد أقوم بالمشي. قلت.

مرّرتْ يديها فوق ساقيَّ، ثم على منطقة البطن. كان عبق جوز الهند يملأ المقصورة، وصدى الأمواج يرتطم بالباب الذي يفصلنا عن عالم لا أودّ العودة إليه. كنت أرغب في البقاء هناك مع كارن إلى الأبد، بعطرها، عطر الورد، وضحكتها الطفولية، وَجدِّيتها عند التطرق لأيّ موضوع. كان يكفي لكارن أن تتكلم حتّى أشعر بجسدي حيّاً، متناسقاً إيقاعُه مع الكون، هزّازاً. لا أذكر أنّ شخصاً سبقَ له أن أثّر فيّ بذلك الشكل قطّ. انتابتني الرغبة في البكاء. طلبتْ مني كارن أن أستلقي على بطني وأنا حينها أجهشُ بالبكاء. استدرتُ

مستدبرةً لها، وعندئذٍ، دفنتُ رأسي في ثقب المنضدة، وأطلقتُ العنان للدموع. يا لَطول الأمد. منذ زمن طويل وأنا لا اتصال لي جسداً بجسد. وددتُ لو أقبّلها، لكن كانت ستُسيء فهمي لربما. كلّا، لم يكُن الأمر على ذلك النحو. لم يكن ذلك الشعور رغبةً. لم أشعر به من قبل. لم أشعر يوماً بالانجذاب لامرأة. كان شيئاً آخر مختلفاً، مرتبطاً بحنوّها الكبير لربما، أو بعنفوان الشباب لديها، أو بتلك الرِّقة التي توحي بها لطافتها، وتلك البساطة التي تتحرك بها وسط المقصورة، أو بألق شخصيتها، أو بكلّ ذلك مجتمعاً، لست أدري حقيقة، لكنني واصلتُ البكاء في صمت، بمزيج اضطراب وقلق وفرح لم أشعر به منذ مدّة طويلة.

7

أطفأَت الأضواء وأقفلَت المقصورة بعد الساعة الثامنة بقليل. كان الوقت قد تأخّر كثيراً لكي تهاتف إميليانو. مكالماتها معه أضحت يوماً عن يوم طقساً خاصّاً بيوم الأحد، وكانت تخاف أن تصبح مع مرور الوقت واحدة من تلك الأمهات اللائي ذهبن يوماً للعمل في العاصمة، فأضحى الحوار معهن يُفتقد شيئاً فشيئاً، ويُختزل في مكالمات خاطفة تَقصُر مُدَدها من يوم لآخر. لم ينجح مسعاها الأولي في الاستقرار وجلب إمياليانو خلال أشهر قليلة. لقد مرّت تلك الأشهر القليلة. خطر ببالها أنها في ذلك اليوم لم تكسَب سوى أحد عشر ألف بيزو بقشيشاً، وكان المبلغ في بعض الأيام يناهز العشرين ألفاً أو أكثر، غير أنها في أيام أخرى لا تكسب شيئاً. كما أنه كان يُسيئها أن تُسلَّم لها ورقة الألف بيزو، كانت تشعر بالغبن حينها، إذ لطالما مدّت المبلغ نفسه، باليد نفسها، صدقةً للمتسولين في الشارع.

قليلة هي الأيام التي تكون فيها حركة الزبونات متلاحقة الواحدة تلوَ الأخرى. في معظم الأوقات، تجتمع القطط، كما تلقِّبهن سوزانا، للاغتياب والنميمة، واختلاق كلّ أصناف الأقوال والإشاعات، وهن يتصفَّحن مجلات التجميل وأخبار النجوم نفسها،

ويُعدن تصفّحها المرة تلو الأخرى في الساعات الميتة التي لا وجود فيها لِزبونات. عندئذٍ يناقشن حميات المشاهير، والأكسيسوارات التي ظهرت بها هذه الممثلة أو تلك في حفل تسليم جوائز التلفزيون والمسلسلات، وغراميات عارضةِ أزياءٍ محلّية مع أحد رجالِ الأعمال. ومع أنّ كارن بدورها كانت تحبّ مشاهدة المجلات، فقد كانت تنزعج من تعليقات زميلاتها حين تكون بِسوء نيّة.

لذلك كانت تفضّل الأيام التي لا تتمكن فيهما من أخذ نَفَسٍ بين زبونة وأخرى إلّا بشقّ الأنفس، كانت الساعات الميتة هي الوقت الذي تشعر فيه بالحزن، إذ تجرّها دوماً إلى التساؤل عن مصير حياتها، بينما تقرأُ ديزي لزميلاتها وصفةَ حِميةِ الخيار.

عند وصولها إلى غرفتها، ستراجع كم جمعَت من مال. لم تتذكر حينئذٍ ما إذا كانت قد بلغت المليون بالتمام، لكنها كانت قريبة من ذلك. راودَتها من جديد فكرة المخاطرة باستقدام إميليانو بذلك القدر من المال، لمَ لا، فكّرت. أغلى ما في الأمر هو أداء واجبات الشخص الذي سيعتني به. ثم الحصول على مسكن جيد، لأن ذلك الذي كانت تقطن فيه لم يكن على ما يرام. طفقت كارن تحلم بحيٍّ يمكن لإيميليانو أن يلعب فيه مع الأطفال إلى وقت متأخر دون أن تنشغل عليه. ينبغي لها أن تتحرّى جيداً عن الأثمان. عليها أن تهيّئ ميزانية مضبوطة. عليها أن تتصرّف.

لقد فاتَ وقت زحمة المرور. لم تنتظر أكثر من عشر دقائق في المحطة. حين ركبت الحافلة، لم تكُن هناك مقاعد فارغة، ومع ذلك، لم تشعر وكأنها سردينة معلبة. في فترات الصباح، يكون السفر جحيماً حقيقياً. يتزاحم المسافرون مستائين، وينتهي احتكاك بعضهم ببعض بالمشاجرات، من دون الحديث عن مَحافظ النقود

والهواتف والحلي، التي تختفي وسط الزحام، وحوادث مَن يقفزون على الحواجز الحديدية لعدم أداء ثمن التذكرة، ناهيك عن الدّوس الشديد بالأقدام، والكدمات التي تُخلِّفها بعض رحلات النقل العمومي.

خمّنت أنها ستتمكن من الجلوس خلال بضعة محطّات. لم يخِب ظنّها. عند المحطة الرابعة، بعد عبور جادّة الأبطال، وشارعَي 76 و72، ثم شارع الورود، ظفرت بمقعد بمحاذاة النافذة. أسندت رأسها إلى الزجاج المضبّب، وتركت هدير المحرّك يُهدهدها. بين الفينة والأخرى، كانت تفتح عينيها لتعرف أين وصلت الرحلة. حمَلتها منازلُ حيٍّ تعبرُه على التفكير بأزمنةٍ أفضل، مع أنها لا تعرف شيئاً عنها. تلك المنازل الجميلة التي تراءت لها عبر النافذة، والتي صارت اليوم محلات تجارية، وبيوت بغاء، وسوقاً سوداء لبيع أجزاء السيارات، كانت في يوم من الأيام سكناً ثانوياً لعائلاتٍ ثرية، قبل خمسين أو ستين سنة. فكّرت أن حياتها ستكون أسهل لو استطاعت العيش في مكان قريب من هناك؛ شيئاً ما أبعد من جادّة كاراكاس، لكن، وبطبيعة الحال، ليس فوق محلّات موسيقى الماريارتشي، والخمّارات. ليكن ذلك مثلاً قرب محطة مارلي، حيث يوجد متجر إكسيتو الكبير، لتقتني منه لوازم المدرسة لصغيرها إميليانو عندما يحين وقت ذلك. ستشتري له الأكل الصحي فقط، لا مجال لمأكولات الميكاتو السيّئة، بل فقط الفاكهة، والزبادي، والجبن، أي الأشياء التي تغذّيه وتنمّيه بشكل سليم، فكّرَت. شعرَت بلسعة في أعلى مؤخرتها. الحافلات مرتع للبراغيث. في الساحل لا وجود للبراغيث، بل فقط الصراصير، خطر ببالها. براغيث، يا للقرف!

أضحَت أمها بالكاد تُجيبها حين تسألها إن كان الطفل يأكل

جيداً، إن كان يتصرّف بحكمة، وإن كانت تضبط له وقت مشاهدة التلفزيون. «اهتمي فقط بنفسك، بنيّتي»، تقول لها متفاديةً أية محادثة. دائماً ما تتذرَّع بأن عليها أن ترفع الطنجرة عن النار، أو تجمع الغسيل الذي سبق ونظّفته، أو تشاهد مسلسلها أو تُحمِّمَ الخال. هكذا على الدوام.

لو توفَّر لها كثير من المال، فكّرت كارن، لاستأجرت لأمها ممرّضة، لكي لا تضطر لتنظيف براز وبول الخال بنفسها، في كلّ وقت وحين. ثمَّ إن حالة الرجل بدأت تسوء يوماً عن يوم. من حين إلى آخر صار يفقد السيطرة، أو ينسى، أو لا أحد يدري ما يصيبه، حتى أنه أحياناً يتبرّز في ملابسه؛ «لينغّص عليّ حياتي»، تقول الأم، أمّا كارن، فكان يصعب عليها تصديق ذلك. تذكُر كارن أيام كان خالها يقضي سحابة يومه يروي مغامراته ونوادره. ومن بين القصص التي كان يحلو له ترديدها، تلك التي يحكي فيها عن أنثى ببغاء كان يملكها، وكان يحبها «كبِنْتٍ له».

المؤكد أنه كان يحمل معه أنثى الببغاء أينما حلّ وارتحل، عند ذهابه لشراء أوراق اليانصيب، أو للعب الدومينو، أو لشرب القهوة. كانت تلك أطول علاقة عُلِمت للخال، وأكثرها استقراراً، أو هذا ما استمرّ عليه الحال على الأقل، إلى أن دهَسَها أحدهم في يوم من الأيام.

تلك كانت قصة من دون شهود، وهو ما يشكّك في صحتها ويجعلها أكثر مأساوية. لم يصدّق أحد يوماً أنّ أنثى الببغاء يمكن أن تتعرّض للدهس، خصوصاً أنّ الطريق كانت غير معبّدة وقلّما تمرُّ منها سيّارة. كان حيّاً للدرّاجات النارية.

الحال أنه في تلك الليلة، عند عودته من العمل في مكتب

البريد، جلسوا لتناول العشاء، لا تذكر كارن شيئاً من ذلك، إذ لم تكن قد تجاوزت حينها سنتها الثالثة أو الرابعة، ويُرجّح بالتالي أنها لم تكن جالسة حول طاولة الأكل أصلاً. تناولوا عشاءهم، في صمتٍ يكاد يكون مطبقاً، لولا صوت الراديو في الخلفية. أعجَبَ الحساءُ الخالَ فطلبَ المزيد، وعندما أتمّ الطبق الثاني سأل أختَه: «بمَ حضّرتِ هذا الحساء اللذيذ؟» فأجابته يولاندا، أمّ كارن من دون تردد: «بالببغاء ساريتا». ضحك الخال لأول وهلة، لكن عندما لاحظ كيف أنها استمرّت تأكل بملامح وجهٍ صارمة، وقفَ، ثم راح يبحث عن أنثى الببغاء في أرجاء المنزل كله، دون أن يعثر عليها.

في تلك الليلة، بات يتقيّأُ إلى صباح اليوم الموالي، وبعد ما وقع، مرَّت عدة أسابيع دون أن يُكلّم الأخوانِ بعضهما بعضاً. عندما سألت كارن أمها لماذا قامت بذلك الفعل، قالت لها: «كانت الببغاء قد ماتت، ما الذي كنت تريدينني أن أفعله؟ أأرميها في القمامة؟ كما لو كنّا أغنياء!». مع أنها لا تذكر الواقعة، فهي تتذكّر سؤالها لأمها وجواب الأخيرة، ورغم حداثة سنّها، فقد كانت تُدرك أنه فعلٌ شنيع وأنه تسبَّب لخالها في أذًى كبير. منذئذٍ والخال يُعيد الحكاية يومياً، وبعد الحادث بقليل، انتابَهُ هذيان التعليق على مباريات كرة القدم، كما لو كان يرفض البقاء هناك، في ذلك البيت، بين تلك المرأتين. لقد بقي جواب الأم محفوراً في ذاكرتها، لأنها كانت أيضاً أوّل مرّة تسمع فيها من أحد أنهم ليسوا أغنياء. لم يسبق لها قد فكّرت بالأمر من قبل، إلّا أن ذلك لم يجعل علمها بالحقيقة أقلّ إيلاماً.

لم يكن ليولاندا بالدس بديل عن تنظيف براز شقيقها وإطعامه وتحميمهِ كطفل صغير، لأنّ المال اللازم لوضعه في دار العجزة أو

استئجار عاملة منزلية لم يكن متوافراً. أضحت هي نفسها تلك العاملة المنزلية، إذ في مقابل السكن والتغذية، كان عليها تحمّل الإهانات وهي تخدم شقيقها كجارية. والعجوز، رغم جنونه، كان من حين إلى آخر يذكّرها أنّ المنزل منزلهُ، وأن الفضل في تغطية كلّ مصاريفهم، يرجع إلى المال المتحصّل من تقاعده.

كانت كارن تعلم، بعد أن أخبَرتها بذلك أمها، أنّ أكبر مأساة عاشتها هذه الأخيرة كانت إنجاب أنثى، «لأنّ الذكور يفعلون ما يحلو لهم». تذكرُ كارن أنها كانت في الثالثة عشرة من عمرها عندما سمعتها تقول ذلك. منذئذٍ صارت تتساءل، كلّما تعرّفت على امرأة جديدة، ما إذا كانت تفعل ما تريده حقيقة أم ما يتوجّب عليها القيام به. كانت تتساءل كذلك ما إذا كان قد فُرِضَ على أمها أن تعتني بالخال، أم أنّ ذلك تضحية اختارت القيام بها بإرادتها. كانت أمها تجسيداً لشكل من أشكال الشقاء، بل كانت الشقاء نفسه.

منذ ولادة إميليانو وكارن تشعر بأن أمها تحبّ الصبي أكثر منها، ويرجع السبب إلى كونها رأت فيه إمكانية قلب مجريات التاريخ وتغيير الأشياء. عاشت أمها وكذا جدّتها إحباط عدم إنجاب ذكر يرفع رأس عائلة بالدس. لكن ثمة سبب آخر كذلك، لقد خاب ظن أمها فيها، لأنها أوّلا لم تُرِدْ استثمار جمالها، ولأنها سمحت بأن تحمل من «أسود جائع»، كما وصفَتْ أمها نيكسون. صارت يولاندا بالدس جدّة في السادسة والثلاثين من عمرها، وحينئذٍ، أحسَّت أنها أكثر استعداداً لتصير أمّاً مِمّا كانت عليه عندما أنجبت كارن في سن السادسة عشرة، لكنها، ومن دون شك، لم تحسّ بنفسها جدّة، أو على الأقل لم ترغب بذلك.

كانت الحافلة تمرّ بمقرّ جمعية بروفاميليا. لقد سبق لأحد أن أخبرها أنهم يجرون هناك عمليات إجهاض، وأنهم يتوفرون على مصحّة جيدة، حيث يقوم بذلك أطباء أكفاء، وفي أحسن شروط الوقاية. لكن، أليس ذلك مخالفاً للقانون؟ تساءلت كارن. بلى، أجابت نفسها بنفسها، لكنهم يجرون الإجهاض هناك لمن بإمكانها أداء ثمن الخدمة. أيكون هذا جنوناً بدأ يعتريها، مثل خالها خوان؟ لعلّ ذلك من تأثير المحادثات التي تلتقطها أذنها بالصدفة، في الحافلة، في المحطة، في الشارع، في المحل. قد تكون سمعت فتاة تحدِّث أخرى بذلك، ولربما مرّتا حينها بالقرب منها، مَن يدري؟ تلك المنطقة كانت بدورها جميلة. فالمنازل الموجودة وراء تقاطع جادة كاراكاس وشارع 39 كانت من بين أجمل ما شاهدته عيناها في المدينة. بعضها ذات نمط معمار إنجليزي، بجدرانٍ مكسوّة بالطحالب، ونوافذ صغيرة مربّعة الشكل توحي بأجواء مِدفأةٍ، مع شوكولاتة سائلة هُيِّئَت على نارٍ هادئة، وحتى بعض حلوى المارشميلو المشوية على النار. من المحزن أنّ أغلب تلك المنازل لم تعُد مأهولة بطبيعة الحال، بل أضحت الآن مؤسسات ومقرات أعمال. لقد هجرها أهاليها لدواعي أمنية، إذ لم يعُد بوسع أحد أن يعيش محاصَراً بين الشارع والبيت. صار يتوجب وضع حواجز وحدود ومتاريس واقية، وحارس أو أكثر، وسياج حديد يُفضَّل أن يكون مكهرباً، وكلب شرس، وفي المحصلة، يجب أن يكون المرء مخبولاً ليضع نفسه هناك، في فوهة المدفع. لم يعُد هناك أحد يُشعل مدفأة خلف تلك المنازل ذات النوافذ المربّعة الصغيرة، والجدران المكسوة بالطحالب، لقد ولّى ذلك الزمن. ماذا لو كانت مصحّة بروفاميليا موجودة من قبل في كارتاخينا، وأخبرتها صديقة بذلك؟

ماذا لو لم تكن مغَفّلة في علاقتها مع نيكسون؟ ماذا لو لم تتمّ تنشئتها على خشية الرب؟ ماذا لو فاتحت أحداً في مشكلتها؟ ثم أليس أخذ حبوب منع الحمل كإجراء الإجهاض تقريباً؟ أليست كلتاهما طريقتان لمنع وجود حياةٍ قبل أن تصير كذلك، أي حياة؟ ما جدوى وجود حياة إذا لم يكن أحد يرغب فيها؟ انتابها خجلٌ من نفسها لأنها فكّرت على هذا النحو. «لا أحد غير الربّ يهبُ الحياة أو يسلبها»، قالت في نفسها مُردّدة هاته الجملة المسكوكة التي سمعتها مئات المرّات. في أثناء ذلك، نزَل الرجل السمين الملتحي، وجلست بجانبها فتاة حامل، لا يكاد يتجاوز عمرها السادسة عشرة، وكانت في شهرها السابع على أقل تقدير. همّت الفتاة بالجلوس ثم، فجأة، بقيت معلقة في الهواء لبضع ثوانٍ، تاركة مؤخرتها على مسافة عشرين سنتيمتراً من المقعد. لاحظت كارن أنّ تلك الحركة أضحت عادة يقوم بها الجميع في بوغوتا. وفعلاً، مَن لا يترك المقعد حتى يبرد من الحرارة التي خلّفها الجسدُ المُغادر وراءهُ، باتَ يُنظر إليه كقليل أدب. هكذا، ببقائها معلقة لسبع أو عشر ثوانٍ، انتظرت الفتاة إلى أن تبدّدت حرارة رَدْفَي الملتحي. لقد سبق لسوزانا أن شرحت لها أنّ الناس يقومون بتلك الحركة تطيّراً، لكي لا تصيبهم أحوال الآخرين.

جلست الفتاة بجانبها. نظرت إليها كارن بطرف عينها، إذ لم تتجرأ على النظر إليها مباشرة، ومن دون أيّ خيطٍ رابطٍ يأخذها إليّ، خطرتُ ببالها. فكّرَت أنني مختلفة عن معظم زبوناتها. كنت أبدو لها امرأة حرة، متصالحة مع الحياة. هكذا تحب أن تكون عندما تصير في سني، كما قالت لي أياماً بعد ذلك. لو قدّر لها أن تكون ثرية، كانت ستفضل أن تكون امرأة ثرية مثلي، لا كدونيا روساريو تروخيليو. عندئذٍ لن يكون لمسألة النوع أية أهميّة، «لأن أمور

الأغنياء تكون عموماً جيّدة، ويتساوى في ذلك الذكور والإناث، أو يكادون» قالت لي مرة.

طفقت الفتاة الحامل تقضم جلد أظافرها بعد أن أتَت على هذه الأخيرة، وما عاد يبدو منها شيئاً تقريباً. كان شعرها متّسخاً ونظرة الخوف في عينيها. رغبَت كارن في محادثتها، ولو لتسليتها عمّا يشغل ذهنها كثيراً.

- كم مرّ على حملك؟
- سبعة أشهر.
- ستضعين في أكتوبر؟
- نعم، سيدتي، في بدايته.
- والأب، هل هو سعيد؟
- نعم، سيّدتي، كان سعيداً.
- ألم يعُد كذلك؟
- لا، لم يعُد كذلك، لقد تُوفّي.

امتلأت عيني الفتاة لحظتئذٍ بالدموع. لم تنبس كارن ببنت شفة، لكنها واصلت النظر إليها، الآن بشكلٍ مباشر، كما لو كانت تريد تنويمها مغناطيسياً، أو أن تقول لها شيئاً لا تستطيع تبليغه بالكلمات. همّت الصبيّة بقضم ما تبقّى من أظافرها مرة أخرى، آخذة يدها إلى فمها، لكن كارن، بحركة تجمع بين الرقّة والصرامة، سحبت لها يدها ووضعتها فوق رجلها. تركتها هناك، هادئة، وقد وضعت يدها فوق يد الصبيّة، وبقيتا على هذا الوضع إلى غاية المحطة 22، غير بعيد عن بداية شارع الخطيئة، بمومساته اللائي يخرجن من فنادقه الموبوءة.

في الخلف، بقيت هناك أحياء موسيقيي المارياتشي، حيث لم

تذهب كارن قط، مثلما لم تزُر حانة أو مرقصاً في المدينة طيلة حياتها.

شيئاً فشيئاً، يلوح هنا أو هناك وباضطرادٍ منظر منازل بزجاج مكسور، مروجي مخدرات، بائسين، متحولين جنسياً، مومسات مسنّات، سمينات، صبيّات، مريضات. في المقابل، لا يذهب إلى المسبح الكبير إلّا مَن يملك المال. سمعَت كارن أنّ ثمن زجاجة ويسكي هناك يبلغ نصف مليون بيزو. لا بدّ أنهم يعاملون الفتيات بشكلٍ جيد، من المؤكّد أنهم لا يسمحون بأن يُضربن أو يُصَبْن بعدوى تلك الأمراض المقرفة. أثقلَ النعاسُ جفنَي كارن، لكن بما أنّ الحافلة توقفت، رفعت رأسها لتعرف أين وصلت الرحلة. لقد نزلت الفتاة الحامل وشغل مقعدها رجل طاعن في السن. صوّتت أمعاؤها من الجوع فحاولت تذكّر ما تناولته في الغذاء. تساءلت ما إذا كان لها ما تأكله بالغرفة. عليها أن تتسوّق. ربما في يوم الأحد. قد تأخّر الوقت الآن، تريد فقط أن تأوي إلى فراشها. تؤلمها ربلَتي الساقين، والذراعين، وأوتار اليدين. بقيت تسع محطّات فقط. عند نزول الرجل، صعدت امرأة في سنها. كانت سيدة ظريفة، تتحدث بالهاتف بحماس. «لكن، يا ماما، هي طفلتي»، كانت تردد، «هي طفلتي»، «هي طفلتي» كما لو تعلَّق الأمر بتعويذة مانترا. أقفلت كارن عينيها. كانت الحافلة تفوح بروائح عطنة. مزيج عرقٍ وشعر وعطر باتشولي وأكل معلّب ودخان سجائر. ودّت كارن لو أنها لا تسمع حديث جارتها في المقعد. شعرَت بالخوف، فأقفلت عينيها من جديد، لكنها رغبَت هذه المرة في إجراء الحسابات. حاولت التركيز. لقد بدأت ترسل لأمها حوالي ثلاثمئة ألف بيزو، وهو مبلغ قليل. يتوجّب عليها إذاً أن تجري حساباتها بدقة أكبر، فلا يعقل أن

عائلات بأكملها تعيش بالحدّ الأدنى للأجر، وهي تكسب ما يفوق ذلك بمقدار الثلث، ويصعب عليها مع ذلك إكمال الشهر. كانت ماريوري قد نبهتها إلى ذلك بمجرَّد مجيئها إلى بوغوتا: «أنت فقيرة سيئة، لا تعرفين كيف توفّرين المال». لعلّ ذلك صحيح. كانت كارن تحسّ أنها ليست فقيرة سيئة فحسب، بل لربما أسوء من أن تستحق عيش هذه الحياة. لطالما سخرت منها أمها، كانت تعيّرها بكونها تحسب نفسها من عائلة أفضل. لم يكن الأمر صحيحاً. هي ترى أنّ لعنةً ما أصابتها منذ طفولتها فحكَمَت عليها بالفشل في كلّ شيء. لعلها ورثت ذلك عن أبيها. خطر ببالها أنها لربما شَبَهٌ لأبيها، إذ لا تكاد تشبه أمها في شيء. صحيح أنها ورثت عنها جسدها المفتول العضلات، وعنقها الطويل، وشفتيها السميكتين وعينيها الكبيرتين، لكن لم تَرِثْ عنها مرحها، ولا صخبها، ولا طريقتها في الكلام، ولا ولعها بالرقص والكحول والروم. كانت تقول لها دوماً إنها تنقصها «غَلْيَة»، كما يحدث عندما يبقى الأرز نيّئاً شيئاً ما، أو المعجّنات أو شيء من هذا القبيل، «ربما خرجتِ من القِدر قبل أن تستوي جيّداً»، هكذا كانت تردّد السيدة يولاندا، «ربما لهذا السبب وُلدتِ خشِنةً، بطبعٍ جبليّ».

نظرت مرة أخرى عبر النافذة. لقد وصلوا بالكاد إلى محطة فوتشا وكان الرجل المسن بجانبها قد غلبه النعاس، ورأسه يهتز يميناً ويساراً، كذلك الكلب الدمية الصغير، الذي تُزيّن به سيارات الأجرة. لمّا توقف رأسه عن الاهتزاز، بدا مطمئنّا وهو يسندُهُ إلى كتف كارن. لكن، مَن يخالُ نفسه هذا الجريء؟ قالت في نفسها غاضبة. عَطَسَت، وبعدها بلحظات قصيرة، توقفت الحافلة في محطة ريستريبو، حيث يكثر الضجيج والحركة دائماً. لسببٍ أو لآخر،

استيقظ الرجل. تظاهر بالسذاجة وطفقَ يفركُ عينيه، ودون أن يعتذر، عدّل وضع رأسه، وتركه ثابتاً إلى غاية محطة أولايا. عادت كارن إلى حساباتها. كان عليها أن تراجع مقدار النقود المخبّأة تحت مرتبة السرير. مكانها ذاك أفضل من البنك. قد تُحدّثها إحدى الزميلات عن نظام الدراسة في المعاهد وتساعدها في العثور عمّن يعتني بالطفل. صحيح أن المعاهد العمومية لا تصلح لشيء، فَلِزَميلتها ديزي طفلة في التاسعة من عمرها تدرس في أحد تلك المعاهد، وما زالت لا تعرف القراءة والكتابة، يا للمصيبة؛ لكن، أن تحلم بوضع ابنها في معهد خصوصي، فذلك من سابع المستحيلات، إذ لن تستطيع توفير ثمنه أبداً.

قد تتمكن من جلب إميليانو في فترة أعياد الميلاد. لقد حدّثوها عن مهرجان الأضواء بالحديقة الوطنية، وعن حافلات تشيفاس المزركشة التي تؤَمِّنُ جولات لمشاهدة تلك الأضواء. يجب أن تحصلَ لإميليانو على مِروحة، ومن الأفضل أن تكون مروحةَ سقفٍ، كتلك التي كانت لهم في منزلهم، والتي كان يُرعِبُها أحياناً أن تسقط عليهم، وتسحقهم في جنح الليل. تذكّرت لياليها الأولى في بوغوتا. كان البرد قارساً جدّاً، ومع ذلك لم تكن تتمكن من النوم؛ كانت تحتاج إلى مروحة السقف، لصوتها المُهدهِد، للرّيح.

صارت الرحلة تبدو لها لامتناهية. كانت ترغب في الوصول، وعدّ النقود، وتسجيل الحسابات، وأن يَحلَّ اليوم الموالي لتبدأ بالجمع والطرح؛ كانت تودّ أن تحلّ أعياد الميلاد، كانت ترغب في جلب إميليانو، كانت تودّ الإحساس بحرارة يديه، كانت ترغب في معانقته، كانت ترغب في النوم بجنب صغيرها كما في الأيام الخوالي، كانت ترغب في إيقاظه بوجبة أريبا بالبيض محضّرة حديثاً

وسُجُق بقَري لفطوره، مع قشدة محلية الصنع وكعكة الذرة، كانت تودّ أن ترى وجهه وهو يركب حافلات ترانسميلينيو السريعة، وعند مشاهدته منظر امتداد المدينة، انطلاقاً من قمّة مونتسيراتيه، والذي قد سمعت بجماله الأخاذ.

راقبت الساعة، كانت تشير إلى حوالي التاسعة. هل أخطأت؟ عوض أخذ الحافلة السريعة استقلّت سعيدة الحظ هذه، التي تتوقف في كلّ مكان. حُقَّ لها أن تبقى هكذا شبه فارغة. أريبا بالبيض، هكذا فكّرت، ببطنها أكثر منه بعقلها. هي لا تفهم سرّ ولع الناس بتلك المُوخابانا طيّبة الذكر، وما هي إلّا خبز جاف لا طعم لهُ، يترك لك اللسان لزجاً. ليكن خبزاً حلواً معجوناً بالحليب مثل لوس كاتشاكوس، فكّرت. أجابتها أمعاؤها بقرقرةٍ مدوّية جعلت الفتى الجالس بجانبها يرفع حاجبيه:

- أترغبين في كعك روسكون؟

- ماذا؟ سألت كارن.

- مَعي نصف روسكون في كيس، إذا رغبتِ.

- شكراً، قالت في خجل.

كانت للفتى لكنة أهل سهل كاوكا. سحبَ الكيس الورقي وفتحه بكياسة، ثم مدّ لها الكعكة. الروسكون أفضل من الموخابانا، خطرَ بِبال كارن. «نعم، لقد تمكنتُ من شراء حزام السروال. لا، ليس بعد، لكنَّ صديقاً لي أعارني ربطتَيْ عنق. نعم، سيدتي. نعم، بكل تأكيد. لا تهتمي حضرتك، لقد شرعت في البحث، وبمجرد حصولي على أجرة الشهر المقبل، سأشتري واحدة لي وأعيدُ تلك المُعارة»، هكذا كان حديث الفتى في الهاتف. أما هي، فلانغماسها في سماع تلك المكالمة، كاد أن يفوتها النزول في محطتها. كان

بداخل الروسكون قطعة من حلوى البوكادييو، فالتهمَتْها في قضمتين. تساءلَت ما إذا كان إميليانو قد ذاق الرّوسكون مرّة، ثم خطر ببالها أنه، لو تعلّم أكل الموخابانا منذ كان صغيراً جداً، لربما استأنس بمذاقها وصارت تعجبه. سيبدو الأمر مسلياً لو باتَ عليها شراء الموخابانا لفطوره، فكرت بذلك، وابتسمت لنفسها. كانت تغذية طفلها تعتمد على المَقليات وماء جوز الهند وشراب البيتو. آه، لَكَمْ كان شوقها كبيراً لتناول بيتو طازج وشهي عند الغروب، فهو شراب الاسترخاء على الكرسي الهزّاز بامتياز، في الشرفة، حيث النسيم عليل، وفي كأسٍ من بلاستيك. آه، ثُم حلويات التمر الهندي اللذيذة، التي تبرع أمها في إعدادها.

في منزلهم، كانوا يستعملون الأواني البلاستيكية فقط، ولم يكونوا يشترون المناديل الورقية. «ما حاجتنا بذلك؟»، كانت تقول دونيا يولاندا. في مغسل المطبخ هناك صابون إِلْ رِيْ لإزالة دهون المقليات بعد كلّ وجبة. خطَرَ ببال كارن أنّ ذلك ربما هو سبب اجتفاف يديها. هنا، بدَل صوت باعة البيتو بعرباتهم الصغيرة، كان يوقظها ضجيج باعة ملفوفات تماليس، بدرّاجاتهم النارية، المجهّزة بمكبرات صوت وطناجر ضخمة: «نعم هي موجودة، نعم، لدينا تماليس بألف وبألفين، اقترب حضرتك، تقدّم حضرتك، نعم، لدينا تماليس»، وكانت كارن تستيقظ منزعجة، لأنه قد يكون يوم أحد، والساعة لا تتجاوز السابعة صباحاً، وهم هناك بنظام بيعهم الصاخب، في اليوم الوحيد الذي يمكن للناس فيه أن يستريحوا إلى ساعة متأخرة. «تقدّموا حضراتكم؟»، تتساءل كارن باستغراب وهي لا تزال بين النوم واليقظة، «إذا كانت مجرّد دراجة نارية، فإلى أين سيتقدم الزبناء؟»، ثم تضع الوسادة فوق رأسها. كانت الحافلة قد

فَرمَلت عندما قرأت كارن لافتة المحطة سانتا لوسيا. قفزة واحدة، فإذا هي في الرصيف، بعد أن وجهت ابتسامةً إلى عون خدمة المراسلات، غير أنّ الفتى لم يتمكن من رؤيتها.

من بين مزايا سكنها في ذلك الحي، أنّ المنزل لم يكن بعيداً عن محطة الحافلة. لم تكن تفصله عنها سوى مسافة ثلاثة مجموعات سكنية، وباستثناء مصباح أو اثنين، قد يكونان مكسّرين أو في حاجة إلى تبديل، كان الشارع مُناراً، وبدت الأسلاك الكهربائية، المكشوفة إلى الخارج، وكأنها أمعاء حيوانات ميّتة عُلّقت للتجفيف. عبرَت المجموعة السكنية الأولى مطمئنةً، ومن دون أن تلحَظ شيئاً غير مؤلوف، لكنها سرعان ما سمعت زعيق دوريات شرطة، وعندما انعطفت عند الزقاق 19، بمحاذاة نزُل نسائم الجنوب، وجدت حشداً من الناس، وحوالي خمسَ عشرة سيارة أجرة تغلق الطريق، بينما طوّقت الشرطة واحدة منها بشريط أصفر يحمل علامة منع المرور. في الجهة المقابلة من الشارع، كان رجال الإسعاف يُركِبُون أحد الجرحى في سيارتهم، وبعض الفضوليين يطلّون لمعاينة المشهد. كان السائقون يصرخون: «اقتلوه!»، «اقتلوه!»، ويلقون بالحجارة صوب نوافذ إحدى منازل الشارع، بينما يحاول رجال الشرطة تهدئتهم. من الأمور التي كانت تلفت نظر كارن في بوغوتا، أنّ الناس لا يحتشدون في الشارع إلّا عند وقوعٍ جريمة قتل أو سطوٍ مسلّح أو حادثة سير، وباستثناء ذلك، يلزم كلٌّ بيته. على عكس ذلك، في الساحل، يُخرِج الناس كراسي ريماكس إلى الشارع، وجهاز إلْ بيكُوو الموسيقي، ويشغّلون موسيقى باييناتو، ويشربون نخب أحد الجيران، بزجاجة جعة من نوع كوستينييتا أو آغيلا، مثلّجة، ويقضون أمسيتهم في الاستمتاع، على نغمات الباييناتو أو الباتشاتا.

- ما الذي وقع؟ سألتْ مُسِنّاً يرتدي منامة.

- لقد أطلقوا النار على سائق سيارة أجرة بغرضِ السرقة، والآن يريدون القصاص من السارق الذي اختبأ في ذلك المنزل.

عندما عبرَت الطريق لتدخلَ الزقاق 20، رأَت سيارة فرقة مكافحة الشغب المصفّحة تقترب. في أقل من ثلاث دقائق، كانت واقفة تحاول فتح باب بيتها، بقلبٍ يخفق بشدّة ويدٍ ترتعش، بينما كان صدى عبوات الغاز المسيل للدموع يصل إلى مسامعها. رفعت عينيها فخُيِّلَ إليها أنها رأت ضوءاً مشعولاً في شقتها. لمّا خفضت بصرها لتدفع الباب، مرَّ قطّ أسود بين رجليها ملامساً فروهُ بِقدميها. تابعت القط بنظرها، فإذا بيدٍ تسحبها من كتفها، وتُجبرها على الاستدارة. كانت لأحد المدمِنين، بسرواله المنخفض الخصر، وشعرهِ المثبّت بالجِلْ.

- كيف حال حضرتك، جارتي العزيزة؟ عدَا كونك جميلة كنجمة!، قال بابتسامة تكشف عن فمٍ من دون أسنان، ونفَسٍ مخدِّر الماريجوانا.

نظرَت إليه كارن لثوانٍ، ووجّهت له ابتسامةً بلهاء، قبل أن تعود إلى مسك مقبض الباب.

- لكن، لِمَ كل هذه السرعة، أميرتي؟ ألحّ الفتى، وهو يمطّط كلمته الأخيرة.

لاحظت كارن حينئذٍ أنه ينظر إلى الأعلى، في الوقت الذي كان فيه ضوء غرفتها ينشعل وينطفئ، بشكلٍ متقطع.

- ماذا يجري هناك في الأعلى؟ قالت بصوت مرتعش، من جراء الخوف الذي انتابها فجأة. كان الفتى قد سحب سكيناً ووضعه لها على حنجرتها:

- لا شيء ممّا يجب أن نُعلم به الجيران. تصرَّفي حضرتك بحكمة، وسترينَ كيفَ تسير الأمور بما يرضي الجميع.

تسمّرَت كارن في مكانها. أحسَّتْ بعقدة في حنجرتها وبالدموع تنهمر من عينيها. شخصٌ ما كان في غرفتها، أو لعلّه غادرها، أو يستعدّ لذلك. انتبهَت حينها إلى الحقيبة التي كان الفتى يضعها على كتفه، وتساءلت ما إذا كان يحمل فيها أغراضها. تسلّحَت بالشجاعة ودخلَت المنزل، بينما اختفى الفتى في الظلام. لا أصوات كانت تصدُرُ من الطابق الأرضي. أضواؤه كانت منطفئة. في فناء المنزل، كان هناك مونْبيكو، كلبُ مالكي العمارة، الذين يُؤَجِّرون ثلاثة شقق أخرى، ويَعيشون في واحدة من شقتي الطابق الأرضي، خلف باب حديد مزدوج، بهِ ثلاثة أقفال، بينما تقطن امرأة مع طفلتها ذات العشر سنوات في الشقة الأخرى. في الطابق الأول، حيث كانت تعيش كذلك كارن، توجد شقة ثانية، كانت تسكنها أسرة مكونة من شرطي وزوجته وطفل رضيع. صعدت كارن الدرج مسرعة لتجدَ قفل الباب مكسّراً، والباب مفتوحاً، وثيابها مبعثرة، والمرآة مشطورة إلى نصفين، وصورة إميليانو ملقية أرضاً، والقديسة مريم من دون رأس. لقد اختفى التلفاز والراديو، وكذا قلادة الذهب الصغيرة، هدية خالها خوان لمناسبة حصولها على البكالوريا، وميدالية الطفل المقدّس. لكن كارن لم تعبأ بهذه التفاصيل، فقط فكرَت في السرير، وَتوجّهت صوبه مسرعة. للوهلة الأولى، بدا كلّ شيء على ما كان عليه من قبل: مرتبة السرير في مكانها، واللحاف كما تركته في الصباح، وَلولا تلك المرآة والقدّيسة والثياب، لأمكن القول ألّا شيء قد وقع إطلاقاً. كان فنجان القهوة في المغسل نصف مملوء، كما تركته قبل أن تخرج، وفُتات الخبز فوق طاولة المطبخ، والمنشفة منشورة على

رأس السرير. لكن، ما أن رفعت المرتبة، حتى اكتشفت فقدان الشيء الوحيد الذي ما كان يجب أن تفقده، الشيء الوحيد الذي كان يعني لها الكثير، الشيء الذي كان يُحدِثُ فرقاً في حياتها وحياة طفلها، الشيء الوحيد الذي كان يبرِّر عيشها في تلك المدينة.

لقد اختفى ظرفُ ورقِ مانيلا، بحجم الرسالة، حيث كانت تضع ما وفرتهُ من أموال طيلة الثمانية أشهر الأخيرة. بحثَت كارن عنه في كلّ أرجاء الغرفة، كما لو كان بوُسعهِ أن يغيّر مكانه من تلقاء نفسه. بحثَت في رفوف الحمّام، بين المناشِف، في جوارير طاولة السرير، في الدولاب، وحتى في سلة القمامة. عاودَت البحث في الأمكنة نفسها مرة تلو الأخرى، كما لو أنّ شيئاً داخل دماغها كان يأمرها بتكرار الفعل نفسه ما أمكنها ذلك، رفضاً للتسليم بالحقيقة المُرّة: لقد اختفى مالها، وَذهب إلى غير رجعة.

8

عندما سمع راميلي هاتفه يرنّ، سرّح رِجْلَيه، فإذا بجرعة الويسكي المتبقية في الزجاجة تندلق فوق الباركيه. «رجاء أخي، الحَقْ بي بسرعة إلى منزلي، فالأمر مستعجل، هناك جثة»، قال دياثغرانادوس ثم أقفل الخط. لمّا نهض إدواردو من مكانه، عاد ليصطدم بالزجاجة، وتعثّر مرة أخرى وهوَ ينتعل حذاءه، لأنه لم يزل ثملاً. عندئذٍ ظهرت لوسيا، وسألته إلى أين يذهب في ذلك الوقت المبكّر جدّاً.

- يوجد صديق لي في مشكلة كبيرة، ويحتاج إلى مساعدتي، سأحكي لكِ في ما بعد.

بعد برهة، ستشرع لوسيا في جمع أعقاب السجائر، ستنظف المنزل وستتخذ قراراً تَركَتْ عنهُ إشهاداً مكتوباً على يومية المطبخ، بعدم السماح لأحدٍ أن يدخِّن في بيتها بعد ذلك اليوم. كان ذلك صباح يوم 23 يوليو.

التقيا في متجر كاروبا 24 الكبير، الموجود بشارع 63. كان دياثغرانادوس يرتدي بدلة رياضية زرقاء ونظارتين شمسيتين. الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً. تحدّثا لبضع دقائق. فكّر راميلي في اقتناء مادة التريبتانول، لأنه كان يعلم بأنّ تناولها بجرعات كبيرة قد يؤدي

إلى توقف التنفس، والغرض من ذلك تفادي اللجوء إلى الطب الشرعي. فإذا تمكَّنا من الحصول على شهادة وفاة مصادَقٍ عليها، يمكنهما تجنّب التشريح. اقتنيَا المخدّر. أخذ راميلي على عاتقه مهمة إلباس الفتاة ملابس لائقة، بعد تنظيف جثتها، ثم إيجاد سائق سيارة أجرة موثوقاً به ليقلّها إلى مستشفى سان بلاس، حيث سيتكلّف الدكتور بينيغاس، الذي لهم عليه أفضال كثيرة، بتسجيل دخولها وإصدار شهادة الوفاة: «وفاة بسكتة قلبية تنفسية، جراء تناول جرعة مفرطة من مادة ثلاثية الحلقات»، كما جاء في الشهادة التي وقّعها الدكتور بينيغاس ساعتين بعد الحادث. وأما الدليل القاطع، فهو وجود علبة دواء التريبتانول فارغة في جيب سترة صابرينا، وشهادة سائق سيارة الأجرة، ممّا يؤكد صحة الرواية الطبيّة، ويضع نقطة الختم على ذلك المونتاج.

- ستكلّفنا شهادة بينيغاس مليونَي بيزو، قال أنيبال لِراميلي، بينما كان يقود عربة التسوّق محمّلة بالبابّايا والأناناس، وحليب اللوز، وعلبة رقائق الذرة.

- لدينا مشكلة جريمة قتل يجب حلّها، بينما أنت تجد الوقت للتسوّق! قال راميلي معاتباً.

- لكن، تمعّن أولاً في الأشياء التي أضعها في العربة ولا تكن سخيفاً، انظر جيّداً. هل رأيت سُجقَ لونغانيثا، أو علبة نقانق، أو فخذَ خروف، أو زبدة، أو فاصوليا، أو خمراً أو نبيذَ شيري؟

عاين راميلي محتوى العربة ثم نظر إلى رفيقه.

- هذا من باب التمويه، قال. إذا استنطقوا البائعَ فَحدّثهم عن مشترياتي، لن يظن أحد أنني الفاعل. قال، ثم انفجر ضاحكاً.

- يا لك من محتال. قال راميلي من دون رغبة في الضحك.

- اِبتسِمْ يا صديقي، اِبتسِمْ واسترخِ، لأن عليك الآن أن تذهب لتنظيف الجثة والتكفّل بكسوتها. قال له أنيبال وهو يربتُ بكفه على ظهره.

- تبدو وكأنك العرّاب. ردّ عليه راميلي. لا، هذا هُراء! تبدو بالأحرى وكأنك بابلو إسكوبار، بهذا اللّباس غيرِ اللائق.

- كم سيُكلِّفنا السائق؟ أضاف دياثغرانادوس دون أن يهتم بشتيمة رفيقه، بينما كان يرتّب وضع المشتريات في العربة.

- عشرة ملايين، قال راميلي.

- أولاد العاهرة! ردّ دياثغرانادوس. هذا ما يجنونه في ثمانية أو تسعة أشهر عادةً!

- هل لك حلّ أفضل من هذا؟

- كلّا، أجاب كاذباً دياثغرانادوس. يجب علينا مراقبة تصرفات ذلك القزم، أضاف. حتى لا يلعب معنا لعبة ويضعنا في مطب. من أين جئتَ به؟

- اِطمئن، فهو شخص يمكننا الوثوق به، قال راميلي.

افترقا أمام جناح اللحوم الباردة. ورغم نظرياته تلك حول التسوّق، لم يَقوَ دياثغرانادوس على مقاومة الإغراء، فاشترى علبة لحم ضلع كان معروضاً في التخفيضات. توجّه كلّ واحد منهما للأداء في صندوق مختلف. لم يتوقف راميلي ولو لحظة ليفكّر كيف أن شخصاً يربط علاقات مع أوساط شبه عسكرية، ويجرّ وراءه تاريخاً طويلاً من القتل، وتحت تصرّفه أمهر القتلة المأجورين، يسعى إلى توريطه شخصياً في هذه القضية، هو الذي لم يسبق له أن اقترف جريمة في حياته، وأكبر جناية ارتكبها كانت تبييضه للأموال القذرة، من خلال إنشائهِ لِهيأة الوساطة في الخدمات الطبية، لأجل

التلاعب بأموال الدولة، وكلّ ذلك بتأثير من صديقه المفضل الجديد.

أضحى دياثغرانادوس يعيش قلقاً مَرضيّاً، واستفحل اضطرابه النفسي هذا بشكل متناسب مع ارتفاع شهيته. ومع أنه كان شخصاً بديناً من قبل، فقد لاحظ معارفُه أنه ازداد سمنة في الشهور الأخيرة. كان يفطر بأربع بيضات، ونصف كيلو من الجبن، وقنينة عصير وثلاثة فناجين قهوة، وَفي الساعة الحادية عشرة صباحاً، كان يطلب من حارسه الشخصي أن يأتيه بأريبا بالجبن، وحلوى غلوريا بعجين الجوّافة، وخبز محشي بالدجاج، وكعك باللحم، وبضعة قطع من حلوى الكاريمانيولا. عندما استأنس راميلي بكارن، أسرّ لها بأنّ أكثر ما كان يُدهشه في أنيبال هي طريقته في الأكل.

- إنها تُخيفني، قال.

- ولا يخيفكَ أن يكون من القتلة، من المجرمين؟ سألته كارن.

- كلّا، بل رؤيته يأكل بتلك الطريقة هي التي تُخيفني، وتصيبني بالقرف.

9

توجّهت كارن إلى الحمّام، نظفت أنفها وغسلت وجهها بالماء البارد، ثم هاتفت زميلتها ماريوري، لتطلب منها استضافتها تلك الليلة في بيتها، هناك حيث اشتغلت لمّا حلّت أول مرة ببوغوتا. استجابت المرأة لِطلبها بعد أن نبّهتْها إلى ضيق المكان. كان ويلمر يشتغل ليلاً، وكان في الغالب يعود من العمل حوالي الساعة الخامسة صباحاً. بسرعة، وضعت ملابسها في حقيبة، وانسحبت من الشقة، متجنّبة إحداث أي ضجيج، غير أنّ مالك المنزل أوقَفَها في الدرج. أغلق فمها بقبضة يده القويّة ثم جرّها بعنف راجعاً بها إلى الشقة. حاولت كارن طلب النجدة، لكن يَداً ذات شعر كثيف كانت تخنق صرخاتها. كان هو مَن سرقها بكلّ تأكيد. ليس هذا فحسب، بل سيحتفظ بمبلغ الأربعمئة ألف بيزو الذي استخلصه منها كضمانة عند مجيئها للسكن هناك. ناهيك عن أنه الآن صار يتحسّس ثدييها من فوق التنّورة، ويعضها من عنقها. أدركت عندئذٍ مدى غبائها، إذ لم يُعلمها حدسها صباح ذلك اليوم بأنهم يدبّرون شيئاً غير معتاد، عندما شاهدت ذلك الفتى بسرواله ذي الخصر النازل يتحدّث مع مالك البيت أمام الباب.

ألقى الرجل بِكارن فوق السرير، ووجّه لها صفعتين قويّتين تركتا

خدّيها محمَرّين، وفي أحدهما جرحاً صغيراً أحدثه خاتم ذهبٍ مرصّع بالأحجار كان في يده اليمنى. وهو يضربها، أفرج عن فمها فصرخت، وراح يدفعها بوحشية، كما لو كان صراخها يُثير غريزته.

مرّ كل شيء بسرعة... توقّفت كارن عن البكاء، وعن الرّمش والتنفس. لم تعُد تدرك ما الذي يجري، ولا حتّى إن كان شيئاً يجري حقيقة، إلى أن صار الألم كبيراً، إذّاك لم يعُد بوسعها مواصلة الهروب من الواقع. كان هناك شعور بالاختناق يمنعها من معاودة الصراخ، أو أن تحاول ذلك بالأحرى. بَقِيتْ عيْنَا الرجل مغروستين في معِدتها كطعنة خنجر.

لطالما بدا لها مالك البيت شخصاً سوقيّاً. فبالإضافة إلى ثقل دمه وأظافره الوسخة، كان يعطن برائحة الجبن العفِن. ظلت كارن تعتقد دوماً أنّ بمقدورها الكشف عن متى يرغب فيها أحد الرجال، لكنها أخطأت التقدير هذه المرة. إلى حدود ذلك اليوم، كان المالك يكشف بالكاد عن شيء من اللطف تجاهها، أو اللامبالاة على الأصح. ولربمّا لم يشتهيها قط، وإنما رغب في تحطيمها. أو لعلّه أراد باغتصابها أن يخلط الأوراق، حتّى يَتفادى تبليغَها عنه كلصّ، لعِلمه بما في مسطرة الاغتصاب من تعقيد بيروقراطي.

شعرت بوجود شخص ثالث معهما في الغرفة، فاستدارت لتتأكد. عندئذٍ، ومن فوق رأس مالك المنزل، لمحَتْ دونيا كلارا مستندةً إلى إطار الباب. شيءٌ ما لفت انتباه الرجل ليستدير بدوره، فوجد زوجته تعاين المشهد، راسمةً على وجهها تعبيراً غريباً:

- تبّاً، آهٍ بُنيّتي المسكينة، يا للخطيئة، هيّا، اتركها الآن!

- اللعنة. لقد أفسدتِ عليّ متعتي، كلارا، كنتُ على وشك الانتهاء! قال المالك في انزعاج، بينما شرع في ارتداء ثيابه بسرعة.

- من الأفضل لكِ أن تغادري هذا المحل. هل تسمعينني؟ قال لِكارن، كما لو كانت هي المسؤولة عمّا وقع.

- وأُعلمكِ أنتِ، عزيزتي، إذا لم تنزلْ خلال عشر دقائق، سأصعَد للبحث عنها، قال موجِّهاً الخطاب لزوجته.

اقتربَت المرأة من كارن، وكانت هذه الأخيرة تنتحب، متّخذة في جلستها وضعية الجنين، ومحاولةً أن تستر جسدها.

- ادخلي الحمّام وتطهّري من هذا الدنس، فحالتكِ مقرفة، قالت لها.

نفذت كارن أمر المرأة. شعرت بوهن شامل يجتاح جسدها. حتى قطعة الصابون لم تقوَ على مَسكِها، بدت لها مهمة شاقة. في أي حالة غير تلك، كانت ستكره ذلك التعاون الذي أبدته المرأة المُسنّة مع زوجها المغتصِب، بيد أنها في تلك الساعة، لم يكن بوسعها سوى الامتنان لوجود شخص يقول لها ما يتوجّب عليها فعله.

- سأطلب لكِ سيارة أجرة، حتى لا تضطري لأخذها في الشارع، وتصادفين سائقاً ينهبك، فالمصائب لا تأتي فرادى.

كانت كارن قد توقفت عن النحيب، لكنها لم تعُد تقوَ على الكلام. كانت يداها ترتعشان والقشعريرة تسري في عمودها الفقري.

ظلّ مشهد الاغتصاب يراود خيالها بإلحاح لعدة سنوات بعد ذلك. كلما قرأت عبارة «شقة للإيجار لامرأة بمفردها» في أحد الإعلانات، إلّا واعتبرتها دعوة لنهبها وإهانتها، ثم تركها تغادر مجرّدة من كلّ ما تملك. لقد تركت كارن هناك مصباح سرير صغيراً. لم يكن السرير والطاولة ملكاً لها، لكن ذلك المصباح كلّفها ثلاثين

ألف بيزو، وكان يعجبها كثيراً. ستمرُّ عدة أيام قبل أن تشعر بالغضب يملأ جسدها كله، أمّا قبل ذلك، فكان إحساسها عبارة عن مزيج من الألم والخوف والانكسار ليس إلّا. كان يومها ذاك مُرهِقاً، وَبدَا لها من طوله وكأنه حَولٌ، مع أنه لم تكن قد مرّت سوى عشر ساعات، ما بين تشييع صابرينا غوثمان، ووقت اغتصابها.

سوف لن تحكي لي عن مصابها إلّا بعد مرور وقت طويل، بعد أن لم تعُد تلك الفتاة نفسها، التي تعرّفتُ عليها ذات مساء من شهر أبريل، في بيت الجمال. قدّمتْ زوجةُ مالك المنزل لسائقِ سيارة الأجرة عنواناً كتبتهُ كارن على قطعة من ورق.

- بِربّكِ دونيا كلارا، قولي لي لماذا؟ هذا كلّ ما استطاعَت أن تنبس به.

- وَما الذي تفعلينه حضرتك بعيشك لوحدك هنا كأية امرأة رخيصة؟ مَن أجبرك على ذلك؟ أجابتها ثم أقفلت باب السيارة، قبل أن تستدير وتقول لها: «من الأفضل ألّا نعود لسماع أخبارك، لما فيه مصلحة الجميع».

- إلى سان ماتيو، سواتشا، إذا تفضَّلْتَ حضرتك، قالت كارن للسائق.

- نعم، عزيزتي، لقد أعطتني العجوز العنوان. لحسن الحظ أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة، وخفّت حركة السير، وإلّا ما كنّا سنصل بسرعة.

أسندت كارن رأسها إلى النافذة وأسلمت الجسد لهدهدة السيّارة وهي تقلّها إلى وجهتها. في الراديو كان صوت تشيكو تروخيليو يلعلع، ومع كلّ مقطع من الأغنية كانت تشعر بمعدتها تعتصر:

قبلاتك حياتي كلّها،
قبلاتك عالمي بأسره،
(قبلاتك)
قبلاتك كراميل
(كراميل!)
تحملني إلى عنان السماء
(عنان السماء)
تجعلني أكلّم الإله[1]

- توقف لحظة من فضلك، سيدي.
- حالاً، مع أنه يلزمنا الكثير من الشجاعة للتوقف بمكان كهذا، قال وهو يخفّف من السرعة، منعطِفاً يميناً.

فتحت كارن الباب وشرعت في التقيّؤ. سلّمها السائق منديلاً وسألها:

- هل أقود بسرعة، سيدتي؟
- لا، ليس ذلك هو السبب، قالت كارن ثم أقفلت عينيها.
- لننطلق، من فضلك.

---

(1) أغنية «توس بيسوس سون» (قبلاتكَ) للمغني التشيلي تشيكو تروخيليو.

10

من حين إلى آخر كانت صورة كارن تجتاحني في الحلم بكلّ شراسة. كنت أُرجعُ سبب الارتباك الذي أشعر به في حضورها لِشبابها ولِجمالها فقط. لم أكن أريد، أو لم يكن في وسعي تحمّل فكرة وجود شيء آخر يتجاوز ذلك. شيء كالرغبة، كالشهوة الجسدية. قد يرجع ذلك لكوني لم أكن متيقنة من إحساسي سابقاً بشيء مماثل، أو لأنني لربّما حتى لو أحسستُ بذلك، ما كنت لِأُقرَّ به، ما دمتُ مدرّبةً على حبّ الرجال، كما كنت دائماً. الآن كذلك، لست أدري ما إذا كانت كارن، تلك الفتاة السوداء، ذات الشعر الطويل وأنف امرأة بيضاء، تلك الفتاة المذهلة، الطبيعية إلى درجة تقترب من العدوانية في عالم لم تعُد حتى الأزهار تنمو فيه على الثرى، هي سبب ارتباكي حقيقة، وسبب ما يمكن وصفه برغبتي فيها. لستُ أدري هل يمكنني تفسير ذلك بكوني صرت أشيخ يوماً عن يوم، ففي نهاية المطاف، نحن نشيخ باستمرار، منذ اليوم الذي يُقذفُ بنا فيه إلى هذا العالم، لكننا نمضي زمناً طويلاً قبل أن نَعي هذه الحقيقة.

عند دخولي إلى بيت الجمال، أحسستُ أنّ رائحة موبوءة تنبعث من شعري فعزمتُ على طلب خدمة وضع الحنّاء.

- ضَعي لي لون بورغونيا، قلت لنوبيا.

شيئاً فشيئاً، صرتُ أتعوّد على الذكريات التي تجتاح ذهني فجأة، ذكريات واضحة، نَهِمَة، لا مبالية بقصتي الحديثة الوقوع، قصة الحنين الجارف. حنيني لأمي التي تزيّنني في حمام بيتنا في جزُر روساريو، ولِحبيبٍ يقبّلني في الشاطئ والقمر بدراً، ولِلجلوس في حجر أبي وأنا أشمُّ رائحة كْريم جون ماري فارينا على ذقنه الحليق حديثاً. حنيني لميلاد ألين، وَليومها الأول في المدرسة، وَلجسدي العاري بعد يوم حبٍّ ساخن، جسدي الذي لم يعُد كما كان، ذلك الجسد الذي كانَ هو أنَا، والذي لم يعُد كذلك، ذلك الجسد الذي تركني ضائعةً، يتيمةَ نفسي، رغم أنني سليمة، كما تقول لوسيا، والتي بمقدورها دوماً، وبشكلٍ تُحسَد عليه، أن ترى الجانب الإيجابي في الأشياء، رغم أنني لا يمكنني ادّعاء الصحة الجيّدة، إذ أشعر بنفسي مريضة أو غائبة على أقل تقدير، مُتجاوَزَة، متخلّى عنها، معوّضَة بأخرى لا أعرفها، ولا أريد أن أعرفها، في عالم شوقي المستمر لنفسي الغائبة. أين ذهبتِ؟ أتساءل مع نفسي محاولة أن أفهَم، غير أنّ أفكار تلك التي تعاني، تلك التي تسمح بأن يهزّها الشوق، بالكاد تسمح لي أن أسمع جريان ماء الصنبور، فأُسْلِمُ نفسي لِيَدَي نوبيا وهي تتكفّل برأسي.

أتجاوز بوابة بيت الجمال، فيستقبلني ذلك الصمت السابح في مزيج عطور باهظة الثمن، وماء ورد وَزيوت وَشامبو. أودّ البقاء هنا، أقول مع نفسي، وأنا أختلق أي مبرّر لإجراء تدليك جديد، أو إزالة الشعر، رغم أنّ الزغب لم ينمُ بما يكفي، أو صباغة أخرى لشعري، نعم، صباغة أخرى، لكي أضع نفسي بين ذراعي نوبيا، والتي تضع لي الشامبو بكياسة، بل بحنانٍ تقريباً، حيث تُمسِّد فروة رأسي

بلطف، بينما أستحضرُ ذكرى أمّي وهي تغسل لي شعري بشامبو البابونج، وتدندنُ لحن أغنية فرنسية.

- لقد صرتِ واحدة من أفضل زبوناتنا، قالت آني.

بِتُّ أجدُ فمَها الكرزي اللون أكثر ترفاً وإغراءً. اِبتسمَتْ. تضعُ رموشاً صناعية، قلت في نفسي، وكل ما كنت أجده فيها سوقياً من قبلُ، صرت أراه الآن مسلّياً، مستفزّاً. بادلتُها الابتسامة. لا طاقة لي بالابتعاد بعد اليوم عن أرض نساءِ الألقِ الرفيعِ هاته. أودّ البقاء هنا إلى الأبد.

- هل ترغبين حضرتكِ في التعرّف على جواز سفرنا؟ قالت بصوت خفيض وهي تحرِّك يديها الجميلتين برقة.

- جواز سفر؟ سألتها.

- نقدّمه لزبوناتنا الوفيّات. يتضمّن خدمات البشرة، الجسد، الشعر، عمليات التنظيف، التشبيب، الاسترخاء والترطيب، من بين خدمات أخرى. وبالنظر إلى أنّ حضرتك تأتين ما بين مرة وثلاث مرات في الأسبوع، فستستفيدين منه كثيراً، لأن بيت الجمال هو بيت الأسرة، بهذا يجب أن تشعري حضرتك، كما لو أنك في بيتك. هل يهمّ حضرتك الاستفادة من العرض؟

11

كان قد مرّ على دفن ابنتها ثلاثة أسابيع حين استيقظت ليلة وهي تتفصّدُ عرقاً بارداً. رأت في حلمها أنّ صابرينا تبكي من دون توقّف، بجسد مليء بالجروح والكدمات.

بعد أن استرجَعَت إيقاع تنفسها المعتاد، هاتفت كونسويلو باريديس طليقها. لم تكترث لكون الساعة كانت تشير إلى الثالثة صباحاً. في الجهة الأخرى، رنّ هاتف خورخي غوثمان طويلاً من دون ردّ، إلى أن دخل إلى العلبة الصوتية. منذ موت ابنته، لم يعُد الرجل يهتم بشيء إطلاقاً. أبدت زوجته الثانية، التي له معها طفلة في الخامسة من العمر، تفهُّمها لما يقرب من الشهر، لكنها الآن أصبحت غاضبة جدّاً؛ فمنذ موت صابرينا، أهمَلَ زوجها المقاولة، وأضحى بالكاد يوجّه لها الخطاب، وكذا لابنته.

عندما بدأ الهاتف يرنّ في المرّة الثانية، استيقظت هي أولاً، بينما كان خورخي يملأ الغرفة شخيراً، نائماً بثيابه وحذائه. لقد سبقته إلى النوم، فلم تشعر بقدومه في حوالي منتصف الليل.

- عزيزي، هاتفك. قالت وهي تدفعه ليستفيق.

حين يئست، أغلقت له أنفه بأصبعيها، السبّابة والإبهام. بسرعة فتح خورخي عينيه، ثم اعتدل في السرير. قربت له زوجته الهاتف.

- خورخي، هذا أنت؟ قالت كونسويلو.
- ماذا جرى؟ كم الساعة؟ قال مستفسراً.
في الجهة الأخرى، عادت كونسويلو للبكاء.
- يتعلق الأمر بصابرينا، لقد رأيتها في الحلم، كانت طفلتنا تبكي، وقد تعرّضت للضرب، خورخي، كانت تبكي.
- حلم؟ ألا ترين أنها ميّتة؟ قال خورخي بصوت أهل القبور.
- عِدني بشيء، شيء واحد، ردَّت كونسويلو وهي تنتحب.
- ماذا تريدين؟
- أريدك أن تذهب معي غداً إلى النيابة العامة. هل اقتنعتَ حقّاً أنّ بِوسع ابنتنا أن تفكر في الانتحار؟ فإذا هم لم يجروا تشريحاً حتّى، كيف أمكنهم أن يتيقنوا من انتحارها... أين ذهبوا بها تلك الليلة؟ أين كانت موجودة؟ أريد أن أعرف الحقيقة.
- ماذا كانت تقول لك صابرينا؟ سألها خورخي.
- متى؟
- في الحلم، كونسويلو، أين تودّين أن يكون؟!
- كانت تقول: «لم أكن أرغب في الموت، ماما، لم أكن أريد، سامحيني لأنني غادرت، سامحيني...».
- هل تحدثتِ أخيراً مع عاملة التجميل؟
- نعم، لم تقُل لي شيئاً مهمّاً، لكن يبدو أنها تعرف أكثر ممّا أفصحَت عنه. في النهاية، سألتني لماذا لم نُجرِ تشريحاً.
بعد أن صمت خورخي طويلاً، نطق في النهاية:
- انتظريني عند الساعة الثامنة صباحاً.

12

في الحياة، نتعلّم الكثير من الكتب، لكن، إذا كانت تجاربنا قليلة واحتكاكنا بالوقائع الملموسة منعدماً أو غير ذي بال، فإننا نكون عرضة لمفاجآت غير سارة تأتينا من دون سابق إشعار، أو أننا نستشعر حدوثها ونتغافل عنه مع ذلك. الآن صرتُ على يقين بأن كارن لم تعُد هي نفسها بعد تلك الليلة التي علّبَتْ فيها حياتها داخل حقيبة، واستقلّت سيّارة أجرةٍ حملتها من سانتا ماريا إلى سان ماتيو.

دقيقتين أو أقل، كانتا كافيتين لتغيير كلّ شيء. لقد تخيّلتُ كل ذلك. في موعدنا الثاني بعد حفل زواج بنت الوزير، بدت لي غائبة، شاردة الذهن، وضعت لي الزيت مرّتين وبعد ذلك طفقت تفتح باب المقصورة وتغلقها، وتأخذ سماعة الهاتف الداخلي لتجري اتصالاً، ثم تعود وتضعها. خلتُ للحظةٍ أنها تتعمَّد فعل ذلك، لتجعلني أضحك، كما لو تعلق الأمر بوصلة فكاهية على نمط شارلي شابلن. لكنني انتبهتُ في الحال لهالتيها السوداوين العميقتين حول عينيها، لِنظرتها المُبهمة، لِنحافتها.

- هل تأكلين بما يكفي؟ سألتها.

- شيئاً ما، قالت.

في تلك اللحظة، ارتسمت على محيّاها ابتسامة جامدة، ابتسامة

مهرّجٍ لا تتناسب مع تعابير وجهها إطلاقاً، ولا مع ما كان يبدو أنها تفكر به.

- وهل تنامين بما يكفي؟

- ما أهمية ذلك، دونيا كلير؟ أجابتني.

أحسستُ أنّ أعصابها توترت. بعدئذٍ لاحظتُ أنها تضع مكياجاً بارزاً أكثر من المعتاد. كانت شفتاها هذه المرة بلون الكرز، مثل شفتي فتاة الاستقبال. وضعَتْ قلم عيونٍ أكثر سواداً، وأحمر خدودٍ وماسكارا.

- تقع لي أمور غريبة مؤخراً، قالت.

لمحتُ عندئذٍ جرحاً في ذراعها، كتلك الجروح التي يُحدِثُها بعض المرضى في أجسادهم بعد تعرّضهم لوقائع صادمة.

- ماذا وقع، كارن؟

- اِنْسَيْ الأمر... ما الذي تنتظره امرأة في عمري تعيش بمفردها غير البحث عن المشاكل؟

- عن أيّ شيء تتحدثين يا امرأة؟

- عن حادثة وقعت لي مع مالك المنزل حيث كنت أعيش، لقد أرغمني ذلك الرجل، لكن ما كان عليّ أنا كذلك أن أرتدي ملابس ضيقة جدّاً، قالت ذلك وبعدها صمتت. ثم أنه لا ينبغي للواحدة منّا أن تعيش لوحدها، كأيّ امرأة رخيصة، أضافت في ما يشبه استظهار درسٍ لُقِّنتهُ.

- لستُ أدري ما حدث، كارن، وفي كلّ الأحوال، لا يمكنك إلقاء اللوم على نفسكِ، قلت لها.

- أحسّ بانسداد في حنجرتي، دونيا كلير. ينتابني خفقان

شديد، وأحياناً، أشعر وكأنني أفقد السيطرة على كلّ شيء، وأحياناً أخرى، كما لو أن أحداً يمنع عنّي الهواء. . .

- يمكنني أن أصف لك مسكّناً. لكن، أخبريني، هل وقع أمر خطير؟

- لستُ في حاجة إلى معالِجة نفسية، قالت كارن.

- ولا إلى صديقة؟

- حضرتُك وأنا لسنا صديقتين، قالت. ما كان عليّ أن أتحدّث هكذا. هل أعدّ لحضرتك الحساب؟

أمسكتُ بيدها فلاحظتُ اجتفاف بشرتها، ثم ركزتُ نظري على كفّها أتفحّصهُ.

- هل ستجرين لي الآن فحصاً، لتري حضرتك ما إذا كنتُ نظيفة، كما فعلَت دونيا خوسيفينا؟ قالت ذلك وهي تُبعد يدها.

- ليس كذلك، يداك جافتان جدّاً.

- أضطرُّ لغسلهما باستمرار، والأوساخ تأبى أن تزول.

- أنتِ في حاجة إلى المساعدة.

- مع كامل احترامي، دونيا كلير، كلّ ما أحتاج إليه هو استقدامي لإميليانو من كارتاخينا ومواصلة حياتي.

- هذا يبدو لي أمراً جيّداً، وأرى أنكِ محقَّة في ما تقولينه، قلتُ.

- حضرتك تقولين هذا لأنك لا تعرفين ما الذي يجري.

- لا أعرفه لأنك لم تحدثيني به، لكنني أثقُ بك. أعتقد أنك امرأة جيّدة وبوسعك أن تختاري دائماً ما هو صائب.

- تحدثينني حضرتك كما لو كنتُ متخلّفة، قالت كارن بنوع من

الصفاقة. أن تكوني حضرتك دكتورة لا يُقابلهُ بالضرورة أن أكون أنا غبيّة.

استغربتُ لتلك العدوانية البعيدة عن طبعها. بدا الأمر وكأنّ شيئاً أو شخصاً ما حجب كارن الحقيقية ووضع مكانها شخصاً آخر مختلفاً.

- لا شيء سيبقى على حاله بعد اليوم، قالت، ثم أجهشَت بالبكاء، قبل أن تتمالك نفسها. لو أمكنني فقط أن أغمض عيني، أضافت.

- يمكنني أن أصف لك مخدّراً لتتمكني من النوم.

لم تُجِبْ كارن، لكنها ظلَّت تنظر إليّ، كما لو كانت تنتظر ردّة فعلي الموالية. بحثتُ في حقيبتي وناولتُها علبة زولبيديم التي تركَتها لي مندوبة مبيعات إحدى شركات الدواء.

- هذا عقار منوّم، تناولي منه حبّة كلّ ليلة.

وضعَته كارن في جيب صدريتها ثم خرجت لتأتيني بالحساب.

عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي، وأنا في الاستقبالات أؤدي الحساب، دنَتْ منّي وقالت لي:

- تلك الصور لا تفارق خيالي في كلّ وقت وحين... هل سيخلّصني منها هذا الدواء؟

- أرى أنكِ في حاجة إلى علاج.

- لا وقتَ لديّ ولا مال.

- يمكنني مساعدتك، قلت في إلحاح.

- أريد فقط أن أُبعد شريط الرعب ذاك عن مخيّلتي.

- ما الذي جرى؟ عمَّ يحكي الشريط؟

سكتت كارن. عادت نظرتها المبهمة للسفر بعيداً.

- بعون الله ربمّا، قالت، ثم صمتت.

- أنت تعرفين أن بإمكانك الاعتماد عليّ، قلتُ، ثم أديتُ الحساب وانصرفت.

بعد أسابيع، بدأت خيوط اللغز تنكشف تباعاً. تؤكد الدراسات أنّ من عادة النساء ضحايا الاغتصاب أن يُطوّرن حساسية مفرطة حيال أي منبّهٍ يذكّرهن بما وقع، فيسلكنَ نهجاً هروبياً، إما باتخاذ موقفٍ دفاعي، أو بإظهار نوع من التبلّد في الأحاسيس، وتجدهنّ مخدَّراتٍ عاطفياً، من دون تطلّعات، وفي كثير من الأحيان، بأفكارٍ انتحارية. وبالنسبة إلى كارن، كانت فكرة عودتها إلى البيت بمفردها تُرعبها، ممّا جعلها تفضّل أن تجد رفقةً لِلياليها، وأن تقضيها في الشارع، أو بين ذراعي أيّ كان، على أن تواجهها لوحدها.

13

لم يقتصر الأمر على رائحة الكحول القوية التي كانت تفوح من لويس أرماندو، بل تعدّاهُ إلى الغرفة المعتمة، والكوكايين المُنتشرة على الطاولة، وذلك الفواقُ المزعج الصادر عن حنجرته كلّ ثلاث ثوانٍ، كما لو كان يبتلع ضفدعاً، والعصبيّة الكبيرة التي يحرِّك بها رأسه، ثم تلك الوتيرة التي يمرّر بها لسانه على شفتيه بين الفينة والأخرى، والصوت الحاد الذي يُصدره عند المضغ، وطريقته الرعناء في حكّ أنفه إلى أن احمَرَّ وصار دامياً، دون أن يتوقّف عن الابتسام.

استقبلها بقبلة عنيفة أدمَتْ فمَها. أرادت صابرينا أن تنبّههُ إلى ذلك، ودّت أن تقول له أنه تسبّب لها في ضرر، وأن ذلك لا يعجبها، لكنها تذكّرت في تلك اللحظة أمها وهي تنبّهها: «إذا لم يكُن لك شيء جيد لقولِه، فمن الأفضل لك أن تخرسي»، كان ذلك ما جعلها تفضل أن تلوذ بالصمت، وأن تتركه يتمادى في فعل أشياء كثيرة: أن يسقيها كأس ويسكي ويجبرها على شربه، أن يمدّد سطراً من الكوكايين ويمرّرهُ لها على لثّتِها، واضعاً أصابعه في فمها بكلّ رعونة، أن ينزع بلوزتها البيضاء المدرسية، أن يعبث بحقيبة الظهر التي حملتها معها، ويبحث بين محتوياتها عن شيء يعلم هو وحدهُ ماهيته، ثم ينثر أغراضها وسط الغرفة.

أدركت صابرنا حينئذٍ أنّ مجيئها إلى هناك كان خطأ، لكن وقت التفكير كان قد انصرم. شُلَّ دماغها ودبَّ الخمول في أوصالها بفعل المخدر والكحول. كانت تحسّ بالوهن، وانتابها خوف شديد، لكن تعوُّدها على الطاعة وَإرضاء الآخرين وَعدم معاكسة أيٍّ كان مَنَعَها من التصّرف. أو لعله الخوف، أو الألم، أو الحزن، أو شيء آخر ربما، هو ما شلّ حركتها وجعلها جامدة تماماً، كتمثالٍ في العتمة، إلّا من قلبها، الذي كان على وشك الانفجار. كان ذلك الرجل الواقف أمامها فارسَ أحلامها، هكذا قالت في نفسها، لقد شكّلتْ صورَتَهُ على هواها، بناءً على لقائين أو ثلاثة، وبضعة مكالمات هاتفية. كان ابناً لأحد نواب الأمّة، وقد صرّحَ لها بحبّه، فكيف تخرج هاربة كطفلة صغيرة، لمجرد أنه أدمَى شفتَيها، أو أن هناك قليلاً من الكوكايين على الطاولة؟ لقد كانت ساذجة، كانت تنتظر مشهداً أكثر رومانسية، أن تكون هناك موسيقى في الخلفية، مع زجاجة شامبانيا وبعض البالونات الملوّنة أو الورود، أو هما معاً، فوق السرير وفي أرجاء الغرفة، التي تصوّرتها تعبق بأيّ رائحة عدا رائحة السكارى، لكن أمّها سبق أن نبّهتها بأنّ «الزواج التزام وتضحية» وكانت تردّد على مسامعها أنه ليس أمراً سهلاً أو بسيطاً، ولا الحبّ بالأمر البسيط كذلك، أَمْ مَا الذي كانت تعتقدُه هي؟ أنّ الأمر شبيه بقصص والتْ ديزني؟ أنّ كل شيء عبارة عن ورود وقلوب صغيرة؟ كلّا، فعدم مداعبته لوجهها كما كان يفعل في مرّات سابقة، أو كونه مخموراً بعض الشيء، ليسا سبباً كافياً يجعلها تركض هاربة كطفلة، هي التي لم تَعُدْ كذلك، ولن تبقى كذلك بعد ذلك اليوم.

14

أظهر تشريح جثة صابرينا غوثمان باريديس وجود مستويات مرتفعة جدّاً من الكوكايين، وكان من شأن ذلك أن يرجّح فرضية الموت جرّاء جرعة مفرطة، ولوحظت حالات نزف صغيرة في ملتحمة العين، والمُصطلح عليها طبيّاً بالحبرة، كما تمّت معاينة كدمات واضحة في عضلات العنق وشيء من الحبرة في الصدر كذلك، وهي علامات تتكرر في حالة الموت اختناقاً بحسب رأي الخبراء، إلّا أنه لم يكن ممكناً الاعتماد عليها كحجج، نظراً إلى درجة التعفّن التي كانت عليها الجثة.

من جهته، خلُص تقرير الخبرة المتعلق بالمواد السامة أن الكوكايين وُجدت في جثة صابرينا غوثمان باريديس بنسبة 2 من أجزاء المليون، وكذا مادة البنزويليكغونين، وشرح التقرير أن هذه الجرعات تُعَدُّ قوية جداً، لأنه، في حالة جسم شخص متعوّد على استهلاك هذا المخدّر، تتركز نسبة تلك المادة فيه بين 0,1 و 0,5 من أجزاء المليون، وإذا تجاوزت مستوى 1 من أجزاء المليون، قد تحدُث له اختلاجات، من بين أعراض أخرى.

ومع أن التقرير حدّد توقُّف التنفس الناتج عن تسممٍ بالكوكايين

كسبب محتمَل للوفاة، فإنّ احتمال أن يكون السبب راجعاً إلى العنف الجسدي يبقى وارداً.

بيد أنه نظراً إلى مرور أكثر من عشرة أيام على الوفاة، وكون الجثة مستخرجة من القبر، فإنه لم يعُد من الممكن تحديد أسباب تلك الكدمات والحبرة الموجودة في الجثة، وبالتالي، معرفة ما إذا تعلّق الأمر باغتصاب أو بعلاقة رضائية، ولا تحديد هل كان هناك عنف جسدي أم أن حادثةً ما كانت وراء تلك الكدمات الموجودة.

من جهة أخرى، أكد التقرير وجود بقايا مني في الجثة.

في الأخير، استبعد تقرير الطب الشرعي أن تكون صابرينا غوثمان باريديس شخصاً متعوّداً على استهلاك الكوكايين، إذ لم يتمَّ العثور على مؤشرات تدلّ على ذلك، كما أنه لم توجد في الجسد بقايا مادة الأميتريبليتين التي تؤكد استعمال التريبتانول كمسبّبٍ للوفاة.

من جهة أخرى، ونظراً إلى الحالة التي كانت عليها الجثة، لم يكن ممكناً التأكّد من وجود تسحّجات عصبية على البشرة.

في النهاية، خلُص تقرير اختصاصي علم الأمراض إلى أنّ السبب النهائي للوفاة ستَحسم فيه السلطات المتخصصة بعد أن تتوضّح لديها عناصر الحكم المتبقّية على ذمة التحقيق، وأحيل ملف القضية على النيابة العامة بتاريخ الثالث من شهر أغسطس.

15

تُعدُّ كنيسة القدّيس سان أغوستين من بين آثار القرن السابع عشر القليلة المتبقيّة في العاصمة. فضَّلتُ النزول على بعد بضعة أزقة منها، نظراً إلى وجود سرب كبير من السيّارات الرباعية الدفع والحرّاس الشخصيين ورجال الشرطة. لَعَلّي كنت الوحيدة، من بين السبعمئة نفر المدعوّين، التي قَدِمت في سيارة أجرة.

فكّرتُ في الانسحاب، لكن الأوان كان قد فات. جَذبتني الأناشيد الغريغورية القادمة من الكنيسة. أسرعتُ الخطو وغضضتُ الطرف لمّا لمحتْ عيني أحد المهمّشين برِجلٍ مليئة بالبثور، ووَرَمٍ مُقرّحٍ بالبطن. لم أستطِعْ في المقابل تفادي النظر إلى الرجل الثاني. كان رجلاً مسنّا مدَّ إلي يدهُ، بعينين دامعتين ورائحة بولٍ تزكم الأنوف. أقِرُّ أنني حاولت في تلك اللحظة تذكُّر آخر مرةٍ زرتُ فيها مركز المدينة، لكن من دون جدوى.

لم يُخبروا في بطاقة الدعوة أنّ حفل الزفاف سيتمّ إجراؤه وفقَ طقس ديني يرجع أصلُهُ إلى المجمّع المسكوني لمدينة ترنت الإيطالية، حين كانت اللاتينية هي لغة القدّاس الإلهي الرسمية. أخذتُ لي مكاناً كيفما اتّفق وفي آخر لحظة، لأتمكن من رؤية العروس تُمسك بذراع السيد الوزير، بفستان زفافها الخرافي،

المصنوع من قماش أبيض رفيع مرصّع بالأحجار الكريمة، وذيله المجرور فوق البساط الأحمر الطويل، الممتد من الشارع المظُلم إلى غاية المذبح المقدّس. كلّ شيء كان يبدو غريباً، ومع ذلك، ما كان لأحد ألّا يتأثر بأريج الياسمين والسوسن والأقحوان، ورونق أزهار السحلب، تحت ضوء آلاف الشموع البيضاء، بينما انطلقت معزوفة سويت رقم 2 للموسيقار هاندل.

لأجل إجراء القداس باللغة اللاتينية، حيث يقف القسّ مستقبِلاً المذبح، مستدبراً جموع المؤمنين، توجّب عليهم طلب ترخيص من المجمّع الأسقفي لكولومبيا. سأعرف ذلك في اليوم الموالي، عندما كنت أتصفّح الجريدة فوجدت صور الزفاف، مع تقرير إخباري مفصَّل جدّاً حول ما وَقع خلال السهرة. بَيدَ أنني لم أكُن في حاجة إلى انتظار قراءة الجريدة لأعلمَ أن فكرة إحياء حفلٍ كهذا مدّتُهُ ساعتان، يرأسهُ قسٌّ يقف مستقبِلاً يسوع في مذبح الكنيسة، لا بدّ وأن يقفَ وراءها رجل قانون يصرِّحُ بإيمانه بالعذراء، ولا يدّخِر جهداً من أجل إلغاء الإجهاض، ويعارض المثلية الجنسية كما لو كانت هرطقة. سأقرأ في اليوم الموالي كذلك أن أدوات التزيين كلّها، وكؤوس القربان العائدة إلى القرن السابع عشر، أعارهم إياها الأسقف نفسه، كعربون تقديرٍ منه للعروسين.

أينما ولّيتُ وجهي كنت أرى وزيراً أو قاضياً أو نائباً برلمانياً، وَوسط زخم السلطة ذاك، صرت أبحث عن شخص أعرفه، لكنني لم أرَ أحداً.

توجّستُ من قراءة الكاردينال لرسالة خاصة من البابا إلى العروسين، وحينما شرَع في انتقاد الزواج المثلي أمام كلّ أطياف السلطة السياسية لبلدٍ يصرّح دستوره أنه لائكي، شعرتُ بالامتعاض.

سمعت القسّ يتحدث عن «حثالة اليهود» لحظات قبل انطلاق معزوفة قدّاس التتويج لِموزارت. لكن، ألم يكُن موزارت بروتستانتياً؟ تساءلت مع نفسي. أغمضتُ عينيّ واستنشقت أريج الياسمين. لم أعُد أرغب في البقاء هناك. كنت إذا أطرقتُ السمع أشعر بالتوتر، أمّا إذا تمكنتُ من تحييد المضمون، وركزتُ فقط على الاستمتاع بالمشهد، والإحساس بالموسيقى، وشذى الزهور، وجلال الكنيسة، وجمال الشموع، يغمرُني عندئذٍ هدوءٌ مشوبٌ بالمرح والخفّة.

كانت يداي تتعرّقان، ودقّات قلبي تتسارع، وشعرتُ بِوهنٍ شديد لم تنفعني في تبديده معزوفة «السلام عليك يا مريم» لِشوبرت، ولا ترنيمة «المجد لله في العلى».

لا بدّ أنّ الرب الذي لا أؤمن به كان لطيفاً معي، فَضِدّاً لكل تخوّفاتي، وصل القدّاس إلى نهايته دون أن يخلف أضراراً تُذكر. خرجَت العروس في موكب كبير، وسط زخمٍ وورودٍ تنثُرها فتيات من بين الصفوف الأولى. توجّبَ عليّ انتظار خروج أناس آخرين قبل أن يأتي دوري. بين الحشود، لمحَت عيناي وجهَ لوسيا إسترادا، كما لو أنّ غريقاً وجدَ جذع شجرة يسعفه في الخروج إلى الشط. فسحتُ لنفسي طريقاً وسط الزحام لألحق بها وأمسكتُ بذراعها عند باب الكنيسة:

- لوسيا!

- عزيزتي كلير! قالت وهي تستدير نحوي مبتسمةً، توقعتُ كلّ شيء إلّا أن أجدك هنا.

- أعرفُ، وأنا بدوري مستغربة.

- كان الأمر فظيعاً، أليس كذلك؟ قالت لوسيا.

- خلتُ لِلحظة أن روحي ستزهق، قلت لها.

- لقد نَجَونا في النهاية، قالتْ مازحة.

كان راميلي يوجد شيئاً ما إلى الأمام، مرفوقاً بأنيبال دياثغرانادوس وزوجته وأحد أبنائه. بحركة من يده، أشار إلى لوسيا بأن عليها أن تسرعَ الخطو.

- هل نأخذك معنا؟ سألتني لوسيا.

- لا أعرف، لستُ متحمّسة للذهاب إلى الحفل.

- إذاً نتركك في طريقنا، أنت من دون سيارة؟

- أجل، سيكون الأمر رائعاً، لا أريد أن أبقى قابعة هنا وسط الشارع في هذه الساعة. أأنتِ متأكدة من وجود مكان لي؟ سألتها عندما كان راميلي ودياثغرانادوس يصعدان إلى السيارة.

- هناك مكان شاغر، ألحّت في القول لوسيا.

- جيد إذاً.

قررتُ أن المنطق السليم يقتضي، بعدَ كلِّ ما تكبّدتُه من عناء، أن أمُرَّ على الأقل بردهة الاستقبال، فأحيّي أبَوي العروس في مراسم تقديم التهاني. في سيارة الدفع الرباعي الأولى، ركبَ كلّ من سائق دياثغرانادوس، وزوجة هذا الأخير وابنه، ولوسيا.

- لو سمحتِ، كلير، اصعدي إلى السيارة الأخرى. قالت صديقتي.

لم أستطِعْ تجنب إلقاء نظرة إلى داخل السيارة. كنت أودّ رؤية وجه ابن أحد السياسيين الأكثر إثارة للجدل، والأكثر قوة في البلد. ابتسمتُ، فبادلني الشاب بابتسامة مماثلة. خلافاً لأبيه، كانت تقاسيم وجهه رقيقة، ذقنه مربع الشكل ورجلاه طويلتين.

وددتُ التعرّف على اسمه، لكن سؤالهُ عن ذلك بَدَا لي سلوكاً متهوراً، في وقت كان الجميع ينتظرني لأجل الانطلاق. سارعتُ إلى ركوب السيارة الثانية، حيث كان إدواردو جالساً بجانب السائق. في المقاعد الخلفية، جلس بجانبي أنيبال دياثغرانادوس، والذي لم يسبق أن كان قريباً منّي بذلك الشكل. بدا لي وجهه مألوفاً، لِسابق رؤيتي له في النشرات الإخبارية، بَيدَ أنه لم يسبق لي أن شعرت بقُرب نَفَسه الثقيل، ولا بنظرته الشهوانيةِ إلى تقويرةِ صدرِ فستاني.

- راميلي، يا أخي، كن لطيفاً وخبِّرني مَن تكون نجمة الخريف الباذخة هذه.

استدار راميلي ليجدني جالسة بمحاذاة النافذة، أنظر إلى الشارع، بينما كان دياثغرانادوس يلتهمني بنظراته. خلتُ حينها أنني لمحت ابتسامة ساخرة في وجهه.

- سيدي النائب المحترم، أقدّم لحضرتك كلير دالفارد، المحلِّلة النفسية الشهيرة، خرّيجة جامعة السوربون.

- تبّاً، أهذا معقول؟ أنت دكتورة إذاً!

- كلير، هذا شرف كبير لي، قلت وأنا أمدّ يدي للسلام عليه، ولاحظتُ باستياء كيف أخذها بين يديه وقبّلها بتكلّف.

- لقد سمعت كثيراً عن حضرتك، بطبيعة الحال.

- كلّ ما حدثوكِ عنه بخصوصي افتراء، قال أنيبال، خبّريني، أيتها الجميلة، كم ثمن ساعةٍ معك؟

- إذا أردتَ حضرتك سأعطيك رقم هاتف عيادتي، لا بدّ أنني أحمل معي بطاقة زيارة.

- هيّا، أسمِعْنا أغنيةً من طرب البايِيناتو، كأننا في مأتم هنا،

قال للسائق وهو يضع بطاقتي في جيبه، قبل أن يضيف موجِّهاً الخطاب إليّ:

- بكلّ سرور، دكتورة.

أنْ أسامحك أنا؟ أنْ أسامحك؟
أحَسِبتِني من السُذّج الأغرار؟
انظري إلى وجهي، لِتَرَيْ أنّي رجلٌ
ولا يبالغ الرجل في التماس الأعذار[1]

- تعجب هذه الأغنية ابني لويزيتو كثيراً، قال دياثغرانادوس وهو يغني عالياً مع الكورال.

عند تقاطع شارعَي 100 و7، تخطّى رِجْلَيّ وهو يمدّد جسده لإخراج قنينة ويسكي فضية صغيرة، كانت مخبّأة تحت المقعد المجاور للسائق.

- خذ لكَ جرعة، أخي، قال لِراميلي، والذي لم يرفض الدعوة.

- دكتورة؟
- لا، شكراً، قلتُ. هل لي بسؤال؟
- بكلّ فرح، دكتورة. قال دياثغرانادوس.
- هل لحضرتكَ ابن يعمل في شركة بترول؟
- نعم، كيف عرفتِ حضرتك ذلك؟

---

(1) أغنية «إل سانتو كاتشون» لفرقة لوس إمباخادوريس باييناتوس (سفراء طرب الباييناتو).

- من ابنتي ألين، قلت كاذبة.

عدتُ للنظر عبر النافذة، وكنّا على وشك الوصول.

- قل لي يا رفيقي، هل سنذهب في النهاية إلى سينسيليخو يوم الاثنين؟ سأل أنيبال راميلي، كما لو أنه لم يولِ أهميّة لسؤالي.

- نعم، نعم، سأرافقك، ردّ راميلي.

- كما ترين حضرتك، فالأستاذ الذي أمامك، بالإضافة إلى علمه الغزير، صار بارعاً في التجارة كذلك.

- صحيح؟

- هيّا حَدِّثْ كلير عن مشاريعك في قطاع الصحة، قال أنيبال وهو يأخذ جرعة إضافية.

بدا وكأن راميلي شعر بالإحراج.

- نعم، لِنَقُل إننا ننشط أكثر في الساحل، فكما تعرفين، ليس لنا حضور كبير ببوغوتا.

- لكن، ما طبيعة عملكم في قطاع الصحة؟ سألتُه.

- حسناً، لدينا شراكة مع مستشفى سان بلاس.

- لا أدري كيف تجد الوقت لمباشرة كلّ هذه الأمور، قلتُ في محاوَلةٍ للابتعاد عن الموضوع.

- أنا بنفسي لا أصدق ذلك، قال بينما كان أنيبال يردّد مع الكورال إحدى أغاني خورخي أونياتي.

- يبدو أننا في هذه المرة أوشكنا حقّاً على الوصول. هل ستهنّئينني بعيد ميلادي؟ سألني دياثغرانادوس.

- اليوم؟

- بالطبع، اليوم 14 أغسطس. أنا من برج الأسد، رمز السلطة، لكنني، مع ذلك، إنسان شغوف، أضاف بنبرة أقل حدّة.

- لا أؤمن بهذه الأشياء، قلتُ.

فتحت حقيبة يدي، وبحثتُ عن علبة أحمر الخدود، لأنظر في مرآتها الصغيرة، وأعيد وضع أحمر الشفاه.

- أنت روعة هكذا، نطق أنيبال وقد بدأ حينها يُثير أعصابي.

صار الرجل يرُجّ القنينة وهي في فمه، كأنما يريد أن يُخرج منها آخر قطرات الويسكي، من دون جدوى. في تلك الأثناء، بدأ موكب السيارات الرباعية الدفع والحراس الشخصيين يعرقل حركة المرور. كنت أنتظر فرصة الانسحاب بفارغ الصبر. قد أنتهز الفرصة وأذهب صحبة لوسيا لاحتساء كأس قبل موعد الاستقبال، خمّنتُ بسذاجة، دون أن أقدّر جيّداً كم تبقّى من الوقت للوصول إلى القاعة.

- هل نشرب كأساً أخيرة؟ اقترح عليّ دياثغرانادوس، والكل على حساب هيأة كروث سالود (الصليب للصحة). أليس كذلك، راميلي؟ أضافَ مطلِقاً قهقهة مجلجلة.

- معقول؟ مَن كان يتصوّر أن تصبح الصحة تجارة مربحة؟ تساءلتُ ساخرة.

- آه يا دكتورة، من فضلك، لا تقولي لي إنك لم تكوني تعرفين، أجاب دياثغرانادوس.

ما أن توقفت السيارة الرباعية الدفع، حتّى قفزتُ منها إلى رصيف الشارع. على خلاف سابقاتها، كانت الليلة جميلة، سماؤها صافية وقمرها بدر. كان هناك بساط أزرق طويل، وعلى امتداده نُصِبتْ ستارة بيضاء على شكل نفق يمرُّ عبرَهُ المدعوّون، بعد أن يركنوا سياراتهم في المرأب، وحولها وقف مصوّرون كثر، وكانوا يلاحقون المدعوين الوافدين تباعاً بكاميراتهم. أما الشخصيات المهمة جدّاً، فخُصّصت لها منصة بإنارة احترافية، حيث كان يُطلب

منهم أخذ صورٍ خاصة، لأجل تضمينها في «ألبوم العروسين». حنيتُ رأسي وسرت بمحاذاة الستارة، محاوِلة عدم لفت الانتباه، ثم تقدّمتُ ما استطعتُ إلى الأمام، لكي أتفادى عدسات المصورين. كانت هناك مجموعة صغيرة تحيط بالوزير وزوجته.

- عزيزتي كلير، شكراً لمجيئك! قالت زوجة الوزير.

تعانقنا وسط أضواء المصورين ونظرات الحاضرين.

- كان كل شيء جميلاً.

- شكراً لك، طبعاً، الصبيّة متدينة جدّاً، كنّا نريد إرضاءها.

اقترب السيد الوزير لتحيتي.

- أنت إذاً كلير الشهيرة.

- الشهير حضرتك، معالي الوزير.

- حاولنا جاهدين إيجاد حيّز في أجندتنا لتحديد ذاك الموعد المنشود، لكننا لم نتوفق.

استغربتُ من استخدامه صيغة الجمع.

- هل ستأتيان معاً؟ سألتُ، فليس من عادتي إجراء حصص العلاج المتعلقة بالزوجين.

- لعلم حضرتك، سيّدتي، ما يُقلق راحة زوجتي يُقلق راحتي أنا كذلك، وإذا رغِبَت في استشارة معالجة نفسية، فليس لي إلّا أن أساندها بمرافقتها.

استدرتُ لألقي نظرة على رفيقتي السابقة في معهد الراهبات البنِدِكْتِيَات، فوجدتها تبتسم بنظرة مُبهمة. نظرتُ إلى الصليب الذهبي المرصّع بالجواهر، الذي كان معلّقاً بقلادة عنقها، ثم تنحيّت خطوتين جانباً، لأسمح لمن كانوا خلفي بأن يتقدّموا لإلقاء التحية. أردتُ أن أودّع لوسيا، لكنها اختفت وسط جموع الحاضرين. قفلت

راجعة واتجهتُ نحو مدخل النادي، حيث استقدموا لي سائقاً للعودة بي إلى البيت. وعندما كنت أهمّ بالخروج، التقيت بزوجة دياثغرانادوس.

- نعرف بعضنا، أليس كذلك؟

- بلى، أجابتني. ببيت الجمال. من عادتي الذهاب إلى هناك، وإذا لم تخنّي الذاكرة، فنحن زبونتان للفتاة نفسها.

- كارن؟ سألتها.

- بالتأكيد، ردّت عليّ قبل أن تستأذن وتلتحق بزوجها، الذي كان قريباً جدّاً منّا، على مسافة ثلاث خطوات.

16

تجاوز الوقت الساعة الثالثة صباحاً. كانت القاعة فارغة تقريباً، إلّا من بعض السكارى. كانت إحدى المضيفات تلعب بالميكروفون في منصة العرض، وفرقة خورخي سيليدون تجمع الآلات الموسيقية، بينما كان دياثغرانادوس يشرب ثمالة كؤوس الخمر المتبقية فوق الطاولة. لم تدخل كلير إلى فضاء الاستقبال حتى، وأما لوسيا، فلم يُعرفُ متى غادرَت ولا معَ منْ.

في تلك الليلة، شعر إدواردو بمرارة العزلة، ففي الوقت الذي بدأ هو يتقبّل أنّ لوسيا لم تعُد تحبه، بدا له أن كلّ من حولَه كانوا مع حبّ حياتهم، يرقصون سعداء. لم يرغب في العودة وحيداً إلى بيته، والاستمناء إلى أن يغلبه النوم، كما العادة. لذلك قرّر مهاتفة غلوريا، لكنها لم تردّ. كان عليه أن يقوم بالحجز مسبقاً، خصوصاً إذا تعلق الأمر بنهاية الأسبوع. تذكّر عندئذٍ أنها سبق وأعطته رقم الوكالة. بحث عن بطاقة الزيارة في حافظة بطاقاته، ثمّ أخذ سترة بدلته وخرج ينشدُ سيارته الرباعية.

قبل أن تخرج، ارتدت كارن ملابس داخلية سوداءَ ذات تخريم، وتنّورة ساتان زرقاء من دون أكمام، ثم انتعلت حذاء بكعبٍ عال.

وضعت أحمر شفاه بلون الكرز وكحّلت عينيها بالأسود الداكن. كانت سوزانا هي مَن انتقت لها الملابس وقدّمت لها توجيهات لموعدها الأول كفتاةِ «إسكُورت» مدفوعة الأجر، أو مُرافِقة للشخصيات المهمة. حدث كلّ شيء بشكلٍ غير متوقّع. أجابت سوزانا عن كلّ أسئلة كارن، واقترحت عليها أن تبدأ باختبار نفسها مع زبون أو زبونين، لتعرف ما سيكون عليه إحساسها. في مقابل ذلك، سيكون على كارن أن تقدّم لها عمولة عن كلّ موعد، فإن أعجبَها الأمر، ستقدّمها سوزانا رسميّاً إلى الوكالة، حتى يُضَمِّنُوها في الكاتالوج، وإذا سارت الأمور على ما يرام، يمكنهن الحصول على شبكة من الزبناء، والاستقلال بعد حين بعملهن. كانت أرقام المعاملات مغرية، وبالإضافة إلى ذلك، كان يكفي الاشتغال سنتين أو ثلاثة، مع التوفير، للتمكّن من شراء منزل، كما شرحت لها صديقتها. في النهاية، لن تخسر شيئاً إن هي جرّبت. اتصلت الوكالة بسوزانا لتُخبرها بوجود زبون يبحث عن غلوريا، ولأنها كانت مشغولة، بإمكانهم تعويضها بفتاة أخرى. كانت الفرصة مؤاتية، إذ مع زبونين أو ثلاثة على أقصى تقدير، يمكنها استرجاع المال الذي جمعته خلال ثمانية أشهر وضاع منها.

كانت بنايات نيو هوبْ تتميّز بكونِ عرضها أكبر من علوّها. لعلّ شكلها ذاك، وامتدادها على شكل هلال، فاسحة المجالَ في وسطِها لمرجٍ به أحجار صغيرة رمادية، يمرّ عبرها جدول ماء اصطناعي، شأنه في ذلك شأن العشب، وزرقة الزجاج، وخرير ماء الشلال الذي يصبّ في المرج المزوّر، المُحاكي لملعب غولف، لعلّ ذلك هو ما يثير ذهول كل المَارّين عبر جادّة سيركونبالار، عند رؤيتهم طريقة البناء الخارقة تلك، والتي تبدو وكأنها آتية من كوكب آخر، في

مشهد أخضر ترتفع وسطه بنايات القرميد الأحمر، اللون المميّز لمدينة بوغوتا. لقد أعجبت كارن بذلك المنظر الأخّاذ.

- ذكّريني باسم حضرتك؟ قال لها البوّاب.

- بوكاهونتاس.

- بوكاهونتاس، ثم ماذا؟

- بوكاهونتاس، لا غير.

وجّه لها البواب نظرة متوجّسة. كان بحوزتهِ جهاز اتصال لاسلكي ويرتدي لباساً موحّداً أزرق، ممّا ميّزه عن كلّ البوابين الذين رأتهم من قبل.

- آسف، سيدتي، لكن عليّ أن أرى بطاقة تعريف حضرتك، هكذا هي القوانين المنظِّمة. شعرت كارن بالخجل وبالغباء. بوكاهونتاس، ردّدت مع نفسها وهي تفتح محفظة بطاقاتها، وتمدّ له بطاقة تعريفها. نظر إليها البواب، فحص البطاقة ودوّن المعلومات في سجل، وكذا ساعة الوصول.

تبعت كارن التعليمات. خرجت إلى حديقة يابانية ينيرها ضوء أزرق خافت. نزعت حذاء الكعب العالي لتفادي إحداث أدنى ضجيج عند مرورها بالأرضية الخشبية التي تخترق الحديقة، فاصلة بين بُرج وآخر. عند المدخل وجدت ردهة استقبال فسيحة جدّاً، بأثاث ضخم وتماثيل من رخام. استقبلتها هذه المرة سيّدة بلباس موحّد أسود. طلبت منها من جديد بطاقة التعريف، وسجلت بدورها ساعة الدخول إلى البُرج، قبل أن تتواصل عبر شاشة رقمية لتطلب تهييء المصعد. كان غباء منها أن تقدِّم نفسها بلقب بوكاهونتاس الصبياني جدّاً، لذلك لم تتوقف عن لوم نفسها، لأنهم إذا لاحظوا أي شيء غير عادي، سيخبرون الوكالة.

عندما دخلت المصعد الأوسط، أحسَّت بنفسها وكأنها صرصور، فأغلقت عينيها. بعد لحظات عادت وفتحتهما لترى الحديقة اليابانية، وإلى الأسفل، منظر المدينة. كانت أعصابها متوترة وهي تحاول السيطرة على ذلك الارتجاف الذي أصاب يديها. توقف المصعد وفُتحت الأبواب، فالتقت في الجهة الأخرى بإدواردو. كان يرتدي برنوس حمام أبيض ويمشي حافي القدمين. تفاجأت على كلّ حال. من جهة، ساءها أنّ الأستاذ من طلّاب ذلك النوع من الخدمات، ومن جهة أخرى، اطمأنت للزبون، لأنها تصوّرت أنه لن يسيء معاملتها. حاولت أن تبتسم وهي تدخل الشقة، مجهِدة نفسها لتبدُوَ طبيعية.

- أتشربين كأساً؟ سألها وهو ينزع سترتها.

- نعم، قالت وهي تلاحظ أنه لم يتعرّف عليها.

سقاها راميلي شراباً عسلي اللون في كأس كبيرة، فشربته بجرعات طويلة.

كان ينظر إليها في مرحٍ.

- هل أنتِ جديدة في المهنة؟

- نعم، سيدي، قالت وهي تضع الكأس فارغة فوق المنضدة.

- لا داعي لمناداتي بالسيد. هل التقينا من قبل؟

- لا أظنّ، كذِبتْ كارن.

استقبلها في صالة ذات أثاث أبيض، فلم تتجرأ على الجلوس، مخافة أن توسخه. في كلّ الأحوال، لم يدعُها راميلي للجلوس. نعم، لقد طلب منها أن تستحم قبل الذهاب إلى السرير، ومدّها بقالب صابون مضاد للبكتيريا غير مستعمل. بعد ذلك دلّها على

برنوس وخُفّي حمّام للاستعمال الواحد صُنعا من قماش، لتستخدمهم بعد الاستحمام.

كان كلّ شيء أبيض في الغرفة. سرير الكينغ سايز يقابل مدخنة الرخام المُدمجة في الحائط. إلى الجهة الغربية، كان منظر بوغوتا البانورامي يلقي بأضوائه على الغرفة، عبر نوافذ زجاجية عملاقة تمتدّ من السقف إلى الأرضية.

بدأ مفعول كأس الكونياك يظهر على كارن. شعرت بدوار في رأسها وبتخدير خفيف يسري في أوصالها. كان هو البادئ بلمسها، لكن بعد ذلك جاء دورها. صحيح أنها في البدء شعرت بنوع من القرف. لكن، رغم كل شيء، كان زبونها لطيفاً معها، وفي أقل من ساعة من الزمن ستكون داخل سيارة أجرة أخرى، في طريق عودتها إلى شقة سوزانا.

- جمالك نادر، قال لها راميلي. أريد رؤيتكِ مرة أخرى، أضاف وهو يعدّ الأوراق المالية عند الباب.

- اتصِلْ بي، قالت كارن مستعمِلة ضمير الـ«أنت» وقد تبدّدت الكُلفة بينهما، قبل أن تتسلّم المال وتضعه في حقيبتها.

- إلى أين تقصدين، آنستي؟ سألها سائق سيارة الأجرة. كان يُدعى فلوريبيرتو كالبو، بحسب شارة تعريفه.

- إلى تقاطع الشارع 60 مع الزنقة 10، قالت كارن وهي تشعر بانفراجٍ لعدم اضطرارها لِأن تقول شارع سان ماتيو أو سواتشا أو سانتا لوسيا أو كورينتيو.

على أمواج الراديو، كانوا يقدمون نشرة أخبار «حذر بوغوتا»، من إذاعة لاكارينيوسا. كان صدى ذلك الصوت المألوف يتردّد في سيارة الشيفروليه سبارك:

«حذر بوغوتا! شيء لا يصدّق! لاعتقاده أنها تخونه، عامل بناء يقتل زوجته بعشرين طعنة في مقاطعة بوسا.

خارق، خارق! مخمور يضرم النار في عريف شرطة في حي كينيدي، بعد أن أمره بإغلاق ملعب للعبة تيخو.

شيء لا يصدّق! راقص رومبا يقتل بوّاب مرقص في حي كوادرا بيتشا لمنعه إيّاه من الدخول».

حاولت كارن أن تنام، غير أنّ الأمر كان مستحيلاً على إيقاع تلك الأخبار.

- عذراً، هل يمكننا سماع شيء آخر؟

- بالطبع، عزيزتي، ردّ فلوريبيرتو، ثم بحث عن نشرة أخبار أخرى.

يعجِبُ كارن صوت برنامج «حذر»، فعندما كانت تعيش في الساحل كانت تستمع إليه باستمرار، لكن لا رغبة لها الآن في سماع أخبار أناس يقتلون. كانت تشعر بصداع في رأسها.

«أغلب حالات وفيات الأطفال عند الوضع، والتي عرفتها المراكز الصحية في الساحل الأطلسي السنة الفارطة، تهمّ أُسَراً منخرطة في هيئة الوساطة في الخدمات الطبية كابريكوم. لقد تمّ تسجيل تجاوزات في أكثر من عشرين هيئة من مختلف مناطق البلاد، حيث يقوم الآن فريق بحثٍ تابعٌ للمفتشية العليا بإعداد تقرير سيتمّ الإعلان عنه منتصف الشهر المقبل. ويصل حجم الأموال المنهوبة في قطاع الصحة إلى ثلاثة ملايير بيزو. هذا وعاينت المفتشية شبهات في تدبير اقتطاعات الانخراط في الأنظمة الصحية المتعلقة بالفئات

الأكثر هشاشة في أكثر من مئة بلدية عبر تراب البلاد، حيث شهدت مدينة كارتاخينا لوحدها أزيد من عشرة حالات وفاة، ناهيك عن ما يقرب من ثلاثة آلاف ملف مرض مستنسخ...».

ظلّت كارن تستمع إلى الأخبار إلى أن غلبها النوم واستسلمت له، لذلك لم تسمَع ذِكر هيئة كروث سالود (الصليب للصحة)، ضمن لائحة هيئات الوساطة في الخدمات الصحية المشبوهة، والتي يجري التحقيق معها. في كلّ الأحوال، ما كانت لتربط بين ذلك الخبر وراميلي، خصوصاً وأنّ في حوزتها الآن ستمئة ألف بيزو، موضوعة بعناية في محفظة نقودها.

بعد أن غادرت منزل سانتا لوسيا، قضت كارن ليلة في حي سان ماتيو حيث تقطن ماريوري، مفترشة مَرْتَبَة صغيرة في ممرّ الشقة. لقد وصلت في منتصف الليل، بينما كان ويلْمر في الشغل والطفلة نائمة. كانت ماريوري متعبة للغاية، فلم تسهر معها لتحكي لها مصابها. كانوا يسكنون منطقة يكسوها الغبار، منطقة يمكن الحصول فيها على شقة مساحتها خمسة وأربعون متراً مربعاً، في مجموعة سكنية مستقلة بمسبحٍ وصالة مشتركة وحديقة أطفال، حيث النوافذ مسيّجة بالحديد، والأسوار محمية بزجاج القناني المكسورة. مرّ حينها على زواج ماريوري سنتان وكانت طفلتها ستطفئ شمعتها الأولى خلال أيام، ولقد دُعيت كارن لعيد ميلادها.

ناولت صديقتها مَرْتَبَة صغيرة، وتركتها وسط قاعة أكلٍ تضمّ ثلاجة كذلك. كان المطبخ عبارة عن طاولة بها موقد غاز ومغسل أطباق صغير جدّاً. تمدّدت كارن على أرضية تنبعث منها روائح فواكه عفنة. كان نومها متقطعاً ومتوتراً، وقد قامت للتقيؤ في مناسبتين.

سمعت ويلمر حين عودته فجراً من العمل. أحست به يقترب منها ويزيح الغطاء عن وجهها ليرى مَن كان هناك نائماً. أغمضت عينيها وأظهرت تنفساً طبيعيّاً. كانت كارن تحتفظ في مخيلتها بذقنه المربع الشكل، ومنكبيه الواسعين، وشعره الكثيف، وبشرته ذات اللون الزيتوني، وعينيه الكبيرتين، برموشهما الطويلة ونظرتهما المتوترة.

عندما قرّبَ وجهه من وجهها، استشعرت نفَسه، وكان مزيجاً من روائح سجائر وعرق ومطر وبنزين. رغبت في تقبيله لكنها لجمت نفسها، إذ كان يظنها نائمة.

بعد ساعة من ذلك، رنّ المنبّه. تبعتهُ خطوات ماريوري، وصراخها، ورائحة القهوة، فاحتجاجات الطفلة حينما كانت أمها تطعمها بيضة. شعرت كارن بأنّ كلّ شيء يقع فوق رأسها، وكانت رائحة الصباح تلك والأصوات العائلية هو ما طمأنها لِلَحظة، قبل أن تتذكّر ما وقع، فعاودها الإحساس بالحزن الشديد. ربتت ماريوري على رأسها بحنوّ، ثم قبّلتها في جبينها بعد أن وضعت الأواني في المغسل:

- أنتِ لا تزالينِ مرهقة، يبدو ذلك من وجهك، عودي للنوم قليلاً، سآخذ الطفلة إلى الروض ثم أذهب للعمل. سأطلب من ويلمر أن يقلّك إلى عملك.

17

أقلّها إلى غاية بيت الجمال، فقط لأنّ ماريوري طلبت منه ذلك. عبر النافذة، لم يسبق للمدينة أن بدت لها على تلك الدرجة من القبح. في المرأب كان هناك بضعة سيارات أجرة أخرى.

- ركبي رقم هاتفي وأجري معي مكالمة ضائعة، طلبَ ويلمر.

لبّت كارن طلبه. سحبت هاتفها الخلوي وركّبت الرقم الذي أملاهُ عليها. ثم سمعت هاتفه يرن.

- سجّلي الآن رقمي، وسأحتفظ أنا برقمك، قال بنبرة آمِرَة.

- لماذا تريد رقم هاتفي؟ سألته كارن.

- وما الذي تظنينه أنت؟ قال بصلافة، ثم نظر إليها من الأعلى إلى الأسفل دون أن ينبس بشفة.

في تلك اللحظة، كانت كارن تتمنّى لو يُهاتفها. عند الوصول، لاحظت أنّ العدّاد كان مشغّلاً:

- لا تنسي، ثمن الرحلة ستة وثلاثين ألف بيزو.

كان ذلك آخر كلام له.

نزلت كارن من السيارة وهي تفكّر أن عليها أن تطلب من أيّ كان استضافتها، لكي تغادر سان ماتيو في تلك الليلة. ما إن وصلت حتّى دخلت الحمّام وأغلقت الباب خلفها. أخذت ماكينة حلاقة

وأحدثت جرحاً صغيراً في عكبها. حاولت مرات عديدة مع إحدى قدميها، ثم مع القدم الأخرى. بعد ذلك تقيأت، رغم أنّ فطورها لم يتجاوز نصف أريبا، ثم ارتدَت لباس العمل الموحّد ودخلت المقصورة.

في ذلك اليوم، حوالي الساعة الثالثة رنّ الهاتف الداخلي. كانت سوزانا هي المتصلة، لتتأكد من أنّ كارن غير مشغولة: «هل يمكنني أن أصعد عندك ونأكل معاً؟ لعشرة دقائق فقط». وهكذا كان. جاءت ومعها حبّة جوافة وسندويتش مورتاديلا؛ قدّمت نصفه لكارن. أخرجت هذه الأخيرة من حقيبتها بعض البطاطس المقلية وارتجلت بمعية صديقتها أجواء نزهة غير منتظرة، هناك وسط المقصورة.

- أراك بمعنويات محطّمة، كارينسيتا.

- صرتُ بلا سكن، وأتساءل ما إذا كنت سأثقل عليك...

- هل تريدين قضاء بعض الأيام معي؟

- هل أنتِ متأكدة؟

- بالطبع أنا متأكدة، قالت سوزانا. لنجرّب ونرى كيف ستكون أمورنا. المحل صغير، غير أن موقعه جيّد جدّاً: إنه في الشمال.

بالنسبة إلى كارن، كانت تلك الكلمات تكفي: «إنه في الشمال»، فهي مفتاح ما كانت تنشدُهُ. ومع أن سوزانا كانت أحياناً تبدو بذيئة، سوقية شيئاً ما، وتتكلّم بنبرة قويّة، وترتدي ملابس ضيقة جدّاً، وكثيراً ما كانت تُطيل النظر في عينيها، وبشكلٍ بارد يُشعرها بالخوف أحياناً، فلم يكن لكارن خيارٌ أفضل من ذلك.

بعد انتهائهما من العمل، خرجت كارن وسوزانا معاً. استقلَّت صديقتها الجديدة سيارة أجرة، كما لو أنها تقوم بذلك يومياً. ظلَّت

كارن صامتة. منذ مدة وهي تلاحظ أن سوزانا تملك مالاً أكثر ممّا تكسبه في المحل.

كانت شقتها موجودة بمنطقة خاصة. صحيح أنها شقة صغيرة، وبأثاث قليل، لكنه عصري، ومن النوع الجيد. بمجرد وصولهما، أخرجت سوزانا زجاجة خمر أبيض من الثلاجة، وقدّمت كأساً لكارن، والتي استمرّت في ذهولها. بدا وجودها هناك وكأنه مشهد من أحد تلك المسلسلات التلفزيونية التي اعتادت مشاهدتها، فَالكرسيين الجلديين الأحمرين، ومُلصق أندي وارْهول، والستارات المرصعة بالأحجار، كلّ ذلك بدا لها مُتقناً وغريباً في آن.

بعد أربع ليالٍ من ذلك، قامت كارن بأوّل خدمة لها في نيو هوبْ، وَلاحقاً، من خلال المحادثات التي كنّا نجريها، اكتشفنا أنه في فجر ذلك اليوم، بينما كانت هي تأوي إلى فراشها بعد قضائها الليل مع راميلي، كنت أنا أتهيّأ للاستيقاظ في شقتي بشارع 93، على بعدِ بضع عشرات من الأزقة من هناك، في ذلك الصباح الجميل نفسه، الذي احمرَّ شفقُه.

من بين ما يسترعي انتباهي حقّاً ألّا أحد يلتفت لجمال ضوء المدينة الاستثنائي. أظن أنني لو كنت فنّانة، لاستيقظت في ساعات الفجر وحاولت التقاط منظر تلك الترّاكوتا البلّورية المتدلّية من الجبل. كنت سأكون سعيدة لو أنني صرت فنانة، أو ربما مصورة فوتوغرافية. سيكون مشروعاً رائعاً التقاط مئات الصور لشخصيات في أيام مختلفة، لكن في الساعة المحدّدة نفسها. لتكن مثلاً الساعة الرابعة وسبع وخمسين فجراً. ستلتقط العدسة عندئذٍ سيدة ناضجة، جالسة جنب السرير، بقميص نوم حريري طويل، ووجه شاحب متجعّد، والكأس الفضي فوق منضدة النوم بماء لم يزل بارداً،

وكِتاب إيما رييس، مع منظر المدينة في الخلفية كخيال الطيف. في صورة أخرى، ستظهر كارن في سيارة أجرة تعدّ الأوراق النقدية بمكياجٍ سائحٍ ونظرة متوترة.

وأنا أتوجه إلى المطبخ، أخذت معي الصحيفة. أعددتُ عصير برتقال بينما كان دَوْرَقُ القهوة يؤدّي مهمّته. عدت إلى السرير حاملة صينية تحوي خبزاً محمّصاً وعصيراً وقهوة. تمدّدت والصحيفة في يدي، فشعرتُ بصداع خفيف في رأسي، مع أنني لم أشرب أكثر من كأسَيْ ويسكي قبل ذهابي إلى الكنيسة. هي إذاً مسألة عمر، قلت في نفسي، ولِلعُمر أحكامه. أخذتُ جرعتين من العصير، ووضعتُ نظارتي. كنت أمسك بالصحيفة في يد، وبفنجان القهوة في اليد الأخرى، لأنني، ككثير من النساء في عمري، أتمتع بقدرات حركية جيّدة، ما دامت دُروس الرّقن والتطريز والكروشيه، من بين مهارات أخرى تعلّمتها في صغري، لم تذهب سدى.

قرأتُ بتمعن ملفاً خاصّاً عن النهب في قطاع الصحة. كِدت أن أدلق فنجان القهوة على ملابسي عندما وجدت اسم هيئة كروث سالود ضمن اللائحة، متبوعاً باسم راميلي، ممثلها الشرعي. لقد شرح التقرير أنّ هيئات الوساطة في خدمات الصحة تلك كانت تختلق مرضى وهميين، تستنسخهم، وتستخدم هويّات منخرطين موتى، باعتبارهم أحياء، وتصادق على ملفات أدوية لم يطلبها أحد، لكي تتلقى عن كلّ ذلك تعويضات من الدولة. تذكّرت حينئذٍ محادثتنا في حفل الزواج. كان قد بلغ إلى علمي أنّ دياثغرانادوس محتال كبير، فصورته تظهر في الصحف كلّ أسبوع تقريباً، وكذلك في نشرات الأخبار المسائية، لكن، وككلّ مرّة، لا شيء يحدث على الإطلاق، كما في هذه المرة، حيث لم يظهر اسمه في مقال الصحيفة. أما

راميلي، فما كان يثير أعصابي هو قضاء لوسيا ثلاثين سنة كاملة معه.

بانتقالي إلى صفحة أخبار المجتمع، شاهدت صور القدّاس، وكان التقرير الإخباري، المنتمي إلى نمط الكتابة الورديّة، من توقيع فتاةٍ أبدت انبهاراً كبيراً بما سمّته «عرساً على الطريقة التقليدية»، وَبعد أن مللتُ من قراءته، ألقيت نظرة على أعمدة الرأي. قلّما أتعرف على أسماء من يوقّعون المقالات. لست أدري هل لأنّ أغلبهم بات من الشباب، أو أن من أعرفهم صاروا يوماً عن يوم موضوعاً لصفحات نعي الوفيات، أم أنني بِتُّ منفصلة بشكل نهائي عن واقع البلاد. لربمّا يعود الأمر في جانب منه للأسباب الثلاثة مجتمعة.

لقد ذكّرني عدم الارتياح الذي شعرتُ به في حفل الزفاف بحفل بلوغي سن الخامسة عشرة. كان أبي مصرّاً على إجرائه بحسب التقاليد الكولومبية، لذلك اشترى لي فستاناً من حرير، وقدّم الشامبانيا ورقصنا الفالس. كان يتوجّب عليّ تسلّم باقات الورد التي يهديها لي هذا الشخص أو ذاك. اليوم، وأنا أسترجع تلك الذكرى، أظنّ أنّ ذلك الحفل تحديداً، شكّل المناسبة التي اتخذت فيها قراري لربّما بالخروج من البلد، والعيش في الخارج. «أشعر بالاختناق»، هذا ما أذكر أنني قلته لزوجة الوزير أوباندو. «لم أفهم قصدك»، ردّت علي. «ليس للأمر أهمية»، قلتُ لها، وَإذا لم تخنّي الذاكرة، كانت تلك المرة الأخيرة التي جرى بيننا ما يمكن نعتهُ بالحديث. اليوم، حين أتأمل ملياً في الأمر، يبدو لي جليّاً أننا في النهاية، رغم عيشنا في مدينة يقطنها ثمانية ملايين نسمة، نبقى على الحال نفسه، مستقرّين بالأماكن نفسها، كما لو كنّا نعيش في مدينة قروسطية.

أنا وتيريزا كبرنا معاً وكنّا صديقتين حميمتين، لكن ببلوغنا سن الرشد، تعاظمت اختلافاتنا فتفرّقت بنا السبل.

نظرتُ إلى الساعة قبل أن أغفوَ قليلاً، واستقرّ رأيي على الاتصال بلوسيا قبل الساعة التاسعة بقليل. مشيتُ حافية القدمين إلى حيث يوجد جهاز الموسيقى وشغلت أغنية لِإريك ساتيي.

- هل تنتظرينني؟ سأحمل معي بعض الشوكولاتة... ولن أنسى حقيبتي طبعاً، فلا يجدر بي أن أترك للقططِ فرصةً، لِيعملنَ لي عمَلاً أو يَسرقنَني، قالت سوزانا لِكارن عشية ذلك اليوم الذي كانت ستستضيفها فيه في منزلها لأول مرة.

خرجَت سوزانا مسرعة. نَسِيتْ أن تأخذ معها هاتفها الأيفون، وتركَت منضدة التدليك مليئة بفتات الطعام. انتبهت كارن للهاتف عندما سمعت صوت إشعار بوصول رسالة قصيرة. أمسكت الهاتف بيدها ونظرت إلى الشاشة. لم يكن في نيتها أن تقرأ الرسالة، لكن الفضول حملها على ذلك: «إذا رغِبتَ حضرتكَ في الجنس عليك بالأداء، وإلّا فلا تُزعجني من فضلك»، بعد ذلك ظهرت رسالة رجل يقول فيها: «لا تكوني حساسة جدّاً عزيزتي، سأؤدي المليون المتفق عليه».

في تلك اللحظة دخلت سوزانا فتركت كارن الهاتف حيث كان.

- تريدين شوكولاتة جيت؟ سألَت.

- نعم، وَما يعجبني أكثر هو بطاقة المعلومات المُرفقة بها، قالت كارن.

- معك حق، أنا كذلك آخذ واحدة كلّ يوم وأتطلع إلى ما تحمله من معلومات، قالت سوزانا.

- لننظر أي معلومات تحملها لك اليوم: آه، الخفاش، قالت سوزانا ضاحكةً، قبل أن تقف بشكل احتفالي استعداداً للقراءة.

- «الخفاش، واسمه العلمي بيبيستريلوس بيبيستريلوس، هو الحيوان الثديي الطائر الوحيد الموجود على كوكب الأرض، ومع ما يبدو أنها أجنحة بارزة له كالطيور، فهي في الواقع أصابع مطوّلة جدّاً يجمع بينها غشاء نسيجي يمتد إلى الذيل»، دعيني أرى يديك. آه، هذا صحيح. لديك يدي خفاش، أضافت سوزانا قبل أن تواصل القراءة، آسفة، كنت أودّ أن أقول أجنحة: «وخلافاً للمعتقدات الشعبية، فمعظم الخفافيش لا تتغذى على الدم. بعضها يتغذى على الفواكه، والحشرات، والرحيق، ونسبة قليلة جدّاً هي التي تقتات من مصّ دماء الحيوانات».

- سألقّبك الآن بسولينا، قالت سوزانا في الأخير.

- من هي سولينا؟

- سولينا، السكرتيرة الخجولة التي صارت مصاصة دماء تفتك بالرجال في دراكولا.

- تقصدين الفيلم؟

- نعم، يا سولينا.

- لم أشاهده، وفي الحقيقة، إذا كان لا بدّ أن تطلقي عليّ لقباً، أفضّل أن يكون بوكاهونتاس.

- بوكاهونتاس؟ لكن هذا اسم هندية حمراء، قالت سوزانا وهي تضحك.

- لكنني نصف هندية، أم أنك نسيتِ؟ أجابتها كارن وهي تقضم ما تبقى من الشوكولاتة.

18

انتهت من إجراء تدليك منحّفٍ لروساريو تروخيليو، ولم ينتَبْها فضول لسماعِها تتحدث بالإنجليزية، كما أنها لم تهتم لرؤيتها ترتدي معطف كارولينا هيريرا وتنظر إليها من الأسفل إلى الأعلى، بحاجبين مقطّبين وَتعبير عن القرف يعلو وجهها المشدود.

شكَرَتْها عن بقشيش الخمسة آلاف بيزو بابتسامة عريضة. لقد بدأت تتعلّم إخفاء مشاعرها، وصارت تدرك أنّ مَن يُتقن فن التمويه يكون أقرب إلى حسم المعركة في الأخير. كانت روساريو تروخيليو من تلك الطينة من النساء اللائي لا يمكن أن يقضين أكثر من خمس دقائق في مكانٍ مَا دون أن يُشعِرنَ الآخرين بتفوّقهن.

في واحدة من تلك الحصص التي جمعتنا نحن الثلاثة، كارن ولوسيا وأنا، لأجل إعداد فقرات الكتاب، تحدثَت كارن عن الانطباع الذي كانت تُخلّفهُ لديها روساريو.

خطرَ ببالي حينها أنّ ذلك يُهوّن عن كارن بشكل من الأشكال، فهي تدركُ أن روساريو تلعب دورها ذاك لِشعورها بعدم الاطمئنان وبالمرارة، وأنها امرأة غير سعيدة، وأنها، مثلها هي ومثل سائر أبطال هذه الحبكة، تؤدي دوراً محدّداً لا يمكنها الخروج عنه، كما في مسرحيات شكسبير، حيث لا تستطيع الشخصيات الإفلات من

قدرها، مهما أمكَنَها التنبؤ به، كمَن يعلم أنّ خطوة واحدة تفصله عن السقوط في الهاوية، ومع ذلك يخطوها.

بَيْدَ أنه بحسبِ لوسيا، كان في تصوُّري ميلٌ إلى إضفاء صبغةٍ مِثاليةٍ على دوافع كارن، وإلى إسمائِها وَوَسْمِها بميسم عجائبي، بُغيةَ تحويلها إلى بطلة. «إنّ كارن -قالت لي عندما انطلَقنا في مشروع الكتابة- هي بطلة القصّة بكلّ تأكيد، لكنها امرأة حقيقية، فَلا يتعلق الأمر بقصة خرافية ولا بملحمة». فبالنسبة إلى لوسيا، توقّفت كارن عن النظر إلى روساريو تروخيليو كتهديد منذُ أن أصبحت هي الأخرى تقضي الليل في الجهة الشمالية من المدينة، وتتدبّرُ أمرها من أجل أن يكون لها بدورها معطف كارولينا هيريرا، أو حقيبة برادا، شأنها في ذلك شأن زبونتها، ودون أن يكون اقتناؤهما من سابع المستحيلات.

وإذا التزمنا بأقصى درجات البراغماتية، فأكبر الفوارق بين السيدتين تتجلى في حقيبة اليد. حسناً، لنقُل في حقيبة اليد والمعطف والحذاء. . . في الأشياء، في نهاية التحليل. ولقد كانت كارن قويّة الملاحظة.

في تعاملهما المباشر ذلك، في ذلك المكان الخاص، حيث تتقاسم كلتاهما مقصورة مساحتها خمسة عشر متراً مربعاً، بباب مغلق وعبق الخزامى وموسيقى العهد الجديد، لم يكن جسد روساريو تروخيليو العاري ما يجعلها متفوقة، بل ثمن ما ترتديه من ملابس. هكذا كانت تفسِّر الأمر على الأقل.

هل كانت لَكنتُها تلك، لكنة سكان العاصمة المميزة، بذلك الصوت الحاد وذلك التنغيم الخاص الذي يستعملونه عند طلب خدمة، هو ما يجعلها الأفضل؟ هل لأنها كانت تتوفر على خادمة

خلافاً لكارن؟ هل كانت طريقتها في نطق «كيف الحال؟» بتلك القوة في نبر الحرفين الأخيرين، مع الرفع من الصوت؟ ليس ذلك مهماً، المهم أنّ «شيئاً ما» كان يمنحها أفضلية في معاملة كارن بعدوانية، أفضلية ودّت كارن أحياناً لو توفَّرَت لها، إذ بقدر ما كان يبدو أنّ من حق الزبونات إساءة معاملتها -بمبرر قضائهم يوماً سيئاً، أو لأنّ ذلك هو طبعهم، أو لأن ذلك عَنّ لهن والسلام- بقدر ما كان عليها أن تقدّم دائماً خدّها الآخر للصفع، أن تبتسم، أن تصبر، وإلّا، فلتبحث لها عن عملٍ آخر.

في ذلك المساء من شهر أغسطس، فكّرت كارن في المحادثة التي قرأتها في هاتف سوزانا. فكّرت في الاتصال بابنها إميليانو. فكّرت في المليون بيزو الذي تتحدث عنه تلك الدردشة، فما وفرته من مال خلال ثمانية أشهر وفقدته في ليلة واحدة، كانت سوزانا تكسبه في ليلة واحدة. أخذت هاتفها لتتصل بإميليانو قبل موعدها الموالي، المحدد في السادسة مساء. خلافاً لمكالمات سابقة، كانت أمها لطيفة معها هذه المرّة. أخبرتها أنها بصدد إجراء معاملات الحَجْر على الخال خوان، لإثبات تخلّفه العقلي وفقدانه الأهلية، حتى يصير معاشه تحت تصرّفها، وأن قرار المحكمة سيكون جاهزاً خلال أسبوعين. كان ذلك يعني لها الكثير. ستصبح أمها هي المتصرّفة في المال، ويصير خالها هو المتكفّل به، أي تابعاً لها، وليس العكس. لذلك بدت الأم سعيدة وهي تكلّمها. بعد ذلك مرَّرت السمّاعة لإميليانو، فحكى لها نكتة لم تفهمها كارن. كان يتحدث بسرعة كبيرة، ممّا جعله يتنفس بصعوبة، ولقد أعاد النكتة مرّتين.

- متى ستعودين ماما؟ قال في الأخير. منذ مدة طويلة لم

يخاطبها بكلمة ماما. حين سمعت تلك الكلمة، شعرت بنفسها بعيدة.

- قريباً، بنيّ، قريباً.

- على الساعة الثالثة؟

- كنت أودّ ذلك. سآتي يوم الاثنين.

- اليوم يوم اثنين، قال إميليانو. استغرَبَت كارن أن يعرف الطفل ذلك.

أخبرها إميليانو أنّ مستواه تحسَّن في كرة القدم وأنه لم يعُد يرغب في الدرّاجة الهوائية، بل يريد حذاء كرة قدم، من النوع الجيد.

- إذا استطعت، سأهديكهما معاً في عيد ميلاد المسيح، يا حياتي.

- سأنتظر وقتاً طويلاً. كم من سبونج بوب يفصلنا عن عيد الميلاد؟

- حلقات كثيرة، لكن الوقت يمرّ بسرعة.

- ما زال يفصلنا وقت طويل عن عيد الميلاد، كرّر إميليانو.

- صحيح، يفصلنا وقت طويل، لكنه كذلك وقت قصير جدّاً، قالت كارن متفادية التفكير في ذلك الحوار الذي يرهقها.

- وحذاء الكرة؟ عاد ليسألها.

- سأشتريه لك، حبيبي، أعدك.

في ذلك المساء، خرجت كارن وسوزانا معاً، كما لو كانتا صديقتين حميمتين، وبعد يومين على تلك المحادثة، نقلت كارن أغراضها إلى بيت سوزانا. في تلك الليلة نفسها، بينما كانت كلتاهما

تتهيّآن للنوم في السرير نفسه، تجرأت كارن على سؤالها عن تلك الدردشة التي قرأتها في هاتفها.

- منذ سنة وأنا أشتغل في مجال الدعارة الراقية، عزيزتي، قالت سوزانا وهي تطفئ الضوء.

- هل تمكّنتِ من توفير المال؟ سألت كارن، متفاجئة للسهولة التي صار عليها الحديث.

- أنا بصدد شراء هذا المنزل.

- وكم ثمنه؟

- ثلاثمئة وخمسون مليوناً، حُلْوتي، قالت لها سوزانا.

- هل لي بسؤالك كم تكسبين في الشهر الواحد؟

- في الشهر؟ بين ثمانية وعشرة ملايين.

صمتت كارن، إذ تفاجأت لِسرعتها في إجراء الحساب: ذلك يعادل ثمانية مرات ما تكسبه هي في الصالون. هو الأجر الشهري لموظفٍ سامٍ، قلت لها لاحقاً، عندما حكت لي القصة.

- وهل يتوجّب عليك القيام بأشياء فظيعة؟

- أحياناً، لكن كلّ شيء يفُوت في النهاية.

- لم أعرف سوى رجلٍ واحد في حياتي، قالت كارن.

ضحكت سوزانا.

- أنت تفكرين في الأمر، يا سولينا، قالت سوزانا. سولينا آكلة الرجال. لقد سبق أن قلتُ لك أنّ هذا الاسم يحمل نبوءة. لاحظي أن لا ذنْبَ لي في ذلك، فلوح الشوكولاتة هو الذي حدّد لك المسار.

- ليست لي صفات آكلة الرجال.

- ربما، لكنك خائفة، قالت سوزانا. أرى خوفك كما لو كان

لطخة سوداء تظهر في عينيك. أنت تحملين الخوف على كاهلك. يبدو في صرخاتك المفاجئة، المصاحبة لضحكتك المتوترة، أراهُ في عادتك في إزاحة الشعر عن وجهك. أَوَتَدْرين ما سبيلك للتخلص من كل هذا الخوف؟ هو أن ترتمي في أحضان ما يُشعركِ به، تماماً كمن يعودُ ويركبُ حصاناً جامحاً، بعد أن يكون قد ألقى به أرضاً قبل ثوانٍ.

صمتت كارن. خطر ببالها أن سوزانا محلّلة نفسية، إذ كانت تعرف عنها أكثر ممّا تعرفه هي عن نفسها. ومع أنها لم تفكر بهذا الشكل لحظتئذٍ، فلقد استرجعت اليومَ تلك الذكرى بوضوح لم يسبق له مثيل، عندما رأت روساريو تروخيليو تخرج من مقصورتها. بعد ذلك أمعنت النظر في ورقة الخمسة آلاف بيزو، فانتابها شعور شبيه بما يحدث لشخص بالغٍ، عندما يسترجع ذكرى شيء من طفولته، كمنزل الجدة مثلاً، الذي كان يتصوّره كبيراً جدّاً، لكن، عندما يعود لزيارته في كبره، يجد حجمه قد تقلّص، والأدهى من ذلك، يبدو الفضاء كله صغيراً ولا قيمة له. حسناً، هذا ما وقع لها الآن مع تلك الزبونة: منذ أن أصبح ما تكسبه من مالٍ إضافي يساعدها على تجاوز وقاحتِها، تقلصت قيمة تلك المرأة في نظرها بشكلٍ كبير.

19

أطلقَت صرخة مدوّية، وذرفت دمعتين، ثم عاينت كيف صارت ملاءات السرير تصطبغ باللون الأحمر القاني تدريجياً. لا شيء بعد اليوم سيبقى كما كان من قبل، فكّرت لحظتئذٍ. فجأة، أحسّت بصفعة لويس أرماندو تسخن خدها، قبل أن يعود ويسقيها الكونياك من الزجاجة، ويمرِّر من جديد الكوكايين بأصبعيه على لثتها.

شرعت عندئذٍ في النحيب. منذ مجيئها إلى هناك، لم يكن قد مرّ من الوقت أكثر من نصف ساعة.

عندما هاتَفها، تخيَّلتْ غرفة بورود بيضاء، وحمّام بِرَغوة، وكأس شامبانيا، وتصوّرت أنّ لويس أرماندو سيكون حنوناً ورقيقاً، وأنه «لن يُقْدِمَ على فعل شيء لا تريده» كما كان يردّد مراراً، خلال المكالمات العديدة التي كانا يتبادلانها.

في لحظة من اللحظات، ابتسم لويس أرماندو، وكغريقٍ تمكَّن أخيراً من رؤية اليابسة، ردّت عليه صابرينا بابتسامة مماثلة. لِلحظة، اعتقدت أن أسوء ما في الأمر قد مرّ، غير أن لويس أرماندو نهض من مكانه وأطلق قهقهة، كما لو أنّ لسان حاله يقول «ها قدْ ضحكتُ عليك مرة أخرى». فكرت صابرينا عندئذٍ في أمها، استحضرتها وهي

تنصحها قائلة: «إذا لم يكن لك شيء جيد تقولينه، فمن الأفضل لك أن تخرسي»، لكن تفكيرها لم يُسعِفها في إيجاد شيء جيد، سواء لتقولَهُ أو لتصمُتَ عنه، كما أنها لن تفكر بعد ذلك في أي شيء إطلاقاً، جيداً كان أو سيئاً، وإلى الأبد.

20

في ذلك المكان الذي ستصفه لاحقاً بِقاعة الانتظار، بأثاثها الخشبي الذي نخرهُ السوس، والذي يعود إلى ما قبل خمسين سنة، جلست كونسويلو باريديس منذ أكثر من ساعتين تنتظر استقبالها من طرف النائب العام المكلف بالقضية. بجانبها جلس سبعة أشخاص آخرين ينتظرون بملامح متجهّمة.

- متى قلتِ لي حضرتك أنه سيعود؟

- إنه في استراحة وقت الغذاء، تفضلي حضرتك بالجلوس، قالت السكرتيرة دون أن تتوقف عن برد أظافرها.

- لكنني أنتظر منذ أكثر من ساعتين.

- لا بدّ أن أمراً طارئاً اعترضه.

عاينت كونسويلو باريديس حركة دؤوبة لرجال المباحث الجنائية. رأتهم يدخلون ويخرجون، وسمعت أحدهم يسأل زميله بصوت مسموع: «أخبرني يا متعوس، هل أبدت الجثة تعاونها معك هذه المرّة؟»، وَبِحركة منه تدلّ على الانزعاج ردّ عليه الآخر قائلاً: «أبداً، مع أنني رَشَيْتُها بالمال»، فضحك الأول بتكلّف.

عندما وصل النائب العام أخيراً، طفقَ يُوشوش والسكرتيرة،

التي يبدو أنها كانت تُطلعُه على ما وقع في أثناء غيابه. كانت المرأة تستعمل آلة كاتبة تَشغَل نصف مكتبها الكبير.

استدار النائب العام وحيّا الحضور بابتسامة وحركة من يده:

- لدي خمس دقائق لكلّ واحد.

أدخلت السكرتيرة الأشخاص الأربعة الذين سبقوا كونسويلو باريديس تِباعاً. كانت الساعة تشير إلى الخامسة تقريباً لمّا نادوا عليها. في كلّ ذلك الوقت الذي قضته منتظرَة هناك، صارت تنتقي جيّداً الكلمات التي ستقولها للنائب العام لتدبِّر جيّداً زمن وجودها في مكتبه. كان الرجل يرتدي بدلة بلون أخضر قاتم وقميص كريمي، مع ربطة عنق سميكة ومُعوَجّة، وقد بدأ الصلع يجتاح رأسه مع أنه لا يكاد يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره.

- كيف يمكنني خدمة حضرتك؟

- ابنتي، صابرينا غوثمان، تعرضت للقتل.

- سيدتي الكريمة، أقدم لك تعازيّ الحارة، غير أنه، وكما اعتدت أن أقول دائماً، انظري حضرتك لكل تلك الرفوف، كلها ملفات قضايا في طور المعالجة، وكلها برسم هذه السنة. أؤكّد لك أن عددها يتجاوز الخمسمئة.

- أستميح حضرتك عذراً، لكن ما وقعَ أجدُه مستحيلاً، تذكُر كونسويلو أنها قالت له.

- سيّدتي، إذا كانت هذه رغبة حضرتك، يمكننا أن نقضي الخمس دقائق في انتقاد النظام القضائي، لكن من الأفضل أن نتحدث في صلب القضية. انظري حضرتك، لدي هنا شكاية عن سرقة هاتف خلوي، وأخرى عن سطو بالسلاح الأبيض، وعن حالة اغتصاب، وسرقات لمجموعة من الشقق، فمزيد من سرقات

الهواتف ومزيد من حالات السطو المسلح، وبعض التصفيات الجسدية، كما سبق وقلت لحضرتك، تشكيلة متنوعة من القضايا.

- لكن، هل تكتسي كلها الأهميّة نفسها؟ هل تستوي جريمة قتل وسرقة هاتف؟

- لا، سيّدتي، لا يستويان، بل يختلفان في التوصيف القانوني والمساطر المتّبعة فيهما. لكن، أخبريني حضرتك، ابنتك، هل تمّت تصفيتها؟ لنركّز على هذا، سيّدتي.

- ابنتي، صابرينا غوثمان، توفيت يوم 23 يوليو الفارط في ظروف غامضة. بحسب تقرير المحضر الطبي المقدم من مستشفى سان بلاس، توفيت بسبب تناولها مادة تدعى التريبتانول، لكن التشريح الطبي كذّب هذه الرواية، بل وقدّم مؤشرات عن عنف جنسي تعرَّضت له وحقن جسدها بالقوة بمخدر الكوكايين...

- تقصدين حضرتك أنّ ابنتك تعرضت للاغتصاب وأن أحدهم يريد تزوير المعطيات لإخفاء معالم الجريمة؟

- أجل، يمكن قول ذلك، قالت كونسويلو باريديس في استياء.

- أولاً: يمكنني مساعدة حضرتك بتمكينك من إذن قضائي خاص من النيابة العامة، لأجل الحصول على تقريرٍ بمسارِ استشفاء الفتاة بمستشفى سان بلاس. ثانياً: حاولي الاتصال بالطبيب، رغم أنّ له الحق في الاحتفاظ بالسرّ المهني ويمكنه أن يلزمَ الصمت إذا قرّر ذلك. ثالثاً: إذا أردت نصيحة منّي، اطلبي خدمات محقِّقٍ خاص.

- لكن، ألا يفترض قانوناً في حضراتكم أن تتكفّلوا أنتم بهذه القضايا؟

- كلامك في محلّه، سيدتي، يُفترض ذلك. وصدّقيني، نحن

لا ندّخر جهداً في القيام بكلّ ما نستطيع فعله، لكن انظري حضرتك إلى هذا المكتب، أترين حاسوباً؟ أو تابليت؟ طبعاً لا، ما نتوفر عليه هو خمسمئة قضية مرتّبة في ملفات ورقية، نعتمد في معالجتها على فريق من تقنيي الشرطة العلمية محدود العدد، وفوق ذلك هزيل الأجرة. فالعمل، سيدتي، يتم في حدود المستطاع، إذ لا نملك ما نصبو إلى توفره من وقت، ومن وسائل. صدّقيني، ليس في الأمر سوء نية مبيتة. والآن، إذا سمحتِ حضرتك. . .

- لكن، هل يمكن لحضرتك أن تلقي نظرة وتخبرني أين وصلَ التحقيق، وما الذي يجري حقيقة؟

فتح النائب العام دُرجاً تحت مكتبه وطفق يبحث في محتوياته. بعد حوالي خمسة دقائق سحب ملفاً ورقيّاً وفتحه، ثم نظر إليها وقال:

- نحن الآن بصدد وضع المعايير لإجراء البحث من طرف تقنيي الشرطة العلمية.

- تقصد حضرتكَ أنه بعد مرور شهرين تقريباً أنتم «بصدد وضع معايير البحث»؟ ما الذي يعنيه هذا؟

تنحنحَ النائب العام قبل أن يواصل الكلام:

- هذا يعني أننا بصدد وضع إطارٍ للبحث يتمّ بواسطته تحديد برنامج منهجي من أجل الشروع في إنجاز الخبرة، أضاف وهو يرفع أحد حاجبيه.

- ومتى سيتم ذلك؟

- ذلك ماذا، سيدتي؟

- إنجاز الخبرة الذي يتم بناء على برنامج منهجي يُحدِّدهُ إطار البحث، قالت كونسويلو باريديس.

تنحنح النائب العام مرة أخرى.

- المشكلة، سيدتي، تكمن في ذلك التقرير الطبي الذي جاء ليعرقل البحث. فلولاه لتمَّ إجراء التشريح مباشرة بعد الحادث، وكنّا بذلك سنربح كثيراً من الوقت، إذ سيتمّ التوصل سريعاً إلى أنّ الأمر يتعلق بجريمة قتل. عوضَ ذلك، لم يُجرَ التشريح إلّا قبل حوالي أسبوع، ناهيك عن أنّ هذا الأخير لم يكن حاسماً في سبب الوفاة، بل جاء فيه أنه «يُترك لتقدير السلطات المختصة».

- أتقصد حضرتك أنها لم تكُن جريمة قتل؟ أنتم مَن يجب أن تحددوا ما إذا كانت جريمة أم لا! قالت باستغراب وعصبية.

- صحيح مئة بالمئة! قال النائب العام وهو يبتسم بشكلٍ مبالغ فيه. جيد جدّاً، ممتاز، صرنا نتفاهم شيئاً فشيئاً. أوّلاً: يجب تحديد ما إذا كان الأمر يتعلق بجريمة قتل أم لا، عند ذلك فقط يمكن لهذا الملف أن يغادر هذا المكتب ليمرّ إلى وَحَدَة جرائم القتل. هل تُتابعين معي حضرتك؟

اِمتقعَ وجه كونسويلو باريديس وتفاقم شعورها بالعزلة. لقد فهمَتْ الآن أن الأمر سيكون أصعب ممّا كانت تتصوّره.

- كم يتطلب ذلك من وقت؟ كم من الوقت تحتاجون لتحصلوا على شيء، سيدي النائب العام، لكي تتيقنوا من أنها جريمة قتل؟

- أمهليني أسبوعاً، حضرتك، أسبوعاً واحداً وسنَصِلك برجل المباحث المكلّف بالقضية، ليُجيبك عن كلّ انشغالاتك. عودي حضرتك إلى هنا بعد ثمانية أيام، سأعِدّ لك أمراً بالحصول على تقرير مسار استشفاء الفتاة بمَشفَى سان بلاس. لا تيأسي، فوّضي أمرك للرب وصلّي، سيدتي، صلّي كثيراً.

- عذراً، سيدي النائب العام، هل لي برقم هاتفكم الخلوي أو بريدكم الإلكتروني؟

- بكلّ فرح، قال وهو يتنحنح من جديد، وبعد أن أملى عليها ما طلبته من معطيات أضاف بصوت خفيض: أشاطر ألم حضرتك، لكننا تجاوزنا الدقائق الخمس بكثير.

21

كان راميلي أول زبائنها وأضحى بعد ذلك أفضلهم. كانا يلتقيان مرتين أو ثلاثة كل أسبوع، حتى أنهما تناولا العشاء معاً في مناسبتين، ولم يسبق قط أن التقيا خلال النهار؛ لذلك، عندما دعاها للغذاء يوم الأحد الموالي، تساءلت ما إذا كان يرغب في رؤيتها هي أم بوكاهونتاس. وكمترجمة فورية، صارت تبرع يوماً عن آخر في الانتقال من سِجلٍّ لغةِ إحدى الشخصيتين إلى السجلِّ الآخر. في بيت الجمال، استمرت هي كارن نفسها، خصوصاً بعد أن شَهِدت ما جرى لسوزانا، التي تمّ فصلها من العمل قبل حوالي أسبوعين، بعد أن وجَدَتْ سترتها الجلديّة ملطخة بصباغة الشعر، فعنّفت على إثر ذلك زميلتها ديزي.

كانت كارن على وعي بأنها، إذا توخت الحذر، يمكنها الاستمرار في حياتها المزدوجة تلك لبضعة شهور إضافية، ثم تغادر البيت بعدها نهائياً، لكن بمحض إرادتها هي، ودون أن تُجبَر على ذلك. لقد تعلّمت من ذلك الدرس أن تحتفظ بازدواجية الهويّة. كانت بوكاهونتاس تظهر بأحذية فيراغامو العالية وحقيبة ماسيمو دوتي، بينما استمرت كارن في الظهور في المحل بحذاء كرويدون الرياضي وتسريحة ذيل الحصان.

كانت تتصفّح المجلّات باهتمام جدير بطالبٍ ينشدُ النجاح في الامتحان، وبالها مشغول بما سترتديه يوم الأحد. لقد بدأت تحفظ أسماء بعض الرموز، وصارت علامات دولتشي غابانا، أرماني، وفيرساتشي تبدو لها كطرائق صامتة في قول حقيقة الأشياء من دون حاجة إلى الجهر بها. في تلك الليلة، كان لها موعد مع أميركي شمالي كان قد اتصل بها مرات عديدة خلال الأسابيع الماضية. فكّرت أن عليها شراء حقيبة جديدة، إذ لا يمكنها أن تبدو دائماً بالمظهر نفسه.

كان تفانيها في إتقان ذلك الدور مدعاة لكي تنفق من أجله كلّ ما تكسبه، أي من أجل ما يمكن نعتُهُ بِبناء الشخصية. صار اندماجها في دور بوكاهونتاس قويّاً لدرجة نسيت معها أنها ما دخلت اللعبة إلّا بهدَفِ كسب مال وفير يسمح لها بجلب إميليانو من كارتاخينا، والأدهى من ذلك، أضحت تلك الذكرى مؤلمة لها، وصار ذلك الألم يكبر كلّما ابتعدت عن مواصفات الشخص الذي كانت عليه عند مجيئها إلى المدينة.

بعد أن غادرت شقتها بحي سانتا لوسيا، صارت إغراءات المجازفة، والاستسلام والسقوط، تستهويها بشكلٍ مستمر، لتُثبت لنفسها لربّما، عند كلّ تجربة، أنها ستكون المتحكّمة هذه المرّة في زمام أمرها.

قلّما كانت كارن تتحدث عن ويلمر، ولم نعلم باستمرار لقاءاتها به إلّا مؤخّراً. أظن أنها، لشدّة إحساسها بالذنب، لم تكن تقوى على الحديث عن علاقتهما. لقد خرجت مرهقة من غرفة نزل لاغونا أثول، بستمئة ألف بيزو نقداً في حقيبتها. أجرت اتصالاً هاتفياً

بويلمر لم يتعدَّ عشر ثوانٍ، ثم واصلت طريقها. لقد طلع صباح يوم الأحد والسكارى يحتلّون كراسي حديقة شارع 59.

غادر جون تول غرفة النُّزل بعد كارن بقليل. انعطف في الاتجاه المعاكس واستقل أول سيارة أجرة مرّت بقربه، دون أن يدري أنهم سيحاولون تجريده من حقيبته، واحتجازه على طريقة الجولة المليونية[1]. لم تكن كارن موجودة هناك لتسمعه يصرخُ، ثم يخرج من السيّارة ويجري لمسافة مئتي متر، قبل أن يستقبل جسده ثلاث رصاصات أردَته قتيلاً، وتركته ممدّداً هناك على الرصيف ينزف دماً.

كانت يدَا الزبون الأميركي كثيرتَي التعرّق، وكان يعتذر عن أتفه الأسباب. مَن كان لِيعتقد أنّ ذلك الرجل الأرعن، غير الواثق من نفسه في السرير، قد حارب في العراق وأفغانستان؛ وبعيداً عن التفاصيل، يمكن القول إنه كان يهوى ممارسة الجنس بطريقة تقليدية، ولم يكن يرغب في وجودها معه لوقت طويل، وذلك ما كانت كارن تجده مناسباً جداً.

كانت كارن تحب تلك الساعة من الصباح، حيث تجتمع على الرصيف نفسه كائنات الليل، بأعينها المُحمرّة ونَفَسِها المشبع بالكحول، بالرياضيين المستيقظين باكراً، الذاهبين إلى جولتهم الرياضية، فَرُؤية كلّ أولئك مجتمعين، في المكان نفسه، كانت

---

(1) الجولة المليونية (Paseo millonario): طريقة في السرقة تعتمد على اختطاف شخص في سيارة، كثيراً ما تكون سيارة أجرة، وإجباره على تسليم كلّ ما يملك، بما في ذلك بطاقته البنكية ورقمها السري، ثم التجوّل به في المدينة تحت الضرب والتنكيل، للذهاب إلى البنك أو أيّ مكان له فيه ما يمكن سلبه.

تُشعرها بنوع من الأخوة بعضهم بين بعض، أو بعض التضامن أو التقارب ربما، والذي يبدو غير منطقي في باقي فترات اليوم.

شعرت بالرغبة في البقاء لوحدها، في أن تغمض عينيها، أن تأكل وتبكي من دون شعور بأنها تحت المُراقبة. فمنذ ليلة اغتصابها، لم تعُد تخلد للنوم ليلاً دون أن يقضّ الفزع مضجعها، لذلك صارت تفضِّل المكوث خارج البيت إلى أن تطلع الشمس، أو تنام في سرير سوزانا.

بينما كانت تتمشى في الشارع، لمحت عيناها إعلانين عن كراء شقق، فانتابها الفضول لاستقصاء الأمر. توقفت عند الإعلان الثالث. كانت شقة مساحتها عشرون متراً مربعاً، وَسخة وضيقة، حيث كان رشّاش الدش يصب فوق المرحاض، وبها غرفة بِلا نوافذ. أمّا الشقة الثانية فكانت بدورها بلا نوافذ، وكانت مظلمة لدرجة يتعيّنُ معها إشعال النور ليرى المرء راحة يده. عندما قرّرت رؤية الشقة الثالثة والأخيرة، قبل موعد غذائها مع راميلي، شَبكتْ أُصبعيها الوسطى والسبابة، استجلاباً للحظ.

كانت واجهة البناية هي الأفضل، مقارنة مع محلات سكنها السابقة ببوغوتا. ذكّرها القرميدُ الناتئ والشرفات الملوّنة بالبنّي الفاتح بمعظم بنايات المدينة، وكسائر عمارات القطاع، لم يكن تاريخ تلكَ أفضل من غيره. ومع أنه لم يخطر ببالها أنها بصدد البحث عن سكن مستقلّ، ما إن وقفت كارن بباب تلك الشقة، حتى أدركت أنها تودّ البقاء للعيش هناك.

فتحت لها الباب فتاة شابة، وشرحت لها أنها تعتزم الرحيل للعيش مع صديقها في شقة تتّسع لهما ورضيعَها، غير أن عقد كرائها مع الوكالة سيبقى ساري المفعول لثلاثة أشهر لاحقة.

اغتبطت كارن أمام هذه الإمكانية التي فتحت أمامها، ففي نهاية المطاف، كانت تلك الأشهر الثلاثة هي ما تحتاجه لجمع مزيد من المال، والحصول بعد ذلك على شقة أكبر، تتّسع لها وابنها إميليانو.

كانت شقة مساحتها أربعون متراً مربعاً، ببساط متآكل ونافذتين، إحداهما كانت في الصالة وتطلّ على الشارع، والأخرى في الغرفة. المطبخ كان مفتوحاً، ويُشرفُ على طاولةٍ مساعدةٍ صغيرة بكرسيين، حيث لمحت كارن فنجان قهوة وكتاب تاريخ. رفوف الخزانة، المبنية بالقرميد والألواح الخشبية، كانت مليئة بالكتب. وقفت كارن تتفحصها، فلم تجد أي كتاب لراميلي.

- أريدها، قالت كارن، أريد هذه الشقة.

- لكنك لم تَرَي الحمّام بعد.

- لا يهم، سأكتريها، ألحّت.

طلبت منها الفتاة تسبيق أداء أجر شهر، على أن تؤدّي واجب الشهرين المتبقيين في نوفمبر. أبدت كارن موافقتها، ولمّا كان ثمن الكراء تسعمئة ألف بيزو، أخرجت كارن ستمئة ألف من حقيبتها وضربت لها موعداً في اليوم الموالي لتأتيها بالباقي.

كانت الشمس تطلّ من خلف الجبال، ممّا ترك لها انطباعاً بأنّ أمورها أخذت منحى إيجابياً، وأنها منذ ذلك اليوم ستسير من حَسنٍ إلى أحسن.

22

منذ عدة أيام وكونسويلو باريديس معتكفة في بيتها بلباس النوم. لقد أعياها الاتصال برقم الهاتف الخلوي الذي سلّمها إياه النائب العام، إذ كلّما اتصلت تُجيبها العلبة الصوتية. بعثت له بالعديد من الرسائل القصيرة، لكن، لا جواب عنها إلّا بإشعارات عدم التوصل. قبل ثلاثة أيام، ذهبت لزيارة السيد كوياك، من وكالة «كوياك ومُحقّقيه». لقد لفت الاسم انتباهها، لأن أباها كان يتابع بحماس حلقات ذلك المسلسل التلفزيوني، وَفكَّرَت أن في ذلك إشارة ما. غير أنّ اسم «كوجاك» الحقيقي كان يُكتب بالجيم وليس بالياء، وعلى خلاف كوجاك، كان لِكوياك شعرٌ صَبغهُ باللون الأسود. لقد اختار تلك المهنة وذلك الاسم لوكالته لأنه، عندما كان فتى صغيراً، وكانوا يعرضون المسلسل في التلفزيون، كانت أمه شديدة الإعجاب بالمحقّق النيويوركي. كَمثله، كان يرتدي بدلة وربطة عنق، ويعتمرُ دائماً قبعة، مع أنه، في صفحته على الشبكة العنكبوتية، يظهر باللباس الموحّد الخاص بما كان يُعرف سابقاً بالمصلحة الإدارية للأمن.

في تلك الصفحة، كانوا يعرضون خدمات مختلفة، كالعثور على أشخاص مختطَفين، وتحديد مكان مَدِينِين لإخضاع ممتلكاتهم

للحجز، والكشف عن الحسابات البنكية والعقارات والقيم المنقولة، والتحقيق في مختلف الجرائم، من قتلٍ واختلاس وسرقة، وإنجاز خبرات تحقيق الخطوط.

اتصلت كونسويلو بالوكالة فأجابها كوياك نفسه، وأخبرها أنّ بإمكانه استقبالها مساء ذلك اليوم. أقلّتها سيارة أجرة إلى المركز التجاري أكواريوم، الموجود في قطاع تشابينيرو. كان المكتب يشْغَل محلّاً صغيراً في أقصى الممر من الطابق الأرضي. وجدَت الرجل جالساً على كرسي خشبي مغلّف بالقماش، وخلفه عُلِّقت شهاداتٌ وصورٌ لِجثث مستَخْرَجَة من القبر. لم ترَ حاسوباً على الطاولة، بل فقط ركاماً من الأوراق والعدسات المكبِّرة، وجمجمة وآلة تصوير قديمة، ونظّارات مختلفة الأشكال وقارورة «تومس»، المضاد لحموضة المعدة. كل شيء كان يبدو قديماً ومفارِقاً لزمانهِ كمَا في مكاتب النيابة العامة.

تحدّثت كونسويلو طويلاً.

- أخشى أن تقفَ وراء كلّ هذا إحدى الشخصيات النافذة، قال كوياك عندئذٍ وهو يُشعل سيجارة طويلة بنّية اللون، كما يفعل بطل المسلسل، قبل أن يضيف:

- أن يتمكن أحد من تزوير وثيقة طبّية في مؤسسة استشفائية تتمتع بالشرعية القانونية، فهذا يعني أنه يتمتع بنفوذ قوي. يجب أن نبحث في أغراض ابنتك. إذا لم يكن لحضرتكِ من مانع، سنقوم أنا ورجالي بزيارتكِ غداً في بيتك، ومن هناك، سنُسَطّرُ برنامجاً منهجياً.

- لقد قيل لي هذا سابقاً، قالت كونسويلو محبطَةً.

- انظري إليّ حضرتكِ، قال وهو يفتح عينيه ويشير إليهما في

الوقت نفسه. لقد غادرت النظام القضائي العمومي لأنني ضقت ذرعاً بالإهمال واللّامبالاة. صحيح أن كلّ ما لديّ من معارف وخبرة كَسِبتُها هناك، غير أنّ معظم الإنجازات التي حققتها في حياتي المهنية خلال أربعين سنة، حصلتُ عليها كمحقق خاص.

- طيّب، سيد كوياك، أو كما شئت حضرتك أن يكون لقبك، كان شرفاً لي معرفة حضرتك، قالت كونسويلو في ارتباك ملحوظ، وهي تنهض من مكانها وتمدّ له يدها.

- ليس بهذه السرعة، قال بصوت محقّق المسلسل التلفزيوني، القوي الهادئ، والمتردّدة نبراته كما لو كان ينبعث من داخل كهف، بينما عادت كونسويلو للجلوس، مُنيخة بجسدها على الكرسي، داخلة في نوبة نحيب منفلت العقال.

- حضرتك عديم الإحساس، صرخَت في وجهه، وسط سحابة الدخان التي اجتاحت المكان.

ناولها كوياك علبة مناديل.

استنثرت كونسويلو المخاط الذي ملأ منخريها، وصار نحيبها يفتر شيئاً فشيئاً.

- اسمي أوبدوليو. أوبدوليو ثيرون.

صمتت كونسويلو، وبعد أن هدأت عادت لتقول:

- أفضِّل أن أدعوك كوياك.

ابتسم الرجل، أو لربما خُيّل إليها ذلك.

- إذاً لن يكون هناك عدل في قضية ابنتي، قالت كونسويلو.

- العدلُ لسنا نضمن تحقيقه، لكن كوياك ورجاله يتعهّدون بالكشف عن الحقيقة على الأقل.

- هذا الاسم الذي اخترتموه لوكالتكم يبدو لي سخيفاً!

واصل كوياك الحديث بنبرة هادئة، كمَن لم يسمَع تلك الملاحظة اللّاذعة:

- قد لا أبالغ إذا قلت لحضرتك إن وراء هذه القضية يقف شخص مُعتدٌّ بنفسه كثيراً، فهم لم يدققوا كثيراً في تفاصيل سيناريو الجريمة، ومع ذلك لا يخشون أن ينكشفوا، من هنا رِهاني على أنّ الفاعل شخص أو عدة أشخاص نافذين، من الحيتان الكبيرة و، للأسف، يُحتمل أن يكون الأمر متعلقاً بليلة حمراء انتهت بطريقة مأساوية.

- ما الذي تقصده حضرتك؟

- من المؤسف حقّاً ألّا يكون التشريح قد أجري في حينه، لأنّ ذلك كان من شأنه أن يثبت وجود اغتصاب. الآن لم يعُد ذلك بِيدنا، لكن يبقى الاحتمال وارداً.

- وكيف لنا أن نصل إلى الجاني؟

- يجب الحصول أولاً على مشتبهٍ به، الأمر الذي يتطلب منا البحث في أغراض ابنتك، ثم بعد ذلك، يمكننا ربطه بالقضية.

- هكذا ببساطة؟

- لا، مع الأسف الشديد. إذا لم تكن العدالة في صفنا، فمن المحتمل أن نصل إلى طريق مسدود.

- لا أدري إن كنت أفهم حضرتك.

- كما يقول الكبير شيرلوك «لا شيء أكثر خداعاً من الأمور البديهية».

ألقت كونسويلو نظرة إلى هاتفها. كانت على موعدِ معاينةِ شقةٍ مع أحد الزبناء، على بُعد بضعة أزقة من هناك. لقد بات ذلك الرجل، الذي يبدو كمهرجٍ، أمَلَها الوحيد.

- عليّ أن أذهب الآن، قالت.

- أنا بدوري سأخرج، إذا رغبتِ حضرتك، يمكنني مرافقتك لنكمل حديثنا.

- لم تحدِّثني حضرتك بعد عن الأتعاب.

- دعينا نقوم بالزيارة غداً، لنضع خطة منهجية للعمل، ثم بعدها أجري لحضرتك تقييماً بما يمكن أن يكون عليه الحساب. لكن، لا ينبغي لحضرتك المبالغة في التفاؤل.

- لماذا تلحّ حضرتك على أننا قد لا نحصل على شيء؟

- إنها التجربة، صدّقيني. لقد عاينت حالات مماثلة. معرفة الحقيقة شيء مؤلم. قد تكون أسوأ من عدم معرفتها.

- هذا ممّا لا معنى له.

- لا، ليس كذلك. تكون الحقيقة ضرورية في وجود العدل، لكن معرفتها من دون جبرِ ضررٍ تُسمِّم الروح.

- حضرتك فيلسوف، بالإضافة إلى كونك محققاً، قالت كونسويلو وهي تهمّ بالوقوف.

حمل كوياك معطفه وقبعته ثم خرج من المكتب تتبعه كونسويلو باريديس.

23

من سطح مطعم أوبر سايد، حيث كان ينتظرُ كارن، شاهدَ راميلي رجلاً ضخم الجثة في حوالي الأربعين من عمره يتجه نحوه. اقترب منه حاملاً في يده كتاب **السعادة أنت**.

- هل حضرتك السيد إدواردو راميلي؟

- نعم، ردّ عليه راميلي بابتسامة وهو يرفع نظارتيه الشمسيتين ويضعهما فوق شعر رأسه الرمادي اللمّاع.

- إنه لشرف لي عظيم! لا يمكن لحضرتكَ أن تتصور كم كان هذا الكتاب مهمّاً بالنسبة لي...

- يسعدني ذلك كثيراً، هذا هو المطلوب... قال راميلي بتوتّر ملحوظ.

- أنا برفقة صديقتي. هل يمكنني دعوتها لتلتحق بنا؟ فهي مَن بدأتْ بقراءة كتاب **أقدِّرُ نفسي** وَحدّثتني عن أعمالِ حضرتك... وفي الحقيقة، لقد غيَّرتْ حياتي...

- هذا هو المطلوب، أليس كذلك؟ كرّر راميلي وهو شارد الذهن لرؤيته كارن تقترب من الطاولة.

بدت له رائعة. فاتنة وأنيقه في آن، قال في نفسه وهو يتسلم نسخة **السعادة أنت**. اقتربت صديقة الرجل الضخم بدورها من

الطاولة ووصلت قبل كارن ببضع ثوان. لاحظت هذه الأخيرة كيف كان راميلي يفترسها بنظراته.

- لا أكاد أصدِّق ما أرى! قالت وهي تغطّي وجهها بكفيها.

ابتسم راميلي من جديد.

- أعجبني حديث حضرتك عن وجوب أن يكون الإنسان كنهر يجري... ذلك ما أحاول أن أتمرّن عليه كلّ يوم، قالت الفتاة وقد تورّد وجهها وصارت ترمشُ أكثر ممّا يلزم.

بقيت كارن متسمِّرة في مكانها خلف تلك المرأة الشقراء، دون أن تعرف ما إذا كان ينبغي لها أن تجلس أم تنتظر.

أنهى راميلي جملة لهُ حول استيقاظ الروح، ثم وقف وحيّاها بعناق مبالَغ فيه.

- اجلسي، من فضلك.

بعد ذلك تسلّم النسخة من الرجل ذي اليدين السمينتين المشعرتين، وسأله لمن يُريد أن يكون الإهداء.

- هذه إشارة، ألا ترى معي ذلك؟ قالت المرأة لصديقها مبتسمةً.

- لِعلمِ حضرتك، أستاذي، في فترة ما، كان تقديري لنفسي في الحضيض، لكن كل شيء تغير بعد قراءتي لكتاب **أقدِّرُ نفسي**. بدأت أستوعب بعدئذٍ أنّ بإمكاني الحصول على كلّ ما أصبو إليه في الحياة ما دمت أتقبّل نفسي كما أنا، بكامل محدودياتي، وعندئذٍ فقط عثرتُ على الحب.

واصل راميلي إظهار تلك الابتسامة الثابتة، المبالَغ فيها.

بدا الرجل وصديقته خارج السياق، إذ لم يكن لِلباسهما

المُفارِق ووزنهما الزائد وطيبوبتهما المشفوعة بالبساطة تناسبٌ وَطبيعة المكان. جالَت كارن بنظرها حوالي المكان، فلاحظت أنهما جالسان في سطحِ طابقٍ رابعٍ يُطلّ على منطقة زونا روسا. كانت الكراسي من الفورميكا الشفافة، والمناضد من المعدن، وَفي داخل المطعم، مصابيح ضخمة حمراء، بدورها من الفورميكا، عُلِّقت بالسقف العالي، بينما صُبغت الجدران باللون الأبيض وزُيِّنت بصورٍ كبيرة لمدينة نيويورك. حينما كان راميلي يودّع مُعجبيه، ألقت كارن نظرة على لائحة الطعام: رقاقات السبرينغ رولز، شرائح اللحم بالفلفل، بطاطا مشوية، حساءات متنوعة، همبرغر، بيتزا بثمار البحر، سلطة والدورف، دجاج تاندوري. لم تفهم شيئاً. نظرت إلى الفرنسيين الجالسين بالطاولة المجاورة، كانوا يتناولون أطباقاً تبدو شهية، لكنها لا تعرف اسمها ولا كيفية النطق بها. أخيراً، ابتعد الصديقان المعجبان، فنظر إليها راميلي بعينين زرقاوين، كلون ماء المسبح. أمسك بيدها، وجَعَل يضغط بكفّه بوتيرة متردّدة وسريعة، مُمعناً النظر في عينيها، دون أن ينبس بشفة. شعرت بدغدغة خفيفة تسري في جسدها. كان لقاء أقرب ما يكون إلى الموعد الرومانسي، وهو الأول لها في حياتها. عندئذٍ رنّ هاتف راميلي، فأرخى قبضته فجأة، وقال لها:

- آسف، عليّ أن أجيب على هذه المكالمة.

- مرحباً صديقي! قال راميلي. ما سرُّ هذه المفاجأة السّارة؟

سمعَت كارن صوت مخاطب راميلي يتحدث من الجهة الأخرى بصوت عالٍ وحادّ، لكنه غير مفهوم.

- هل الأمر خطير؟ سأل راميلي. شكراً، صديقي، سأتكلّف بالأمر ما دمتَ مسافراً إلى بارانكيليا. سيتوجّب علينا إعداد خطة

طوارئ. لا، ليس الآن. سأتصل بك لاحقاً، صديقي. لكن، لا تشغل بالك، سندبّر الأزمة.

أقفلَ الخط.

- هل كلّ شيء تمام؟ سألت كارن.

في تلك اللحظة اقترب النادل ليسألهم عن طلباتهم.

ألقت كارن نظرة أخيرة على لائحة الطعام، بنوع من القلق هذه المرة.

- أريد همبرغر، من فضلك، قالت وهي تُرجِع اللائحة للنادل.

- بيكون أم تشيز، حضرتك؟

- بيكون، قالت، لكن من دون لحم خنزير.

ابتسم راميلي.

- بكلّ سرور، ردّ النادل من دون أن يصحّح لها.

طلب راميلي سبرينغ رولز كمُقبِّل وساندويتش من اللحم المقدَّد كطبق رئيس، واختار شراب جِينْ تونيك، بينما طلبت كارن كوكاكولا، وبعدئذٍ شعرت بالسُّخف، نظراً إلى تصرّفها كطفلة في التاسعة من عمرها.

- هل أعجبكِ المكان؟ سأل راميلي.

- إنه راقي، قالت كارن في خجل.

- أحقّاً أعجبكِ؟ أضاف راميلي. الأكلُ هنا ليس استثنائياً، لكنني ودِدتُ أن أجعلك تكتشفين أحد بارات الكوكتيل الفخمة، كما لو كنتِ في لندن أو نيويورك أو باريس. أفهِمتِ؟

أصدَقَتهُ كارن القول بإيماءة منها. تأمَّلَت الحدائق العمودية في الجدران. في الجهة الداخلية من ذلك الفضاء كانت الحانة،

بكراسيها الطويلة وأرائكِها الجلدية ومناضدها الخشبية. كانت السماء بلون عينَيْ راميلي. لِلَحظة، تخيّلت كارن أنها تتقاسم حياةً وَراميلي، حياة يكون لإميليانو فيها مكان، في منزلٍ بهِ كلب، أو ربما مزرعة في مكان مُشمس، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

ملأ النادل الكأسين بالماء، وعندئذٍ كسّر راميلي الصمت:

- لاحظي أنني لم أتعرّف عليكِ إلّا منذ وقت وجيز، لعلها المرة الخامسة أو السادسة التي أراك فيها، ومع ذلك، أحسّ وكأنني أعرفك منذ الأزل.

قدَّم النادل طبق السبرينغ رولز فاقتطع منه راميلي لقمة كبيرة وحملها إلى فمه. بدا مركّزا على التلذّذ باللحم الملفوف بالعجين المُوَرّق. هكذا، بفم مملوء عن آخره، قال إنّ درجة استواء الأكل كانت مثالية، قبل أن ينتقد مذاق الصلصة الذي يجمع بين الحلو والمالح. أمّا كارن فما كان بالنسبة لها حلواً ومالحاً في آن هو تلك اللحظة، إذْ لم تستسغ ذلك الانتقال المفاجئ من ما يشبه لحظة اعتراف بالحب، إلى الحديث عن مذاق بعض العجائن المحشوّة باللحم، ثمَّ إن راميلي نسيَ اسمها، أو أنه لم ينطقه على الأقل.

- أنت تعلمين أنني أناديك ببوكاهونتاس تَحبُّباً، عزيزتي، قال وهو يغمزُ لها بعينه.

في النهاية، قالت كارن في نفسها، يبقى هو الأستاذ، وفضّلت الاعتقاد أنّ كل ما يفعلُهُ له معنى أكثر عمقاً ممّا قد يبدو لها، ويخضع لمنطق لَربّما هي تجهله. قدّم لهما النادل الطبق الرئيس، بينما استمر راميلي في الحديث عن الأكل. صار الآن يعدّد الأماكن التي يمكن فيها تناول طبق البط البِكيني في بوغوتا، ونسي تماماً ما كان قد بدأه من اعتراف بالحب.

- أفضَلهم، وبفارقٍ كبير، هو تايْ شينغ إكسبرس، واصلَ راميلي.

بدأت تشعر بالضجر، غير أنها رفضت الإقرار بذلك. منذ ما يربو عن الربع ساعة وراميلي يتحدث عن الأطباق الصينية والتايلاندية والفيتنامية، وعن مطاعم العاصمة حيث يمكن طلب تلك الأطباق، وكذا عن تصنيف الأثمان والجودة.

عاد الصديقين البدينين إلى الاقتراب. هذه المرة، كانت عينا المرأة حمراوين ووجنتاها مورّدتين أكثر من ذي قبل.

- لم أرغب في الانصراف قبل أن أشكر حضرتك مرة أخرى، أستاذي الكبير، قالت لراميلي؛ فلقائي بحضرتك اليوم هنا هو إشارة بكلّ تأكيد.

طفق رفيقها يهزّ رأسه بحماس شديد، في إشارة منه على موافقتها الرأي.

- تصوّر حضرتك، أضافت المرأة ذات الرداء الأحمر بِياقةٍ عالية، وأحمر الشفاه باللون نفسه، لقد طلب اليوم حبيبي يدي للزواج -قالت ذلك وهي تطلق تنهيدة عميقة-، تصور حضرتك، اليوم تحديداً. أتصدق ذلك؟

- شيء لا يصدق، قال راميلي وهو يأخذ رشفة كبيرة من شراب جينْ تونيك.

- إنها إشارة، ألحّت المرأة على القول، إشارة لم أكن لأكتشفها لولا قراءتي لأعمال حضرتك. أستاذي العزيز، اِسمح لي بأن أدعو حضرتك إلى حضور حفل زفافنا.

- سيكون ذلك شرفاً كبيراً لنا، أضاف ذو الجثة الضخمة؛

لكن، يا لقِلّة ذوقنا!... فنحن لم نقدّم نفسنا بعد. خادم حضرتك ألفريدو لاغارتشا، اختصاصي في جراحة الشرج والقولون، قال وهو يمدّ يده.

صافحهُ راميلي بعد أن أمعن النظر في يدِه، لربما أطولَ ممّا يجب.

- غلوريا موتّا، اختصاصية علم جراثيم، قالت وهي تمدُّ يدَها هي الأخرى.

- كأنكما خُلقتُما لبعضكما، قال راميلي بابتسامته المتوترة نفسها.

بعد أن أخبراه بأنّ حفل الزفاف سيُقام في بلدية كاتشيبّاي، وَعدَهما راميلي بأنه سيعمل كلّ ما في وسعه ليكون من الحضور، لكنه أضاف أنه تذكر سفراً له مبرمَجاً في تلك الفترة. غمز له الدكتور لاغارتشا بعينه وسلّمه بطاقته، وهو يقول مازحاً: «لا يعرف المرء متى سيحتاج اختصاصياً في جراحة الشرج والقولون»؛ وعندما لاحظ راميلي نظرة الطبيب الشبِقة إلى كارن، لم يقوَ على مقاومة الرغبة في تقديمها:

- أقدّم لكما كارن، صديقتي.

غصّت كارن بقطعة بطاطس مقلية كانت تتأهب لبلعها، ومع احمرار وجهها خجلاً، تمكنت من الوقوف ومدّت يدها لتحية الخطيبين.

بعد نهاية الغذاء، وأمام طبق المثلّجات المقلية، الذي طلبه كتحلية، وصار يتناوله مرفوقاً برشفات صغيرة من قهوته الإكسبرس، بدا أن راميلي تذكّر دردشته الأولية.

- أين توقف حديثي؟ نعم، تذكرت... بعد أن عشتُ حياتي

تائهاً، لا أعرف طريقي، ولا أفكر في المستقبل، أتى شخص في الأخير، واستطاع أن يحبس أنفاسي، وهذا الشخص هو أنتِ. . .

استمرّ راميلي في حديثه وقد عاد إلى مسك يدها برقة والضغط عليها بكفّه، بذلك الشكل المتردّد السريع، ناظراً في عينيها بتركيز شديد.

تعرّفت كارن في حديثه على كلمات أغنية «مُغامِرة» لكارلوس بيبس.

لكنها الآن لا تودّ التفكير في راميلي كغشّاش، بل تفضّل الانسياق في تلك المغامرة العاطفية، والإحساس بنفسها كصبيّة مُغرمَة في الخامسة عشرة من عمرها. صار راميلي يداعب خدّها ويقبلها بقوة، هناك، في سطح ذلك المطعم المُضجر، كما لو كانا عشيقين.

قبيل ولوجهما المصعد، بينما كانت تمشي كالعائمة رغم كعبها العالي، ذي الثمانية سنتيمترات، وبينما كان راميلي يشدّها إليه بقوة، محيطاً خصرها بذراعه، وهي تشعر بنفسها مزهوة كأميرة، التقيا رجلاً أنفه معقوف وصدره كثيف الشعر.

- دكتور، تسرني رؤية حضرتك، قال إدواردو.

- وأنا كذلك، أستاذ، ردّ الدكتور.

- أقدم لحضرتك صديقتي، قال راميلي. قدّمت كارن التحية، دون أن يحمرّ وجهها هذه المرّة.

- تشرفت بمعرفة حضرتك، كارن بالدس.

- روبيرتو بينيغاس، قال الطبيب.

عندما كانا بالمصعد، سألت كارن:

- هل هو طبيبك؟

- لا، عزيزتي. هو واحد من مستخدميّ في كروث سالود، هيأة الوساطة في الخدمات الطبّية التي أنشأتها وشريكي.

- أنت تملك تعاضدية صحية؟ سألته كارن مستغربة.

- تَصوّري!

- أنت تقوم بأشياء كثيرة، قالت وقد عقدت العزم على مجاراته في أن تكون صديقته ليوم الأحد. هل ستأخذني في نزهة؟ ثم أمسَكَت بيده.

- بل سآخذك إلى عنان السماء. لكن، قبل ذلك، عندي لك مفاجأة.

أخرج راميلي علبة من الجهة الخلفية للسيارة.

قرأَت كارن اسم «كارولينا هيريرا» على الكيس، فلم تعُد في حاجة إلى الكلمات أو الحركات لتعرف أن ذلك كان حباً خالصاً وحقيقياً.

24

لقد حكت كارن جزءاً كبيراً ممّا عاشته خلال تلك الشهور، لكنها تحاشت الحديث عن ويلمر. لستُ أدري ما إذا كان ذلك عن قصد، أم أنّ عقلها الباطن كان يعمل على طرد ذكرى رجُلِها الوحيد الذي كانت هي مَن يسعى إليه.

في المقابل، ترى لوسيا أنّ كارن دأبت على الصمت عن أشياء كثيرة، فيومَ تكلّمَتْ عن حفل بلوغها سن الخامسة عشرة، أغفلت تماماً الحديث عن عملية حادثة ترطيب الشعر وما رافقها من ألم. لعلّ رغبتها في الاحتفاظ بذكرى جميلة جعلت عقلها الباطن يتحاشى استحضار كلّ التجارب المؤلمة.

لم تُخبرني بذلك إلّا بعد مرور عدة أسابيع. كنتُ ممدّدة على منضدة التدليك، وطفقتُ أحكّ رأسي مرّة بعد أخرى. قلت لها إن منتوجات بانتين تهيّج فروة شعري الدُهني، الذي يتوجب عليّ غسله بشكل يومي. لِبُرهة، بدت كارن شاردة الذهن، لم تُعلّق على ما قلتُه ثم، فجأة، بينما كانت تفكُّ لي عقدة في ظهري، شرعت في الكلام:

- أول مرة أُجريَ لي فيها ترطيب كيميائي كانت يوم حفل بلوغي سن الخامسة عشرة. لقد نبّهتني أمي إلى أنني، إذا حككتُ

فروة رأسي، سأصاب بجروح، وكنتُ كلما توترَت أعصابي أجد راحتي في حكّها باسترسال. لذلك عشت تلك الليلة تجربة ألم غير مسبوقة، وصارت فروة شعري مليئة بالتقرحات.

- أنا أحب الشعر المخرّص، قلت لها. ألم تحاولي يوماً ترك شعرك على طبيعته؟

- بلى، عندما كنت صغيرة جدّاً، فصاروا في المدرسة يشبّهونني بقرد المكّاك. كانوا ما إن يروني، أنا وفتيات أخريات ذوات شعر مماثل، حتى يشرعوا في تقليد صوت قرد الأورانغوتان. لذلك، ورغم سنّهن الصغيرة، كانت بعض الفتيات يأتين بشعر مرطّب.

- وأمك؟

- أمي تُجري الترطيب الكيميائي منذ أن صارت لي ذاكرة. هي عملية تتكرّر عندها كلّ شهرين وترقى إلى مستوى الطقس التعبّدي، شأنها في ذلك شأن النساء اللائي يأتين إلى هنا: إزالة الشعر بالشمع كلّ أسبوعين، صباغة الأظافر كلّ ثمانية أيام، تنظيف الوجه كل شهر، وضع الرموش الصناعية كل ثلاثة أسابيع... من دون الحديث عن العلاجات التجميلية، وإزالة الشعر بالليزر، والبوتوكس، إلى غير ذلك من التقنيات المتوفرة اليوم. أما أنا، فمن بين كل هذا لا يمكنني الاستغناء عن شيئين: إزالة الشعر بالشمع والترطيب الكيميائي، الذي هو الأسوأ، ليس للآلام التي يسبّبها فحسب، بل لرائحته الكريهة، رائحة البيض العفن التي تُلهِبُ العينين. في كارتاخينا يعرفون هذا جيّداً. تجدُهم يستعملون المكواة ويضعون اللفائف ويسرّحون الشعر ويثبتونه على طريقة العمامة، ويروّضون خصلات الشعر الأكثر عصياناً. كان نيكسون يقول إنّ ذلك يعبّر عن ازدراءٍ للأسلاف. ليس لي علم بهذه الأمور، كل ما أعرفه هو أنني

لا أحب أن أرى نفسي في المرآة كزنجية شعثاء. لقد آمنت لفترة بأفكار نيكسون، وَكنت أجد شيئاً من المنطق في ما يقوله، فإذا كان الرب خلقني بشعر مُجعّد، لماذا أعترض على مشيئته؟ هكذا كنت أفكر، وكنت في ذلك الوقت أواظب على الذهاب إلى الكنيسة كمواظبتي على الترطيب الكيميائي. تركتُ هذا الأخير إذاً، لكن عمري حينها لم يكن يتجاوز الرابعة، لذلك لم يتجعّد شعري سريعاً، لكنه صار غريباً، كمكنسة صُنعت من سلك معدني صلب. كنت أشعر أنني دميمة، بعد ذلك حبلتُ وصرت حزينة. لم أعد أطيق النظر إلى المرآة. كان نيكسون يلحّ على مناداتي بالسوداء، مع أنني لم أفكر في ذلك يوماً، أي في كوني سوداء، لا، لم يحدث ذلك قط، لكنني فكرتُ في المقابل بأمي، والتي كنت أسخر منها في سرّي عندما تُشبّه لون بشرتها بلون القرفة، مع أنها سوداء كالقطران. أما أنا، فلي لون مغاير، أنا مَنْ لي حقّاً بشرة سمراء تميل إلى لون القرفة، ولعل أسودَ ما فيّ هو هذا الشعر الكثيف الثابت. كثيراً ما يتحدثون في التلفزيون عن الشعر اللمّاع، الحريري، الناعم، لكن، لا واحدة من هذه الصفات تنطبق على الشعر الأسود. فالشعر الأفريقي الأصل هذا، وكما علّمَتْني أمي منذ كنت صغيرة، هو من نصيب سكّان الأكواخ العشوائية في حي إلْ بوثون، ومن يعيشون وسط الأزبال، أو في المستنقعات، من دون عمل ولا أوراق تعريف، ولا بيت يأويهم. هذا ما حفظته عن ظهر قلب، لذلك عندما كان نيكسون ينعتني بالسوداء ويقرأ عليّ أشعار خورخي أرتيل، كنت أحسّ بالدم يغلي في عروقي، وينتابني شعور غريب بالفخر بشيء لطالما كنت أخجل منه. أعرفُ أنّني جميلة، أو طيّبة على الأقل، وأعرف كيف هي نظرة الرجال إليّ، وكمْ أثير رغبتهم، لكن، بشعري

الأفريقي هذا، أعرف أن الرجال الذين يفخرون بعرضي كجائزة كسِبوها في رهان اللوتو، هم أنفسهم الذين قد يخجلون من مرافقتي، أما عندما يناديني أحد بالهندية الحمراء، فلا أنزعج كثيراً لوجود تلك الهندية الحمراء بوكاهونتاس، لأنها على كلّ حال جميلة، وتظهر في شريط والت ديزني. فَكوْني سوداء هو أسوأ ما في الأمر ولا أقبل أن ينعتني أحد بذلك، باستثناء الأشخاص الذين أعرف أنهم يحبونني ويقولون لي ذلك تحبّباً. هل أبدو لحضرتك سوداء، دونيا كلير؟ أعتقد أنّ لوني يشبه إلى حدّ كبير لون الرئيس أوباما، لكن بملامح امرأة بيضاء وبشعر أسود كلون القطران. لقد كان شعري محنة حقيقية. أكره رائحة تلك المواد الكيميائية، فهي تصيبني بالغثيان أحياناً، ومع مرور السنين يتضاعف كرهي لها، ومع ذلك، لن يكون في مقدوري التخلّي عن استعمالها. عندما حبلتُ مثلاً، كنت محتاجة إلى الشعور بأني جميلة على الأقل، لكن، في نهاية المطاف، أضحى الشعور بالجمال بالنسبة لي مرادفاً لترطيب الشعر كيميائياً.

لزمتُ الصمت. كنت أعلم أن كارن ترطّب شعرها، لكنّني لم أكن لأتخيل حجم المعاناة وراء ذلك.

دلّكتْ لي رَبْلَتَيْ الساقين، ثم توقّفت طويلاً عند القدمين. بدَت شاردة، غارقة في أفكارها.

– كان نيكسون يفكّر بشكل مختلف، قالت فجأة. لو كان لنا أناس كثيرون مثله لكنّا ربمّا في حالٍ أفضل، أضافت. أنا بصراحة لا أحبّ الشَّعر الأفريقي الأصل، لكن، ماذا بوسعي أن أفعل؟ تصوّري حضرتك، في حيّنا بكارتاخينا، كانت تعيش فتاة سوداء جميلة، فضلت ترك شعرها على طبيعته، أتظنين أنها عثرت على

عمل؟ كانت جميلة جدّاً، وذات مستوى تعليمي جيد، هذا صحيح، لكن لا أحد رغب بوجود تلك الفوضى في مقر عمله، مكتباً كان أو حانة أو محلاً تجارياً، فما بَالكِ بصالون الحلاقة. هل سبق لحضرتكِ أن رأيت شعراً أفريقياً طبيعياً في كامل نموّه؟ هو إعصار حقيقي، تسونامي جارف. كلّما مرّت بالقرب من منزلنا قالت لها أمي: «يوماً ما، سأجدك نائمة، وسأحلق لك شعرك وأملأ منه وسادتي»، وكنت حينها أنفجر من الضحك. كانت الفتاة تتابع دراستها في تخصّص غريب، أظنهُ السوسيولوجيا، وكما كان يفعل نيكسون، كانت تجمع الناس، وتحدِّثهم عن الفخر، وعن الأسلاف وبقية الأسطوانة، وفي إحدى التجمّعات، توقفت سيدة كانت تغسل ملابسها وقالت لها: «هذا الفخر كله وهذه الحماسة كلّها، هل أسعفاك في الحصول على فرصة عمل؟»، فانفجر الحاضرون بالضحك. كنت أشفق على تلك الفتاة، فهي محقّة في بعض ما تقول، إذ لا ينبغي التمييز بين الناس بسبب شعرهم، هذا أمر أتفهّمهُ، لكنني أرى كذلك أن الشعر الأفريقي الأصل ليس مناسباً للعمل في مكتب. لقد انقطعت عنّا أخبارها بعد ذلك. كانت تكتري غرفة عند إحدى جاراتنا، ولم تستمر فيها طويلاً. لعلّ السكن لم يكن يناسبها. ما زلت أتذكرها أحياناً وإن كنت نسيت اسمها. أتمنى أن تكون قد عثرت على شغل لا يضطرها إلى ترطيب شعرها، لأن ذلك، فضلاً عمّا يخلّفه من إزعاج وألم، كان من شأنه أن يُسبّب لها عقدة نفسية. هل يمكن لحضرتك أن تستديري دونيا كلير؟ قالت لي.

طفقت أنظر إليها. كنت أتطلّع إلى نصفها الأعلى. شفتاها، لم يسبق أن بدتا لي بذلك السُّمك. عيناها الخلاسيتان، تخيّلتُهما تنظران خلال الليل. أعترفُ أنني ودِدتُ تقبيلها. نعم، وددتُ،

لكن، عوض أن أقوم بذلك بقيت هادئة، في أقصى درجات الهدوء. حاولتُ أن أضبط إيقاع تنفسي. أغمضتُ عينيّ. وددتُ لو أنّ تدليكها لا ينتهي أبداً، وأن صوتها، ذلك الصوت الذي لطالما رنّ في مسامعي وأنا أتقلب في سريري ليلاً، دون أن أتمكن من النوم، يهمسُ في أذني، شجياً، رقيقاً، هادئاً، بذلك الإيقاع البطيء اللعوب، وذلك العمق الشبيه بقرع الطبل، بذلك المذاق، وذلك اللسان.

25

كان اليوم يوم ثلاثاء والساعة تشير إلى الثالثة بعد الزوال. الموظفون يضعون قبعات من الورق المقوّى ويقتسمون حلوى مغطّاة بكريمة الشانتيي، بينما كانت عاملة النظافة، وهي تعتمر قبعة بدورها، توزّع مشروب كولومبيانا الغازي في كؤوس بلاستيكية.

- عذراً، قالت كونسويلو بصوت مرتفع، لِتتمكن من إسماع صوتها، نظراً إلى الصخب الكبير الذي كانت تحدِثه الموسيقى. هل حضرة النائب العام موجود؟

- لا، ليس موجوداً. لقد ذهب في عطلة نهاية أسبوع مطوّلة وسيعود للعمل غداً.

- لكن أليس من المفروض أن يُستأنف العمل اليوم؟

- قد يكون أخذ يوم عطلة إضافياً، ما أدراني أنا؟ قالت السكرتيرة في انزعاج ملحوظ. ثم إنني لست سكرتيرته الخاصة.

- هل يمكن لحضرتك إعطائي رقم هاتفه الجوّال؟

- لا، سيدتي، لا يمكنني ذلك. لست مخوّلة.

- لقد وَعَدَ بأن يَصِلَني برجل المباحث الذي سيتكلّف بالقضية، حتى نتمكّن من الحديث في... قال إنه سيكون اليوم هنا.

- والمحامي، أين هو؟

- ماذ؟

- هم يتحدّثون في هذه الأمور عادة مع المحامين المكلّفين بالقضايا، وليس مع العائلات مباشرة، قالت السكرتيرة قبل أن تضيف: يجدر بحضرتك أن توكّلي محامياً، فمن دونه يَصعب جداً أن تحظي باستقبال، ألا ترين حضرتكِ أنّ حوالي خمسمئة قضية تنتظره في مكتبه؟

- لكن النائب العام قال لي...

- يجب أن تفهمي حضرتك أنه يتعامل مع أناس كُثُر، ولا يمكنه التكلّف بكلّ شيء، قالت السكرتيرة وهي ترفع كأس كولومبيانا إلى فمها.

- ألم يترك لي أمراً بطلب تقرير استشفاء ابنتي في مستشفى سان بلاس؟

- لا، سيدتي، لم يحدِّثني بهذا إطلاقاً، ردّت السكرتيرة، ثم انسحبَت مهرولة إلى حيث كان زملاؤها قد أشعلوا شموع الحلوى وينتظرونها لغناء «هابي بيرثداي».

تبِعتها كونسويلو وقالت لها إن النائب العام أعطاها رقم هاتف خاطئاً، وكان يُدخلها دائماً إلى العلبة الصوتية.

- لا يمكن، سيدتي الكريمة، قالت لها، آسفة جداً.

في ذلك المساء، هاتفت كونسويلو طليقها وحكَت له عن كوياك وعن زيارتيها للمحكمة. خلافاً لما توقّعته، تفاعل طليقها إيجابياً مع فكرة التعاقد مع المُخبِر، بل وتطوّع للتكلّف بأداء الأتعاب، وتعهّد بالبحث عن محامٍ ذي كفاءة، لأجل تسريع الأمور. أخبرته كونسويلو بتطورات تحقيقات كوياك ورجاله، والذين ليسوا في ما يبدو سوى

أبناء إخوانه. قالت له إنهم زاروها في شقتها، وإنهم قلَبوا غرفة صابرينا رأساً على عقب.

- هل عثروا على شيء؟

- وجدوا تدوينة مكتوبة على ورقة دفتر.

- ماذا تقول؟

- «هل تعلمين أنه يوجد أكثر من ثلاثين نوعاً من القبل؟ ونحن بالكاد جرّبنا نوعاً واحداً. انتظري عودتي وسأعلِّمك التسعة والعشرين المتبقية»، قرأت كونسويلو.

- يا للقرف! قال خورخي غوثمان. وهل هي مُوقَّعة؟

- هناك حروف: ل.أ.د

- ل.أ.د؟ ماذا يعني ذلك؟ سأل خورخي غوثمان.

- لا فكرة لدي، قالت كونسويلو.

- أتظنينه الفاعل؟

- مَن يدري! لكن، من أجل إجراء الخبرة في تحقيق الخط يتوجّب التعرّف على هُوية صاحبه.

- سنبحث في مَن يكون ل.أ.د هذا.

فضَّلَت كونسويلو أن تصمت. كانت ستشرع في الحديث عن تفاصيل زيارتها المتوقعة إلى مستشفى سان بلاس، وعن خطة العمل التي رسمها فريق كوياك، عندما قاطَعَها طليقها:

- أرى أنه من الأفضل لنا مناقشة هذه الأمور على انفراد، فالاحتياط واجب.

- ماذا تقصد بذلك؟

- لعلّ أحداً يتنصّت علينا. ثم إنني تحدّثت كثيراً، لِيكن لقاؤنا

غداً صباحاً لإتمام الحديث، ولنُحافظ على هدوئنا. لا بد أن نحصل على شيء في النهاية.

- خورخي! ما الذي فعلوهُ بفلذة كبدنا؟

في الجهة الأخرى من خط الهاتف، سمعت كونسويلو أبَ ابنتها القتيلة يجهش بالبكاء.

26

بضربة قويّة في قفصها الصدري، أحسَّت بها كطعنة سكين، أخرجها لويس أرماندو من شرودها. «ستفعلين ما آمركِ به»، قال لها مَنْ صار في تلك الأثناء شيئاً آخر غريباً، وحشاً يُجيد التنكيل، ويعرف كيفَ وأينَ يجب أن يضع يده، لكي لا يتركَ أثراً في ضحيته غير ألَمِها. «توقفي عن إبداء هذا الوجه الخائف، فأنتِ هكذا تُفقِدينني شهيتي في التهامِك»، قال لها وهو يبحث عن لفافته الورقية لاستنشاق جرعة أخرى.

كان آخر ما فكرت به صابرينا هو أنها هي المخطئة في كلّ ما وقع لها. لم تتمكن قط من التعرف على ذلك الرجل الذي كان لحظتها يطوّح بها من مكان إلى آخر، مَنْ كان يستعمل جسدها هدفاً يفرغ فيه شحنة حنقه على العالم. كان هو بالنسبة إليها ذلك الصوت الهادئ الذي أشعَرَها بأنها متميّزة؛ ذلك الرجل الأنيق، المنتمي إلى طبقة اجتماعية راقية، الذي وجدها جميلة، ورقيقة. أجل، جميلة ورقيقة، هكذا قال لها ذات يوم في المركز التجاري أونيسينترو، عندما دعاها لتناول همبرغر. ذلك الرجل المهمّ، بسيارته الرباعية الدفع من نوع بي إم دابليو، زاد ووصفها بالفاتنة عندما التقيا في المرة الثانية بعد حوالي شهر. في ذلك اليوم، بدا رقيقاً جدّاً وهو

يقبّلها، وسألها مرّتين إن كانت عذراء. هل يصير الرجال كلهم وحوشاً عندما ينفردون بامرأة؟ كلّا، كانت صابرينا موقنة أنّ ذلك ليس صحيحاً، فأبوها لم يكُن وحشاً، بل كان رجلاً طيباً. عند تفكيرها بأبيها خارت قواها ممّا أجّج رغبة لها في التبوّل كانت تستشعرها منذ حين. عاودها الشعور بالألم ومعه تبدّدت أفكارها. لن يخطرَ ببالها بعد اليوم أنها لن تحقق شيئاً ممّا كانت تحلم به، وأنها لن تعرف الحب، ولن تصير أمّاً، ولن تدرس الطبخ، ولن تعيش خارج البلد، كما كانت تتخيّل سابقاً. ستموت دون أن يخطر ببالها أنها لن تعود لرؤية أمها وأخيها أبداً، ولن تحضر حفل التخرج بالمعهد، ولن تكتشف مدينة لوس أنجلوس، ولن تجرّب تناول مخدّر الماريجوانا، ولن تشعر مرة أخرى بأنها أكثر فتيات الكون إثارة، ولن تتصالح مع أبيها الذي لم تغفر له يوماً تطليقه لأمها وتكوينه أسرة جديدة.

أدركت صابرينا عندئذٍ أنها كانت تظلم أباها، فمعلومٌ للعلاقات بين المحبّين انقطاعُها، وللحب ذهابُه إلى غير رجعة في كثير من الأحيان، وليس الذنب ذنب أحد. لقد وجد أبوها امرأة ترافقه، وكان ذلك شيئاً جيّداً. أضحت ترى الأمر على هذا النحو. بدا لها أن لويس أرماندو يتحرك بسرعة مستحيلة، شعرت وكأنه يصعد متسلّقاً الجدران إلى السقف ثم يعود إلى الأرض. أفرجت عن ضحكة بلهاء. لم تعُد تشعر بأي شيء، أو بالأحرى، لم تعُد تكترث بما تشعر به. يا للحسرة، ما كانت لتنتهي هكذا لو أنّها لم تكن بتلك السذاجة، أو فقط لو كانت أمها أكثر استعداداً للحوار، خمّنت. حاولت اتّباع تعليمات لويس أرماندو، لكن فجأة، بالرغم من محاولاتها لإرضائه، قال إنها مجرد جِلْفَة خشنة، وأن عليها أن تغادر

غرفته بسرعة وصرخ في وجهها. ظنّت صابرينا عندئذٍ أن كابوسها أوشك على النهاية، فبمجرد خروجها من تلك الغرفة، ووجودها بممرّ الفندق، سيكون كل شيء قد انتهى، وَسيبقى عليها فقط أن تنزل إلى الشارع وتطلب سيارة أجرة، وهاتِفاً لتكلم أمها، وبعدها لن تخرج أبداً مع حثالة من ذلك النوع، غريب ومختلّ عقلياً، ومتنكر في هيأة رجل شهم. غير أن ذلك الشخص الذي حسبته «جزءاً من ماضيها» استدار فجأة وأمسك بعنقها كما لو كان يريد خنقها، فدمعت عيناها، ولم تقوَ على الصراخ. لم تستطِع فعل أي شيء. رفعها من عنقها وقال لها إنه لن يكون في وسعها يوماً إسعاد رجل من الرجال، وإن جسدها، جسد الطفلة العليلة، مدعاةٌ للضحك. أرادت صابرينا أن تنهض، لكنها شعرت بوهن شديد. استمر لويس أرماندو في لعبته، كما لو كانت دمية يحرّكها كما يشاء، يجرّها من شعرها، يُديرها إلى هذا الجانب، ثم إلى الجانب الآخر، بينما هي لا تُبدي أية مقاومة. لقد جفت الدموع من مقلتيها وصارت تتخيل نفسها وقد فارقت الحياة، ورأت في ذلك فرجاً في نهاية المطاف. لقد خطر ببالها أنّ نهايتها ستكون في أول يوم تمنَّت فيه الموت، بعد ذلك انتبهت لِمرور أكثر من ساعة على وجودهما في تلك الغرفة وأدركت ألّا أحد سيأتي لنجدتها. لم تعُد لذلك أهمية. أغمضت عينيها. كان قلبها على وشك الانفجار ودمها ينزف. هي لا تدري من أيّ عضو في جسدها، لكنه ينزف. كانت تشعر بلزوجة دافئة في جهة ما، لعلها تحت السّاقيْن. لم تكن متيقنة. «كل هذه الدماء، فكّرَتْ، لم أعُد عذراء، لا، لم أعُد كذلك». تذكرت القفّازين الأبيضين اللّذين كانا ضمن اللباس الموحد أيام دراستها بمعهد خيمنازيو فيمينينو، واللّذين لطالما وصفتهما المديرة بـ«رمز الطهارة».

لم تَرَهُ وهو يرتدي ملابسه بسرعة، ويعقد رِباطَي حذائه بخفّة، ثم يعقد ربطة عنقه، كما لو أنّ كلّ ما قام به كان مجرد أداء مسرحي مُتقن، وأنه لم يكن مخموراً ولا مُخدراً أو أحمق. لم ترَهُ يرشّ وجهه بالماء. لم ترهُ يجلس فوق السرير ويهاتف أباه. لم تسمعه يحكي له ما وقع، فيُجيبه الآخر بأن راميلي سيتكلف بالأمر، وأن عليه أن يبقى مطمئناً. لم ترَ نفسها فاغرة فاها، بعينين مرعوبتين، كما لو أنّ حياتها بأكملها توقفت عند إطلاقها صرخة، وهي لا تدري شيئاً من ذلك، لأنها، بعد طول خشيتها من الموت، وبعد أن تمنّته من أعماقها، كانت صابرينا قد فارقت الحياة.

27

بالنسبة إلى دياثغرانادوس لا يوجد فرق كبير بين المحلّلة النفسية واختصاصية أمراض النطق واللغة أو الحمية الغذائية. لعلهُ بسبب دراستها في باريس، سيكون لها أفضل الخبرات في مساعدته على التخلّص من وزنه الزائد البالغ خمسين كيلوغراماً، دون أن يتخلّى عن الأكل، قال في نفسه. غير أنّ ما حمله في الواقع على الاتصال بها كان سؤالها عن ابنه. لقد سأل أنيبال ابنه ما إذا كانت له زميلة تُدعى ألين، فأجابه بالنفي، فصار يتساءل لماذا كذبت عليه تلك الدكتورة لتنتزع منه اسم ابنه، وهي التي لا علاقة تجمعها به وبعائلته في ما يبدو؟ لذلك طلب تحديد موعد معها؛ بَيْدَ أنه بمجرد أن حدّد الموعد، أمَر بأن يتتبعوا خطوات الدكتورة، وهكذا علِم أنّ واحداً من الأماكن التي تزورها باستمرار كان بيت الجمال، وبالصدفة، كانت زوجته بدورها واحدة من زبنائه الأوفياء.

بعد ذلك علِمَ أن فتاة جميلة تدعى كارن بالدس هي مَن كانت تتكفل بخدمة كلٍّ من كلير دالفارد وزوجته، وهي المومس التي كان راميلي يعاملها كحبيبة. فكّر عندئذٍ أن الثعلب لا ينام على الشوك إلّا مرة واحدة، وأن توخّي مزيداً من الحذر في ذلك الموضوع صار واجباً. فما الذي يمكن أن تعرفه تلك الفتاة عن القضية؟ ألم يكتبوا

في الصحف أنّ من بين آخر ما قامت به صابرينا غوثمان قبل موتها كان زيارتها لصالون تجميل في قطاع زونا روسا؟ وماذا لو كان ذلك الصالون هو بيت الجمال نفسه؟ ثم ماذا لو أن كُلّاً من كلير، وزوجتهِ، وكارن، والقتيلة، كنّ على اتصال بعضهن ببعض، داخل إطارٍ محظورٍ على الرجال، حيثُ تُحكى الأسرار وتحاكُ المؤامرات؟

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء بقليل. عادة ما يكون يوم الاثنين يوماً جيداً في بيت الجمال، لكنه اليوم كان سيئاً بشكل استثنائي. كانت كارن تودّ التحدث مع سوزانا، لإخبارها برغبتها في العيش بمفردها. أحسَّت برغبة كبيرة في الحديث، في التمدّد على الكنبة والدردشة مع صديقتها. لم يكن لها زبناء تلك الليلة. في الطريق، اشترت آيس كريم. ستكون تلك آخر ليلة تمضيها مع زميلتها تحت سقف واحد، لذلك ستعمل على أن تقضيانها بشكلٍ ممتع. لكن، ما أن دخلت الشقة، حتى شعرت أنّ الأمور لن تسير وفق ما كانت تتوقعه. رغم ضيق المكان، لم تكُن رؤية الجانب الآخر ممكنة، نظراً إلى تلك السحابة الكثيفة من الدخان. وهي ممدّدة فوق الكنبة، كانت سوزانا تشاهد برنامج تلفزيون الواقع «أبطال المسلسل» ورائحة الماريجوانا تخنق الأنفاس. ألقت كارن التحية دون أن تردّ سوزانا. جلست بجانبها، لكن دون أن تشيح بنظرها عن الشاشة، حيث كان نفر من الرجال والنساء، في شقة متواضعة، يتحركون جيئة وذهاباً، مُرتدين أقمصة سوداء طُبعت عليها أسماؤهم. قرأت كارن أسماء كلّ من «يوبر»، «بِينا»، «إفيرلي»، «عمر»، و«آنا ماريا». بعد أن اعتدلت في جلستها، لاحظت كيف أن بِينَا، بسروال جينز مليئ بالثقوب، وَشعرٍ مَدّدتْ طولَهُ بواسطة خصلات مستعارة، ورموش

صناعية صَبَغَتها بريميل أزرق، تخاطب يوبر قائلة: «يا لخيانة تلك الكلبة التي صوّتت ضد أعزّ صديقاتها، لأجل إخراجها من المنافسة». في المشهد الثاني، يظهر يوبر وهو يضع لسانه في أذن آنا ماريا.

- كيف حالك؟ حاولت كارن استدراج زميلتها للحديث.

- أنا أتابع هذا، قالت سوزانا وهي تسحب آخر نَفَسٍ من لفافة المخدّر.

- هذا البرنامج يُصيبني بالقرف.

كردٍّ على تلك الملاحظة رفعت سوزانا من حجم الصوت.

- إذا لم يعجبك لا تشاهديه، قالت، فاستشعرت كارن عندئذٍ رائحة كحول قوية صعدت في الأجواء.

- هل لي بجرعة كوكا كولا؟

- خذي واحدة، يوجد المزيد في المطبخ.

- أريد جرعة واحدة فقط، حملت كارن الكأس. طعم الروم جيّد.

- أعرف ما تحاولين القيام به، ردّت سوزانا.

أطفأت كارن التلفزيون عند الفقرة التي قالت فيها أندريا سيرنا: «والمهدّدُ هذا الأسبوع هو». نهضت سوزانا من مكانها مستشيطة غضباً.

- آويتكِ في بيتي، وفتحتُ لك الطريق لتحصلي على عمل تكسبين منه أجراً كبيراً، وأكثر من ذلك، عمل سيغيّرُ حياتك! وفي النهاية، تأتين أنت إلى هنا لكي تحاكمينني، كما لو كنتِ أفضل منّي.

- إذا كان هذا العمل سيغيّر حياتي، فلا أتمنّى أن يكون بالطريقة نفسها التي غيّر بها حياتكِ.

- ماذا تقصدين بذلك؟ قالت سوزانا.

- أنت تشربين كثيراً. تقضين معظم وقتك ثملة... بلسان ثقيل.

- ثم ماذا؟

- هذا ليس أمراً جيداً.

- وما الذي ترينه جيّداً بالنسبة لي، أيتها المنافقة؟

بقيت كارن صامتة. شغَّلت سوزانا التلفزيون من جديد. لقد اختفى «أبطال المسلسل». كان هناك صوت يقول: «أيها المحارب، خذ لك استراحة، فعائلتك في انتظارك»، وفي خلفية المشهد حقل عبّاد شمس أخضر، وسماء زرقاء، وبضعة أطفال يَجْرُون بين المروج.

- سأذهب إلى حال سبيلي، قالت كارن.

- انصرفي.

- لا، أنا جادة في ما أقول، سأغادر. وجدتُ شقة وسأقطن بها ابتداء من يوم غد. لقد أدَّيت إيجار شهر أكتوبر.

- وإيميليانو؟ وحلمك في استجلابه للعيش معك؟ كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أن ما تقولينه كذب في كذب، قالت سوزانا. واجهي حقيقتك، عزيزتي. منذ سنوات وأنتِ تتحدثين بالكذب. لستِ أفضل منّي، ودليلي أنكِ تخليتِ عن ابنك.

صفعتها كارن. أمعَنَت سوزانا النظر فيها ثم أضافت قائلة:

- كم كلّفك كراء هذه الشقة؟ مع أنني سبق وعبّرت لك عن استعدادي لكي نستقبل إيميليانو هنا، ولتقديم المساعدة.

- المكان هنا لا يتسع، تسرّعت كارن في القول.

- وهل يتّسع هناك؟ هل لديك غرفة خاصة به؟ أم أنه لا يمكنك ذلك، لأن المال الضروري لاستئجار شقة بغرفتين خسرتيه في شراء الأحذية الطويلة والفساتين والحقائب والعطور.

- دون أن تجيب عن السؤال، أخذت كارن دفتر عناوين سوزانا والهاتف اللّاسلكي وأغلقت على نفسها في غرفة الحمّام.

- أنت مجرّد عاهرة، اعترفي بذلك! محتالة وانتهازية، ولا يهمّك سوى الحصول على الأشياء الرفيعة! اللعنة عليك يا عاهرة! صرخت سوزانا وهي تضرب باب غرفة الحمّام بقوّة.

اغتاظت كارن كثيراً فبحثت عن حرف الميم في دفتر عناوين صديقتها. هناك وجدت رقم هاتف أم سوزانا، والتي لم ترها من قبل، لكن سبق أن سمعتها تتحدث مع ابنتها عبر الهاتف. ركّبت الرقم الذي عثرت عليه وانتظرت أن يرنّ مرّتين أو ثلاثة.

- ألو؟

- هل أتحدث إلى أم سوزانا؟

- أجل، مَن معي؟

- تتحدثُ إلى حضرتك كارن بالدس، صديقة ابنتك.

- هل وقع مكروه لسوسي؟ سألها الصوت في الجهة الأخرى.

- نعم، سيّدتي، لقد ساءت حالتها. إنها تشرب كثيراً وتستهلك المخدرات، وتتحدث بأشياء غير مفهومة، وهي الآن خارج أي سيطرة. لربّما يتوجب الإسراع بإيداعها المستشفى، أضافت كارن بصوت هادئ. أنا متأسفة جدّاً. لقد قمت بكلّ ما في استطاعتي لكن، في الحقيقة، ابنة حضرتك مريضة ولم يعُد في وسعي مساعدتها.

عندما خرجت كارن من الحمّام، كانت سوزانا قد غادرت الشقة تاركة التلفزيون مشغّلاً. جمعت كارن أغراضها بسرعة وكيفما اتفق، ثم ذهبت إلى حال سبيلها. بعد ذلك اليوم، انقطعت عنها أخبار سوزانا.

28

مرّت عدة سنوات عن آخر مرّة قامت فيها بعمل البيديكير والمانيكير، لكنها اليوم مضطرة لاستقبال أربعة زبائن على الأقل. كانت ديليا قد تغيّبت عن العمل فتمّ اقتسام مواعيدها بين الجميع.

جلست كارن مقرفصة وطفقت تبردُ بحجرِ الصقّل ما تقرّنَ من جلدِ قدمَي الدكتور ديل كاستييو. بجانبها جلست زوجته، وقد تكفّلت بخدمتها نوبيا، أقدم فتيات المحل.

نظرت كارن إلى تلكما القدمين الجافتين ذاتَي الأظافر الخضراء، وتساءلت مع نفسها، كيف ستكون حالة باقي جسد الدكتور ديل كاستييو. أشعرتها تلك الفكرة بغثيان خفيف وبرغبة ملحّة في إسناد ظهرها إلى الحائط.

- صحيح، عزيزتي، هذا مؤسف في الحقيقة. أنتِ ما زلت شابة، لذلك يجدر بكِ مغادرة البلد والبدء من جديد في بلد آخر. هنا تزدهر «كولومبيا جديدة» لا مكان فيها إلّا لأناس أثرياء لا ندري من أين أتوا ولا كيف جمعوا ثرواتهم، قالت دونيا إلينا للسيدة ماريا إلفيرا.

- حتى إننا في نادي الأهالي «كاونتري كلوب» لم نعُد نتعرف

على أغلب المنخرطين الجدد، لكن هذا لا يمنع من أن مشكلة الأغنياء الجدد موجودة في كلّ مكان.

- بكلّ تأكيد، قالت دونيا إلينا.

- هذا من دون الحديث عن العنف المستشري.

- اليوم أضحى مجرّد استقلال سيارة أجرة كالقفز من علوّ خمسة طوابق.

- لكن، ألم تسمعن حضراتكن خبر اليوم في الراديو؟ أحدهم يُدعى جون، خرج من إحدى الإقامات بقطاع تشابينيرو فجر يوم الأحد، ولرفضه الخضوع للجولة المليونية، أطلقوا عليه ثلاث رصاصات، قال الدكتور ديل كاستييو.

- نعم، قالت دونيا إلينا، وقد بدَتْ على علم بكلّ شيء، جون تول، عضو الوكالة الأميركية لمكافحة المخدّرات دي. إي. أي، لقد أكدوا في تويتر أنه لقي حتفه، يا للخسارة، كان أشقر ووَسيماً للغاية...

أحسَّت كارن بالغثيان، إلّا أنها قاومت الرغبة في التقيّؤ. أصيبت بدوار شديد. قامت بمجهود كبير لتتمكن من الصمود. تنفسَت عميقًا، كما طلبتُ منها أن تفعل. ركّزَت طويلاً على الشهيق والزفير، ثم شرعَت في العدّ من واحد إلى مئة، كما نصحتها أن تفعل كلّما داهمتها نوبة خوف. حاولَت في الأخير أن تتخيّل نفسها وسط حقل بالبادية، لكنها لم تزل تشعر بدوار شديد، وبالكاد نجحت في العدّ إلى عشرة.

- آه، يا للخجل، قالت دونيا إلينا، لهذا ساءت سمعتنا أمام الرأي العام الدولي.

- مؤلم حقّاً مآل هذا البلد، أضافت ماريا إلفيرا.

- يجب إلقاء القبض على هؤلاء الحثالة وتشديد العقوبة في حقهم، قال الدكتور ديل كاستييو. وهل تعرفين تفاصيل ما وقع؟

- لقد امتنَعَ الرجل عن تسليمهم حقيبته، فأطلقوا عليه ثلاث رصاصات، وتركوه ينزف إلى أن عثر عليه فاعل خير، فأقلّه إلى مستشفى سان إغناسيو، لكن لمّا وصل كان قد فقد دماً كثيراً...

- وأين وقع ذلك؟

- في تلك الحديقة الصغيرة الموجودة بشارع 59، تَصَوّرْ!

- شيء فظيع حقيقة، قال الدكتور ديل كاستييو.

تساءلت كارن في نفسها ما إذا كان هناك أميركي آخر غادرَ إقامات قطاع تشابينيرو، واجتازَ حديقة شارع 59 فجر يوم الأحد، فتلقّى ثلاث طلقات، غير جون، الأميركي الذي سلّمها في ذلك الصباح الباكر من يوم الأحد ظرفاً يحوي ستمئة ألف بيزو.

- وما الذي كان يفعلهُ الرجل في حي تشابينيرو في ذلك الوقت المبكر؟

- لا بدّ أنه كان مع إحدى بنات الليل. ألا ترى معي أنّ بذلك المكان توجد إقامات؟ قالت دونيا إلفيرا.

في تلك اللحظة تحديداً، فقدت كارن تحكّمها في مقص الأظافر، فأطلق الدكتور ديل كاستييو صرخة صغيرة.

- ألا يُرجّحُ أن تكون بنت الليل تلك شريكة في الجريمة؟ تساءلت دونيا ماريا إلفيرا.

- لا، عزيزتي، ينبغي التريث، وعدم خلط الأمور، فكون الفتاة مومساً لا يجعل منها قاتلة... عجوز خَرِفَة، قالها الدكتور ديل كاستييو منفعلاً، مُنهياً جملته بصوتٍ غير مسموع.

في تلك اللحظة، جرت بعض القطرات من دم الدكتور واختلطت بالماء.

- لكن عذراً، بحسب علمي، ليست المومسات قدّيسات، قالت دونيا ماريا إلفيرا.

- أسفي أكبر على عائلة القتيل، أضافت دونيا إلينا.

- مساكين، ردّت دونيا ماريا إلفيرا. هل تعلمون أن الرجل قاتَل في أفغانستان وجاء ليلقى حتفه في بوغوتا على يد مهمّشٍ متوحّش؟ هذا ليس عدلاً.

- المعذرة، قالت كارن.

جرَت مسرعة إلى الحمّام، وتقيّأت، ثم جلست على كرسي الحمّام، ومع إحساسها بدوّار شديد، حاولت استجماع شتات فكرها. فكرت لوهلة في الاتصال بويلمر، لتسأله ما إذا كان هو الفاعل. انتابها ضيق شديد، فنهضت من مكانها ونزلت إلى الطابق الثاني، دون أن تستأذن الدكتور ديل كاستييو، والذي طفق ينظر إليها مشدوهاً. دخلت المقصورة، بحثت في محفظتها عن بطاقة كونسويلو باريديس، وركّبت رقم هاتفها.

- معذرة دونيا كونسويلو، لويس أرماندو دياثغرانادوس هو الشخص الذي كانت ستلتقي به ابنتك يوم قمتُ بإزالة شعرها.

- من يُكلّمني؟ قالت كونسويلو باريديس، وهي لا تزال تحت وقع الصدمة.

- أنا كارن، من بيت الجمال.

- كيف ذلك؟ قالت كونسويلو باريديس في ما يشبه الصراخ. لماذا لم تخبريني من قبل؟ ما الذي تُخفينه أكثر من هذا؟ تكلّمي!

- لا أعرف أكثر من هذا. أعتقد أنّ الأمور ستسوء، وأطلب

من حضرتك ألّا تقولي إنني من اتصلَ بك. إذا وقع لي مكروه لاحقاً، اِبحَثي عن كلير دالفارد، رقم هاتفها متوافر لدى الجمعية الوطنية للمحلّلين النفسيين.

ل.أ.د، قالت كونسويلو وكأنها تُحدّثُ نفسها.

- ماذا قلتِ حضرتك؟ أضافت كارن.

- اِنْسَيْ الأمر، شكراً على اتصالك.

عندما أقفلت الخط، عادت كارن لتتساءل ما إذا كان ينبغي لها أن تتصل بويلمر. تردّدت للحظة، ثم ركّبت رقمه. ظل الهاتف يرن طويلاً، لكن، لا مَنْ يُجيب.



29

استأجر خورخي غوثمان خدمات محامٍ مقتدر. فبعد أيام قليلة من تكلّفه بالملف، تمكّن من دفع الشرطة إلى استئناف البحث في القضية، وتكليف عنصر منها بمباشرة التحريّات. لقد سطروا لائحة استجوابات يتعيّن القيام بها، تضمّنت صديقتين من صديقات صابرينا، والطبيب الذي حرّر شهادة الوفاة، وكارن بالدس، باعتبارها آخر شخص رآها حية، كما عُمِّمت أوصاف سائق سيارة الأجرة، الذي ترك صابرينا في بوابة المستعجلات، على كلّ مفوضيات الشرطة. من جهة أخرى، تمّ استصدار أمر قضائي بمباشرة التحريات في مختلف فنادق الجهة الشمالية من بوغوتا، بعرض صورة الضحية على المكلفين بالاستقبالات، وسؤالهم ما إذا كانوا قد رأوها. كما تمّ البحث في سجلات الضيوف عن اسمها، غير أنّ احتمال دخولها باسم مستعار قلّل من جدوى اتّباع مسار البحث ذاك. أمّا بخصوص تشريح الجثة، فلم يكن ممكناً البحث في تطابق الحمض النووي أو المني، نظراً إلى انصرام ثلاثة أسابيع تقريباً بين يوم الحادث ويوم إجراء التشريح. ولقد تمّ الحصول على نموذج من خط لويس أرماندو دياثغرانادوس، لكن الحصول على تقرير الخبرة في تحقيق الخطوط، بحسب تقديرات كوياك، يتطلّب

انتظار أكثر من أسبوعين. فإذا تأكّد تطابق الخطّين، يمكن إلحاق الوثيقة بملف القضية، والمطالبة إذّاك برصد مكالماته خلال الستة أشهر الأخيرة، وتحليل مضامينها. أمّا الدفع بحجة الحمض النووي، الذي كان من شأنه أن يشكّل الدليل القاطع على تورط المشتبه به، فلم تعُد له جدوى، بالنظر إلى التأخر في إجراء التشريح لعشرة أيام كاملة. لكن، ومع ذلك، لم يزل التحقيق مستمراً، ولأول مرة منذ ما يناهز الأربعة أشهر، لم تعد كونسويلو باريديس ولا زوجها خورخي غوثمان يتجرّعان مرارة الهزيمة المطلقة.

30

كان يوم 31 من أكتوبر، يوم عيد ميلادها. لتلك المناسبة الخاصة، اشترت لوسيا خبزاً بالشوكولاتة، وتناولته مرفوقاً بزبدية فراولة. كانت تتصفح الجريدة عندما استوقفتها فجأة صورة منشورة لإدواردو. لم يتعلّق الأمر بمجرد مقالة كتلك التي قرأتها قبل حوالي شهرين، والتي تطرّقت لتعاضدية «الصليب للصحة»، بوصفها واحدة من هيئات الوساطة في الخدمات الصحية المتهمة بالفساد، بل تعدّاه إلى اتهام إدواردو راميلي، الممثل القانوني للهيئة، باختلاس أموال الدولة. استمرّت لوسيا في قراءة المقالة، وقبل أن تكمِلها بدأ هاتفها يرنّ، ولم يتوقف بعدها تقاطر المكالمات. لم يكن المتصلون أشخاصاً يودّون تهنئتها، بل أناساً انزعجوا من محتوى المقالة، فشرعوا في الاتصال للتعبير عن تضامنهم مع راميلي. لقد سمعَت تعاليقَ من قبيل: «يجب توقيف هذه الجريدة الصفراء الكاذبة عن الصدور» أو«نحن على يقين من أن شخصاً كراميلي لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الأمور»، هكذا، باستعمال ضمير الجمع المتكلم، والذي بدا للوسيا مبهماً، لأنه لا يكشف بوضوح عمّن يشملهم ذلك الـ«نحن». حتّى أم لوسيا اتصلت بها بدورها، وبعد أن مرّت بالتحيّة مرور الكرام، عبّرت عن «استعدادها للوقوف معها في تلك الظروف

الصعبة»، باستعمال هاته الصيغة المسكوكة، التي أوّلَتها لوسيا كعربون تضامن من أمها مع طليق ابنتها، أكثر منه معها هي نفسها، وكمن يُودِعُ سرّاً، ختمت الأم بقولها: «يجب إيداع هؤلاء الصحافيون السجنَ بتهمة التشهير». فضّلت لوسيا الصمت. كانت تَهِمُّ بإطفاء هاتفها عندما وصلتها مكالمتي:

- كيف حالكِ؟ سألتها.

شرعت لوسيا في البكاء.

- هل تودّين مني القدوم إلى بيتك؟

- أسرعي، قالت.

صارت تنظر حواليها باستغراب. كل الأشياء، تلك التي لطالما رافقتها في حياتها، أضحت الآن تبدو غريبة عنها، بل طالها هي نفسها هذا الاغتراب، واكتنف كلّ حياتها. انتابها غضب شديد، إذ لم تستوعب لِمَ اتّخذَت قراراتها السابقة. فات الأوان عن استعادة المبادرة، فكّرت. لقد تأخّرت لسبعة وخمسين سنة عن البدء من جديد.

حملتُ معي علبة شوكولاتة وبطانية صوفية. أعدّتْ لوسيا الشاي. وصلتُ في وقت قياسي، بالنظر إلى حركة المرور في العاصمة، فوجدتها ترتدي بدلة رياضية، وآثار الزكام تظهر على وجهها المحمرّ.

- كيف حالك؟ سألتها الآن وأنا أنظر في عينيها.

أخذت لوسيا قطعة شوكولاتة من العلبة وطفقت تنظر إليها قبل أن تحملها إلى فمها.

- أتظنين الأمر صحيحاً؟ سألتُها.

- نعم، قالت لوسيا وهي تنظر إلى الجهة الأخرى، ثم أضافت:

- حياة المرء كلها مجرد اختلاق، أليس كذلك؟ شيء يختلقه من البداية إلى النهاية، بل حتّى تلك اللحظات السعيدة المزعومة، التي تمنحه بعض المعنى، هي بدورها محض اختلاق.

بإكمالها جملتها تلك، التهمت قطعة شوكولاتة بقضمة واحدة.

- أتريدين قطعة أخرى؟ سألتُها.

- لا، بل اسقني كأس ويسكي، طلبت منّي.

بدا لي من غير المُجدي أن أذكّرها بأن اليوم كان يوم ثلاثاء، وأن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً. بحثتُ في أدراج خزانة، إلى أن عثرتُ على زجاجة الويسكي، أخذتُ كأساً وملأته عن آخره، ثم قدّمته إليها.

- ألن تشربي أنتِ؟ سألتني.

- لديّ زبون في الساعة الواحدة.

غير أنني، ما أن أكملتُ جملتي، حتّى نهضتُ من مكاني، وسقيت نفسي كأساً أقل حجماً من الأولى.

- في سالف عهدي، كنت مهتمّة بالعالم... ظهر عندي في فترة من حياتي ميول إلى الأشياء الصغيرة جدّاً، تفهمين؟ كالقُراد والبراغيث...

أخذت لوسيا جرعة كبيرة من الويسكي.

- أظن أن أبي كان ينظر إليّ دائماً كامرأة ذكية، لكن في لاوعيِهِ، كان دوري الرئيس هو الزواج من شخص مهم، وزير مثلاً. كنت أبدو له رقيقة وكتومة، وَلطالما ردّد على مسامع أمي: «لوسيا

رقيقة وكتومة، سيكون زواجها ناجحاً». كنت أستغرب أن يصدر ذلك عن رجلٍ كأبي.

- ما حكايتك مع البراغيث؟

- كنت مهتمة بها كثيراً. كان من الممكن ربما أن أصير عالمة أحياء، متخصّصة في الجهاز التناسلي لدى الصراصير، مثلاً.

- ربما.

- ما عادَ إدواردو موجوداً هنا، هذا صحيح، لكنني بدوري لم أعُد هنا. أتفهمينني؟ لم يتبقّ شيء في المكان الذي كنت أحتلّه، كلير. بقي لي هذا الجسد الهرم القبيح، وأمانيَّ المكسّرة هاته، في عيش حياة بسيطة تتخلّلها بعض اللحظات من السعادة. دائماً ما كنت أسعى إلى إرضاء الآخرين، عزيزتي كلير، هذا كان منهجي في الحياة. آه، لو أمكنني العودة من جديد لأعيش حياتي، قالت لوسيا وهي تشرب جرعة أخرى من الويسكي.

- هل أنتِ غاضبة؟

- لستُ أدري، قالت لوسيا وهي تسحب بطانية كانت فوق الكنبة وتطويها بعناية. أنا حزينة. لماذا يجهد المرء نفسه في عيش حياة ليست حياته؟

- صحيح، حتّى أنك لم تنجبي طفلة تُؤنسك، قلت لها.

رمَتْ إليّ بوسادة.

- ولا هذا حتّى، أضافت وقد رسمت على محيّاها نصف ابتسامة. لحسن الحظ أن أبي لم يعِشْ طويلاً لِيرى هذا، فلو تأخّر به العمر لكانت حسرته كبيرة.

صمتت لوسيا. ألقت النظر بعيداً، كما لو كانت تشاهد برنامجاً تلفزياً في الجدار. صارت تفكّر في الكمّ الهائل من النساء اللائي كنّ

يشعرن مثلها بأنهن أضعن حياتهن مرضاة للغير، وأن كلّ ما كُنَّ يقُمنَ به لم يكن عن رغبة أو متعة، بقدر ما كنّ يُرائينَ بهِ الناس، ولربّما كان عدد الرجال من تلك الطينة كبير بدوره، إلّا أنّ المعطيات لم تسعفها للتأكد من ذلك.

أما بخصوصي أنا، ومع أن لوسيا لم تكُن تراني من تلك الفصيلة، فقد خرجتُ في نظرها كالهاربة من مجتمع وجدتُهُ ضيّق الأفق، إلى بلد أحسستُ فيه دوماً بالغربة. كنت طائراً بلا شجرة، لكنني كنت أشعر دائماً بالارتياح، وَمع ذلك، لم أحسّ تماماً بالسعادة. وجدت صعوبة كبيرة في تعلُّم الكيفية التي أهبُ بها نفسي للآخر على القدر الأمثل، أي أن أقوم بذلك بالقدر الذي لا يُفقِدُني نفسي.

لم أستطِعْ عندئذٍ إخفاء ابتسامة ساخرة انتابتني، لأنّ هذه المواضيع هي نفسها التي كانت تحفل بها كتب راميلي.

- كثيراتٌ هنّ النساء اللائي لا يَعينَ أنهن يعشن وضعية كالتي تتحدثين عنها، قلتُ.

- صحيح، وَلَكَم أغبطهن، وددتُ لو كنت واحدة منهن! قالت لوسيا.

أشعلتُ سيجارة، فأمسكَت بها لوسيا وأخذَت منها نَفَساً.

- لا أذكر أنك كنتِ تدخّنين، قلتُ.

- لقد توقفتُ عن ذلك منذ أكثر من عشرين سنة، فأنا لا أحبّ التدخين، قالت وهي تسحب نفساً آخر. لقد كتبتُ ذلك في اليومية، قالت ذلك وهي تقلب الصفحة لإظهار شهر يوليو؛ هذه الدائرة الحمراء تعني أنه منذ ذلك اليوم لا أحد بإمكانه التدخين هنا.

- لكننا ندخن الآن هنا، قلت.

- طبعاً، أنتِ وأنا مستثنيتان من القرار.

- هذا يبدو عادلاً، أجبتها.

منذ مدة ليست بالقليلة وأنا أتساءل كيف يمكن لمبيعات الكتب أن تدرّ علينا كلّ تلك الأموال... كانت الشكوك تساورني، غير أنني أشحتُ بوجهي لربما عن رؤية الحقيقة، لم أشأ أن أفتح عيني.

- لا تلومي نفسك بسبب ذلك.

- لمن نحمّل المسؤولية إذاً؟

- للا أحد.

- في هذا البلد، لا أحد مسؤول عن أيّ شيء.

- ماذا تقصدين بهذا؟

- لا بد لأحد أن يتحمل المسؤولية، عزيزتي كلير. لا بدّ أن يكون هناك مذنب.

- إذاً فلتكوني أنتِ... أهذا ما ترمين إليه؟ هل تودّين التطوّع لتحمّل المسؤولية؟

- أتعلمين أنه يوجد أكثر من ألفين ومائتي نوع من البراغيث؟ قالت لوسيا وهي ترتشف ثمالة كأس الويسكي.

- لكن، مَن ذا الذي يجرؤ على سرقة أموال قطاع الصحة؟ قلتُ.

- زوجي السابق! ردّت لوسيا وهي تسقي نفسها كأساً ثانية. ذلك الحثالة الذي نمتُ في حضنه لما يربو عن ثلاثة عقود!

- نعم، السارق هو، لستِ أنتِ.

- إنه المرشدُ الكبير في مجال الرّوحانيات وقيم الحياة اليومية، والمبشّر بقيم السعادة والشفافية في مؤلفاته التي أكتبُها أنا!

- ماذا قلتِ، لوسيا؟

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص كونك أنت مَن تكتبين الكتب، هل أنت مجِدّة في ما تقولين؟

صمتت لوسيا.

- هل صحيح أنكِ مؤلفة كتاب **أقدِّرُ نفسي**؟

أُصِبتُ بنوبة ضحك مفاجئة، دَمعَتْ لشِدّتها عيناي، واهتزّ لها سائر جسدي. كانت ردّة فعلي قوية ومباغتة. أنَخْتُ بجسدي على الكنبة وتمدَّدتُ. للوهلة الأولى، نظرَتْ إليّ لوسيا مستغربة، ثم صارت عدوى الضحك تجتاحها شيئاً فشيئاً، إلى أن انغمرنا معاً في وصلة قهقهة هستيرية، بعد ذلك صرنا نسترجع هدوءنا رويداً رويداً. لم يكُن الوقت مناسباً لأُغرِقَ لوسيا بأسئلتي المحرجة، حول ملابسات تحوّلها إلى كاتبة شبح لزوجها السابق، يكفي أننا فتحنا باب الاعتراف.

- الآن وقد وقفتِ، هل تتصوّرينَ أن تحت حذاءك قد يوجدُ زوجان من البراغيث منهمكان في عملية توالد؟

ابتسمتُ لطرافة فكرتها.

- مع أنك كنت مهتمّة بعالم البراغيث، انشغلتِ في النهاية بالبشر، كيف استطعت الذهاب بعيداً في هذا المجال؟

- سمحتُ بأن يجرفني التيّار.

بحلول منتصف النهار، صرنا كلتينا ثملتين. أعدَّتْ لوسيا قهوة مزدوجة.

- ألم تفكري يوماً في كتابة السرد؟ سألتها وقد صارَ فنجان القهوة حينها بين يديّ.

- لم يخطر ببالي.

- أنت تتوفرين على قلمٍ شديد المِران، وَلا يعوزك الخيال من دون شك، قلتُ لها. لقد أعجبتني حكاية البراغيث التي تتوالد، وهي تصلح في نظري لتكون سلسلة رسوم ساخرة، أو قصة مصوّرة.

- يبدو اهتمامك جدّياً، عزيزتي كلير، أمّا الموهبة السردية، فأنتِ مَن تتوفرين عليها حقيقة، ولعلّك تشتغلين الآن بمشروع سردي من دون وعي منك.

- لم أعُد في سنٍّ تسمح لي بذلك، قلت.

- ألستِ تُلحّين دائماً على أننا في مرحلة رائعة من العمر؟

- بَلى، لكن لأجل القيام بأمور معيّنة، أما بعض الأمور الأخرى. . . تَخيّلي مَن سيأتي لزيارتي في موعد الساعة الواحدة!

- مَن؟

- شريك زوجك السابق.

- دياثغرانادوس؟

- هو نفسه.

- هذا ليس أمراً طبيعياً.

- أعرف ذلك.

- إنّ عدم إيمان ذلك الشخص بالتحليل النفسي لا يضاهيه إلّا عدم إيمان مُسلمٍ بالطفلِ الإله.

- لا أفهمُ لِمَ تستبعدين أن يؤمن مسلمٌ بالطفل الإله، قلتُ.

- إذا كانوا فعلاً قد قاموا بما قيل أنهم قاموا به، فهم خطيرون حقّاً.

- أنتِ تتحدثين بصيغة الجمع.

- أعرف، وَأشكّ في براءة إدواردو.

- وهل تصل خطورتهم درجة القتل؟ سألتُها وقد انتابتني حالة صَحو مفاجئة.

- لست أدري. الأمر خطير للغاية، قالت لوسيا، لقد استخلصوا تعويضات بالوكالة عن مستفيدين، وباسم مرضى متوفين، وعن أدوية لم يتم تسلُّمها، وعلاجات لم تتمّ الاستفادة منها. . . فورْطتُهم كبيرة جدّاً وفضيحتهم تزكم الأنوف، حتّى أنّ جريدة لا ريكونترا أوردت رقم ثلاثة ملايير بيزو من الأموال المسلوبة. اِذهبي إلى موعدك، أضافت لوسيا، شكراً لمجيئك. لا تتصلي بي بعد اليوم في الهاتف الخلوي إذا أردتِ محادثتي في الموضوع، فالأمر ليس مزحة.

- لنضرب موعداً في الأسبوع المقبل إذاً. هل تودّين القدوم إلى بيتي؟ بذلك سأخبرك عمّا دار بيني وبين دياثغرانادوس، ونفكّر معاً في ما ستُقدِمين عليه.

- سيكون هذا كابوساً حقيقياً، لن يصدّق أحد أنني لم أكُن أعرف شيئاً، قالت لوسيا.

- قد يتصلون بكِ لسؤالك عن بعض الأمور، لكن الأمور ستهدأ بعد ذلك، سوفَ تَرَيْن. هل لي بسؤال؟

- اِسألي ما شئتِ، قالت.

- كيف حدثَ وأغرمتِ بإدواردو؟ لا أفهم ذلك.

- ولا أنا. كان يُشعرني بالرقة، ويعطيني انطباعاً بأنه أعزل، بلا حماية، وشعوري بأن بوسعي أن أكون عزاءه كان يستهويني كثيراً. . . عدا ذلك، لا فكرة لديّ في الواقع.

تعانقنا عند الباب.

- هل تتذكرينَ كارن؟ تلك الفتاة التي سبق أن حدّثتكِ عنها؟

لقد توفيت زبونة لها في ظروف غريبة، بعد موعد لها مع لويس أرماندو دياثغرانادوس، ابن أنيبال، فتمّ استدعاؤها كشاهدة، قلتُ.

- وما رأيك أنتِ؟ هل تظنين أنّ للفتى علاقة بموتها؟

- لست أدري، في الحقيقة، قلتُ، لكنهم قد يكونون أخطر ممّا نتصوّره.

- أعرف ذلك. لا أظن أنّ إدواردو يدرك إلى أيّ حدّ هو مرتبط بمجرمين، قالت لوسيا.

- أتظنين أنه بريء؟

- بريء، ليس تماماً. قد يكون لصّاً من ذوي الياقات البيضاء، لكنه ليس قاتلاً، أضافت.

- من الأفضل إذاً أن تُعلِميه بما يجري، قلتُ لها، فلعلّه أكثر سذاجة ممّا تتصورين، فلا يُقدِّرُ حجم الخطر المحدِق به.

- ماذا تقصدين؟ أتظنّين أنهم قد يؤذوه؟

- لست أدري، قلتُ.

- صحيح أنهم شركاء، لكن كامل المسؤولية تقع على كاهل إدواردو في هذا الملف، قالتْ لوسيا.

- كلامك صحيح، لكن، ألا ترين معي أنّ دياثغرانادوس قد يخشى من أن يورّطه راميلي معه في هذا الملف؟

- لا تتركيني وحيدة في مواجهة هذا الأمر.

تعانَقنا للمرة الثانية، ثم انصرفتُ.

31

لم تَعْتَدْ كارن النظرَ إلى الخلف. فَلِفَرْط انغماسها في الرّوتين اليومي، لم يعُد يُسعفها الوقت لاسترجاع الذكريات، مع أنه، بين الفينة والأخرى، كانت بعض الهواجس تجتاحها، ولو للَحظات وجيزة. هذا ما كان من أمرها في يوم من الأيام، وهي في بيت أحد الزبناء بحي سانتا آنا، عندما انهمكَت لوقت طويل في مداعبة بعض الستائر، وتفكيرها كله منصبّ حول نوعية الفستان الممكنِ لها صناعتُه من ذلك القماش. هكذا، من حين إلى آخر، تتكلّف صورةٌ ما، أو رائحةٌ، أو ألمٌ، بتذكيرها بِمَن تكون. لكن، مَن تكون هي يا تُرى؟ حينما كانت تنظر إلى وجهها في المرآة، وهي تتأهّب للخروج، بشعر رطب، وحذاء طويل، وحقيبة ومعطف، كانت تعرفُ أنّ كارن تلك، على تلك الصورة تحديداً، امرأةٌ بوسعها أن تلج بوّابة أية بناية، دون أن يتمّ تفحّصها من الأعلى إلى الأسفل، وأنهم سينادونها بلقب «الدكتورة» أو «الآنسة»، أو «السيدة»، بنوع من الاحترام في طريقة توجيه الخطاب، مَرَدّه إلى هندامها، وشعرها الحريري، وطريقتها في تنغيم الكلمات. لحظتئذٍ، تريد كارن أن تكون تلك المرأة التي تنظر إلى نفسها في المرآة، في ردهة تلك الشقة ذات الأرضية الرخامية، والصنابير المطلية باللون الذهبي، لا

تلك التي كانت تداعب الستائر، متخيّلة فستاناً مصنوعاً من ذلك القماش، ولا تلك التي تتذكّر بنوع من الحنين حرارة منتصف نهار قائظ من نهارات كارتاخينا، حيث مرقص السالسا بجدرانه المتصبّبة عرقاً، وهي ترتمي في حضن رجل غريب، لمجرّد أن تتماهى كلّياً مع الإيقاعات الموسيقية، من دون حاجة منها إلى الكلام حتّى، وبحرية مطلقة في أن تعود إلى طاولتها للجلوس، بمجرّد نهاية الأغنية. ورغم الجوع والخوف وقلة النوم، ورغم تلك المداومة الليلية المستمرّة، والتي حكمت عليها باليقظة الدّائمة، وجعلتها تبدو كالمصعوقة، فلقد آثرت كارن أن تكون تلك الشخصية الجريحة، المنكسرة، لكن التي تحظى بالاحترام.

لعلّ استثمار كارن الكبير في أن تصيرَ سيدة تُعطي الانطباع بأنها غنية ومتعلّمة، ورغبتها الجامحة في التماهي التّام مع تلك الصورة التي رسمتها عن نفسها، هو ما جعلها تشعر بالارتياح وهي تتجول في أروقة المركز التجاري أنذينو في صبيحة يوم أحد، وسط أمهات يشترين في آخر لحظة هدية عيد ميلاد إحدى صديقات بناتهن، وأطفال سِمان لا يتوقفون عن ركوب آلات اللعب الميكانيكية، ومُسِنّون يلجون قاعة السينما، مستفيدين من تخفيضات يوم العرض الخاص بالمتقاعدين، وواجهات محلات تجارية تعرض منتوجات باهظة الثمن، ورجال أعمال يبحثون عن هديّة عيد ميلاد لمؤسسة من المؤسسات أو شخص من الأشخاص. كان مظهر كارن من الغنى بما يكفي ليشعرها بأنها مرحبٌ بها من طرف مَن كانوا يبدون من قبل وكأنهم يرفضونها.

لعلّ ذلك ما جعلها تتفاجأ عندما نادت عليها دونيا خوسيفينا دي بريغارد. سألتها عن نوعية أحمر الشفاه الذي بدأت تستعمله في

الأسابيع الأخيرة. أجابتها كارن بكلّ سذاجة، وبحماس شديد. بعد ذلك سألتها من أيّ محل اشترت معطفها، وحذاءها الطويل، وحقيبتها، قبل أن تضرب لها مثلاً وتقول:

- «مهما تزيّن القرد بلباس الحرير، قرداً سيبقى وغزالاً لن يصير».

ثم أضافت، أمام ذهول كارن وغضبها الشديد:

- لا شيء يبدو متناسقاً في لباسك، عزيزتي. تبدين كنسخة مبتذلة لإحدى السيّدات اللّائي يمررن بمقصورتك.

لم تنبس كارن ببنت شفة.

- هل يمكنني الانسحاب، سيّدتي؟

- يمكنكِ ذلك، قالت لها خوسيفينا دي بريغارد وهي تركّز نظرها على بعض الأوراق، دون أن تلتفت إليها.

دخلت كارن الحمّام وأقفلت على نفسها، لكنها هذه المرة، بدل أن تقطع شريانها، أو تتصل بويلمر، أو بِي أنا، طفقت تنظر طويلاً إلى المرآة، في محاولة منها لفهم مكمَن الخطأ في هندامها لذلك اليوم.

32

وصلتُ إلى بيتي متأخرة بعشر دقائق. فتح لي الباب دياثغرانادوس وقال لي:

- مرحباً، عزيزتي كلير.

طلب منّي بعد ذلك أن ننتقل إلى الصّالة الصغيرة التي أخصصها لعيادة المرضى، ثم أخذ مكاني، بحيث لم أجد بدّاً من أن آخذ مكان المريض. أثار استغرابي اختفاء لوث، الخادمة، فلم أجرؤ على سؤاله عنها.

- لقد ذهبت لوث إلى الصيدلية لتشتري لي دواء ارتفاع الضغط، قال وكأنه قرأ أفكاري.

- وكيف لها أن تتركَكَ هنا بمفردك؟

- لعلّ لي قدرة كبيرة على الإقناع.

- عن طريق التهديد، مثلاً؟ سألته.

- بل عن طريق التقمّص الوجداني، قال وهو يغمز بعينه.

- وكيف يتحقّق هذا التقمص الوجداني؟

- أفضل أن تجيبيني أنتِ، دكتورة كلير: هل حضرتك ممّن يُسئنَ معاملة خادمات البيوت؟ لأن زوجتي واحدة منهن، وهي مع

ذلك امرأة طيبة، فلا تسيئي فهمي، إذ لم يسبق لي أن رأيت امرأة طيّبة لا تقوم بذلك.

- ما الذي تقصدهُ بهذا؟

- أوَبهذه الطريقة تكسبين حضرتك ثلاثمئة ألف بيزو خلال ساعة واحدة؟ عن طريق طرح الأسئلة المضادة؟

- وهل هذا يعني أن نائبنا المحترم يجد صعوبة كبيرة في كسب أجره؟

- لِنَقُلْ إنّ عملي أصعب بكثير من الاسترخاء في أريكة وطرح أسئلة تافهة.

- أهكذا تتمثَّل حضرتك عملي؟

- تنمُّ طريقتك في مخاطبتي عن بعض العدوانية، دكتورة، قال دياثغرانادوس.

لمعت عيناه الصغيرتان كعيني خُلد، وسط وجهه الضخم المترهّل، المحاط بِلُغدٍ سميك.

- هل ترغب حضرتك في كأس ماء؟

- شكراً، قال دياثغرانادوس.

خرجتُ لأحضر الماء. صرتُ أتساءل كيف استطاع جعل لوث تغادر المنزل. عدت ومعي الكأس فوجدتهُ يفكّ ربطة عنقه، كما لو كان يشعر بالاختناق. هممتُ بطرده من بيتي، غير أنني تمالكت نفسي، ثمّ تملّكتني رغبة في إلقاء الماء على وجهه، لكنني لم أفعل. لقد جَبنْتُ. قدّمت له كأس الماء الذي شربه بجرعات كبيرة، بينما صرت أفكر في الكيفية التي أتخلص بها منه، بالإجهاز عليه هنا في عيادتي؛ بواسطة شمعدان الحديد المشبّك، قلت في نفسي، أو بسكين قطع الورق، الذي ورثته عن جدّتي. صار خروف البحر ذاك

يعبّ الماء محدِثاً صوتاً مزعجاً. كانت يداه ضخمتين ومشعّرتين، وأصابعه صغيرة. تساءلت كيف استطاع الوصول إلى شقتي ودخولها، وقبل ذلك ولوج البناية. تعليماتي لِلوث، مثلها في ذلك مثل سائر خادمات البيوت، كانت صارمة، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحارس. لم يكن هذا الأخير مخوّلاً بالسمّاح لأيٍّ كانَ بالدخول، إلّا بإذن من المالك أو أحد القاطنين.

- لِمَ طلبتَ حضرتك موعداً معي؟

- رأيتُ حضرتكِ تسلّمين على زوجتي في حفل زفاف ابن الوزير.

- لا أفهم هذا الربط.

- حضرتك سلّمتِ على روساريو، زوجتي.

- كلتانا زبونتان بصالون الحلاقة نفسه، هل يُعدّ هذا جريمة؟

- كيف هذا؟ هل تحدّث أحد هناك عن جرائم؟

شعرت فجأة بالاختناق، من جرّاء سكري الخفيف، الذي شلّ فكري، وشعوري بالخوف، ورائحة العطر القوية التي كان يعبق بها المكان. ما الذي ستكون عليه رائحة الرجل يا ترى إذا لم يفرغ عليه نصف زجاجة عطر باتشولي كل صباح؟ شعرت بنوبة غثيان يتهيأ في معدتي.

- تصوّري حضرتك أن جدّي كان من المحافظين المتشدّدين؛ ولطالما حكى لي كيف أنه في سنوات العنف كان يرفع مِحَشّاً كبيراً ويُدرّب الصيّادين على قطع الرؤوس بسهولة كبيرة، كما تُقطع الأزهار. هل تعلمين حضرتك أنّ بإمكان الرأس مواصلة الزعيق بعد قطعه؟

- لم أكُن أعلم، لكن يبدو لي هذا غير محتمَل الحدوث علميّاً.

- ولا يبدو لك مضحكاً؟ قال دياثغرانادوس وهو يصدرُ صوتاً كالنعيق.

- كلّا، في واقع الأمر.

- انظري حضرتك، يا دكتورة، لقد نشأتُ في كنف عائلة تتَّسم بالصرّامة، ولقد اشتغلنا دائماً بالسياسة، ودافعنا عن مصالحنا بشراسة الذئاب.

- ما زلتُ لم أفهم ما الدّاعي إلى كلّ هذا.

- الأمر بسيط: مَن تدخل في ما لا يعنيه، سمع ما لا يرضيه، ومَن زرع الريح حصد العاصفة. هل كلامي واضح؟ قال أنيبال.

- هل هذا تهديد؟

- لحضرتك تعلّق غير طبيعي بهذه الكلمة، يا دكتورة، يجدر بكِ دراسة هذه الحالة.

- لقد انتهى الوقت، قلت وأنا أنظر إلى الساعة، بينما أخرجَ أنيبال حزمة أوراق نقدية.

- بوسعي شراؤه. أسبوع، شهر، سنة. حياتك بأكملها.

- الأمور لا تسير بهذه الطريقة، قلتُ.

- لدي انطباع بأنّ حضرتك، وسائر المثقفين والأكاديميين، تتشبثون بالقوانين والوثائق، وتنسون الواقع. اسمحي لي، يا دكتورة، أن أقولها لك بكلّ وضوح: إنّ حضرتكِ هي مَن ترفض أن ترى كيف تسير الأمور.

- وما هو هذا الواقع الذي أجهله، بحسب حضرتك؟

- واقع أنّ الرأس يواصل الزعيق بعد قطعه.

- عدنا مرة أخرى للتهديد.

- سمّيه ما شئت. أريد فقط أن أقول لحضرتك أن هناك أشياء يجدر بالمرء عدم السعي إلى تجريبها، ولتقبلي هذا كنصيحة من صديق.

- شكراً على النصيحة، قلت. اِنصرف الآن حضرتك.

- هل صحيح أنّ ما يُقال هنا يبقى حبيس هذه الجدران؟ وإلّا، سيكون عليّ التشكيك في مهنية حضرتك.

لم أتمكن من إجابته. انسدّت حنجرتي تماماً وصرت أرتعش، ثم، بعناءٍ شديد، نهضت من على الأريكة وفتحت له الباب.

- تفضّل، حضرتك، قلتُ.

ثم أضاف قبل أن يخرج:

- لحضرتك صديقة تُدعى كارن بالدس، هي فتاة لا حول لها ولا قوة، لكن حضرتك تتصرفين كمعمّرة جاءت لمساعدة الفقراء. لي نصيحة لك يا دكتورة: اتركي تلك الفتاة تواجه مصيرها لوحدها. لقد انتهينا من معالجة قضيتها، ولا مجال لفعل أيّ شيء، ومَن حاول التدخل سنحرقه.

- ماذا فعلَت كارن؟

- ليست كارن كما تتصوّرينها حضرتك، كارن بالدس مومس وقاتلة.

- هذا محض افتراء، قلتُ. ما الذي تنوون فعله معها؟ ألححتُ عليه بصوتٍ منكسر.

- هوّني على حضرتك، سيدة دالفارد، وكوني ممتنة لأنك وابنتك تنعمان بالحرية والصحة الجيدة. سأشرح لكِ الآن كيف يكون لغياب أحد برلمانيي الجمهورية عن الجلسة العامة عواقب وخيمة على الوطن. نحن بصدد مناقشة مشاريع قوانين من العيار

الثقيل، كإصلاح قطاع الصحة على سبيل المثال، والقانون الإطار للسّلم، وما أدراكِ ما هو. لذلك أطلب من حضرتك ألّا تضطرّيني للعودة إلى هنا، لما فيه مصلحة حضرتك، ومصلحتي وكذا مصلحة الوطن؛ ثم هناك شيء آخر أودّ أن أطلبه منك قبل أن أغادر: هل تعرفين أي دواء يمكنني تناوله لإنقاص الوزن؟

- لا، قلتُ.

- طبعاً، لم يخب تكهني، فتكوينُ حضرتك «الطبي» لا ينفع سوى في مناوشة الأمراض الوهمية.

نهض من على الكرسي ببطء شديد، وعندما فتحَ الباب، لمحتُ لوث في عتبة المطبخ. كانت تحمل بين يديها علبة صغيرة وتُحملق في خجل.

- شكراً، أختي، قال لها أنيبال وهو يقوم بانحناءة تقدير.

- العفو، أخي الكريم. كان شرفاً لي خدمة حضرتك، قالت لوث.

- وكيف دخل إلى هنا؟ سألتها بمجرّد أن أغلق الباب خلفه.

- إنه الكاهن. هو برلماني وكاهن.

- قال لكِ ذلك فتركتيه يدخل؟

- نعم، سيّدتي.

- لماذا؟

- إنه أخ لي، ننتمي كلانا إلى الجماعة الدينية نفسها.

انتابني غثيان مفاجئ، فقمتُ مسرعة إلى الحمّام، وتقيأت كؤوس الويسكي التي كنت قد تناولتها رفقة لوسيا. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً، وكان في انتظاري أربعة مواعيد أخرى، قبل أن أنهي يوم عملي. بعد أن قمتُ بوصلة غرغرة، عدّلت وضع

تنّورتي أمام المرآة، وخصلة الشعر خلف الأذن، ثم عدت إلى العيادة، لأجلس هذه المرة على الأريكة الجلدية.

مرّت فترة بعد الظهر ببطء شديد. استمعتُ إلى مرضاي كمَا لوْ عبرَ حاجز زجاجي، كما لو كنت وسط حوض أسماك، فصارت أصداء أصواتهم تصلني مفكّكة وبعيدة. أخيراً، بنهاية موعدي الأخير، تمدّدت على السرير، وطفقت أشاهد نشرة الأخبار. وسط مشاهد حالة الجو السيئة خلال فصل الشتاء، وصور أناس غارقين في الأوحال، بلا مأوى ولا غذاء، وجدتُني أفكّر في العلاقة التي تربطني بِلوث، والمبنية وِفقاً لِطقوسٍ يتمّ استبطانها منذ فترة الطفولة. لقد لقّنوها إحناء الرأس، وحفظت عن ظهر قلب عبارات «نعم، سيّدتي»، «لا، سيّدتي»، «في أية ساعة ستتناولين حضرتك وجبة الغذاء، سيدة كلير؟»، بينما لُقِّنتُ أنا كيفية إعطاء التعليمات، برأس عالٍ وَنبرة صوت حادّة، كحبل مشدود بقوة: «طبق الدجاج كان ناجحاً»، «يمكنك العودة إلى منزلك الآن»، «لا تنسي تمرير المكنسة الكهربائية بالعيّادة». فصارت لوث، وقد تعلّمت الخضوع وإحناء الرأس، تتبع التعليمات حرفياً، تشير بالموافقة وتبتسم، تبتسم وتُشير بالموافقة. لقد شعرت بنوع من الخجل، عندما اكتشفت أنّ أنيبال تمكّن من التواصل معها إنسانياً خلال بضعة ثوانٍ، بل أكثر ممّا كنت أفعله أنا، مع أنني كنت أراها يوميّاً تقريباً، خلال السنة والنصف المنصرمة. فما الذي أعرفه أنا عن لوث، عدا كونها من بلدية كومبيتا، وأن لها طفل وحفيدين؟ لا شيء، حتّى إنني لا أدري ما إذا كانت تشرب قهوتها بالسكر أم من دونه.

33

لقد كانت كارن سيدة معنّفة، وكان علاجها يكمنُ في أن تحطّم نفسها إرادياً. وبمرور الزمن، وتوالي انكساراتها، أضحت أكثر قدرة على المقاومة. كان الخضوع بالنسبة إليها شكلاً من أشكال التدمير الذاتي.

لمحت كارن شقّاً في الحائط، ففكّرت أن تُخبر بذلك إدواردو، لكنها لجمت نفسها. لقد داعب خدّها بحنّو كبير، وعينين خضراوين. نظرت إليه كارن، لم يسبق أن بدا لها على تلك الدرجة من الشيخوخة.

- تعجبينني كثيراً، قال لها وهو يربت بكفّه على كتفها.

كان ذلك يوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر، يومين قبل عيد ميلاد لوسيا، الموافق ليومِ الهالوين، ويوم ظهور صور إدواردو في الصفحات الأولى للجرائد، بوصفهِ مسؤولاً عن تحويل ما يقرب من مليار بيزو، من مبلغ الثلاثة ملايير المختلسة من قطاع الصحة بالبلد.

- هناك خدمة أودّ أن أطلبها منكِ، قال لها.

- أنا رهن إشارتكَ، قالت كارن وهي تتحيّن فرصة الذهاب للاستحمام بفارغ الصبر.

- هل لي أن أستودعكِ قدراً من المال، لتحفظيه عندك، لمدة أسبوع أو أسبوعين على أكبر تقدير؟

صمتَت كارن.

- سأخبركِ بالحكاية، لتطمئني أكثر، ولِتعلَمي مقدار الثقة التي أضعها فيك، وتتأكدي أنني لن أسمح بأن يصيبكِ مكروه.

- عن أية حكاية تتحدث؟

حدَّثها إدواردو عن فجر يوم 23 يوليو، عندما كان ممدّداً على الكنبة في بيت طليقته، بعد تناوله عدة كؤوس ويسكي، قبل أن يتلقّى مكالمة من شخص قريب، كان يريد أن يخفي معالم جريمة ارتُكبَت في حقّ فتاة شابة.

حكى لها عن لقاء المتجر الكبير كاروبا، الذي يفتح أبوابه لأربع وعشرين ساعة متواصلة، فجر ذلك اليوم الذي عقدوا فيه العزم على تركيب سيناريو إخفاء معالم تلك الجريمة. حدّثها عن الطبيب المتورّط وَسائق سيارة الأجرة، اللذين تحدثا إليهما شخصياً. طفقت كارن تنظر إليه مستغربة، وكأنها تراه للمرة الأولى. بدا لها مستحيلاً أن يكون الشخص الذي ساهم في إخفاء معالم جريمة قتل هو نفسه مؤلف الكتب التي كانت تقرأها. شعرت حينها بالاستياء، وبالوقوع في أسرِ قصتهِ في آن.

افترضت كارن أنّ شريكه الخطير ذاك لن يكون شخصاً آخر غير دياثغرانادوس، والد لويس أرماندو. في الأخير، وكما لو كان يوجّه حديثه إلى شخص آخر، أضاف إدواردو:

- إذا تطوّرت الأمور يوماً ما، اتصلي بالنائب البرلماني أنيبال دياثغرانادوس، فهو شريكي، وهو على علمٍ بأنك تحتفظينَ بالمال.

«لم أقل بعد إنني سأحتفظ به»، هذا ما خطر ببال كارن، لكنها لم تقوَ على التصريح به، وبدلاً من ذلك سألته:

- هل لهذا علاقة بلويس أرماندو دياثغرانادوس؟

- هو الابن، قال إدواردو. هل سبق أن كان زبوناً لكِ؟
- لا، قالت كارن، ثم صمتَت، مع أنّ السؤال أثار استياءها.
- حسناً، لست أستغرب ذلك، فَمِثْلِيَتُه لا تخفى على أحد، أضاف إدواردو وهو يلفّ جسده في رداء من حرير.

تساءلَت كذلك ما إذا كان لويس أرماندو دياثغرانادوس هذا شخصاً آخر غير ذلك الذي ذهبت صابرينا لملاقاته، في اليوم الذي استقبلتها فيه للمرة الأخيرة. وحينما كانت تستحمّ، فكرت في ما قد يحدثُ إن هي رفضت الاحتفاظ بوديعة إدواردو. عندما انتهت من الاستحمام، سمعت صوت حديث في الصالة. ارتدَتْ ملابسها بسرعة، وقد عقدت العزم على مفاتحتي في الموضوع. كان هناك رجلان واقفان يراقبانها، وبالقرب منهما حقيبة كبيرة. أدركت عندئذٍ فقط، ولأول مرة، أنها قد تكون في خطر كبير.

- كارن، حبيبتي، سيُرافقك هذان الرجلان إلى شقتك لحفظ المال.

كانت حقيبة كبيرة قد تسع سبعين كيلوغراماً. صار أحد الرجلين يتفحّصها من الأعلى إلى الأسفل دون أن يرفّ له جفن، وكان مسلّحاً.

- ببساطة، يتلخّص دورك في الاحتفاظ بهذا في مكان آمن، وانتظار أحد هذين الرجلين، أو أنا بنفسي، حتّى نأتي لأخذه.

قالت كارن إنها نظرت حينئذٍ إلى إدواردو نظرة متوسِّلة، لكن من دون جدوى. لقد غمز لها بعينه وابتسم قبل أن يقول:

- اذهبي معهما، عزيزتي، سيكون كلّ شيء على أحسن ما يرام.

34

لم يعُد يفصلهم عن أجل الحصول على نتيجة الخبرة في تحقيق الخطوط سوى يوم أو يومين، ليعرفوا ما إذا كانت التدوينة التي وُجدت في غرفة صابرينا قد كتَبَها لويس أرماندو دياثغرانادوس بنفسه، وفوق ذلك، كانوا في حاجة إلى أمر من النيابة العامة، للولوج إلى السجل الطبّي لمستشفى سان بلاس؛ وبحصولهم على الدليل القاطع، يمكنهم استصدار أمر باستنطاق لويس أرماندو دياثغرانادوس، وإجراء خبرة على مكالماته عبر الهاتف الخلوي.

وهو يتحدث عبر الهاتف، بعينين محمرّتين، صار خورخي غوثمان يذرع صالة شقة طليقته جيئة وذهاباً، هناك حيث كان الكلّ مجتمعاً، بينما طفقَت كونسويلو باريديس تفرك يديها وتحدّثُ نفسها. كانت مقطّبة الجبين، ولم يكن يبدو أنها تتابع مكالمة طليقها.

- هيّا، حضرة المحامي، طمئِنّي أنك ستتمكّن منه!

- ممّنْ، دكتور غوثمان؟

- من القاتل.

- سأبذل كلّ ما في وسعي.

اقتربت كونسويلو من طليقها وقدّمت له شراباً بالأعشاب.

- آه، عزيزي، قالت له. لو أننا لم نعثر على هذا الاسم، لكنّا ربّما في حالٍ أفضل من هذا.

- هناك أمر مستجدّ، قاطعهما كوياك. أظنّ أنني في طريقي إلى الكشف عن هوية سائق سيارة الأجرة. لقد كنت في حديث مع أصدقاء لي في الاستعلامات، فتمكَّنت من حصر لائحة المشتبه فيهم في ثلاثة: كلهم يشتغلون في المنطقة إياها، ويقدّمون أحياناً بعض الخدمات الخاصة.

- أتقصد أنهم سائقون وقتلة مأجورون في آن؟

- هم يطلقون على أنفسهم صفة المتعهّدين.

- وهل حدّدت أماكن وجودهم؟ سأل غوثمان.

- لديّ اهتمام بواحدٍ منهم على الخصوص، بحكم ارتباطاته السابقة ببعض الحيتان الكبيرة. هذا الرجل يذهب كلّ خميس للعب كرة الطاولة بإحدى حانات قطاع تشابينيرو.

- كل خميس؟ إذاً غداً موعده، قال غوثمان.

- صحيح. غداً سأقوم بزيارته، وسأخبركم بما دار بيننا بمجرد انتهاء المقابلة.

- وماذا عن الطبيب؟ سألتهُ كونسويلو.

- الطبيب لا يرغب في الحديث.

- ماذا لو أرغمناه على الكلام؟ سأل غوثمان.

نظرت إليه كونسويلو في استغراب.

- أنا لا أقوم بهذا النوع من العمل، لكن، إذا كانت هذه رغبة حضرتكم، سأعثر لكم عمّن يقوم بذلك، قال كوياك.

لزِمَ خورخي غوثمان الصمت، غير أن حنقاً كبيراً علا وجهَه، فعمّ الغرفة على إثر ذلك صفير أصمّ كأنه صداع نصفي.

35

اتصلتُ بلوسيا وأخبرتها بما قاله أنيبال دياثغرانادوس بالتفصيل. كنت خائفة جدّاً.

- لا يمكن أن يكون هذا جدّياً، كلير، قالت لي.

- ماذا لو قام بإيذاء إدواردو؟ طليقكِ الأهبل، قلتُ.

- سأتصل به حالاً، قالت لوسيا.

بعد مرور ساعة على ذلك، اتصلتُ بها من جديد:

- هل تكلّمتِ مع إدواردو؟

- لا يرد على الهاتف، لا بدّ أنه يلعب الغولف.

- أعوّل عليك لطمأنتي.

- بكلّ تأكيد، بمجرد أن أتصل به.

لم تتمكّن لوسيا من محادثته ذلك المساء، ولا مِن جَعْلهِ يردّ على محاولاتها الكثيرة في الاتصال به. لو أنّ إحدانا توجّست من أن يكون في خطر، لتصرفنا ربّما بطريقة مغايرة. لربّما كنّا سنذهب للبحث عنه، لكننا لم نفعل. لم يخطر ببالنا. لقد تركَت له لوسيا رسائل على العلبة الصوتية لهاتفه النقّال. قالت له في الأولى: «اتصل بي حَالما استطعت، من فضلك» ثم في أخرى: «إدواردو، أتصل بك بخصوص دياثغرانادوس، أتوسّل إليك أن تردّ عليّ». لكنه

لم يردّ عليها. وعندما ردّ عليها في النهاية، كان يقود سيارته في الطريق لِلقاء الدكتور بينيغاس.

- إدواردو، هل تعلم أن أنيبال ذهب عند كلير وقام بتهديدها؟ قالت له أخيراً.

- عمّ تحدّثينني يا امرأة؟

- لقد هدّدها بالقتل.

- أي هراء هذا الذي أسمع؟ قال، ثم أطلق قهقهة مجلجلة. إنه الهالوين، يا امرأة، أنت تعلمين أن من عادة الناس في مثل هذه الأيام أن يمزحوا مع بعضهم بحكايات مخيفة، هذا كلّ ما في الأمر. عليك بالاسترخاء، وشرب كأس شاي بالأعشاب، واعمَلي على تدفئة قدميكِ. . .

- هل يمكننا التحدث بجدّية، ولو لمرة واحدة في حياتنا؟

- أنا جديّ في ما أقول، أؤكّد لكِ ذلك. . . لكن امنحيني خمس عشرة دقيقة، فأنا بصدد ركن سيّارتي، لن أتأخر، سأتصل بك حالاً.

- خُذْ حذرك، يا إدواردو.

- هل أثَّر فيك ذلك المسلسل الذي تتابعينه ليلاً؟

- لا أشاهد مسلسلات، بل سلسلات.

- الأمر سيان، إن واحداً من برامج الزبالة تلك هو ما أفقدكِ صوابك، بُنيّتي، هيّا أطفِئي التلفاز.

- أراكَ مسروراً جدّاً، قالت لوسيا.

- خلال وقت وجيز ستأتي إحدى الصبايا لتُدفِئَ سريري.

- حقّاً؟ يا لها من مفاجأة!

- يا لكِ من مزعجة. سأتّصل بك لاحقاً. بالمناسبة، عيد ميلاد سعيد، حُلوتي.

- خِلتُكَ قد نسيت.

- أيعقل هذا؟ إنه يوم استثنائي بالنسبة إلى البشرية جمعاء! أضاف إدواردو.

- أتقول هذا بسبب مقال صحيفة لا ريكونترا بخصوص نهبكَ للمال العمومي؟

- اِخرَسي، يا امرأة، لهذا السبب لا أردّ على الهاتف! قال قبل أن يقفل الخط.

ساعتين قبل ذلك، كان ممَدّداً على الكنبة، بقميص مفتوح الأزرار وسروال نازل. رغم الفضيحة، كان يبدو سعيداً. لقد أضحى مطمئنّ البال بعد أن أخفى الحقيبة في مكانٍ آمن. في أسوء الأحوال، سيقضي عقوبة حبسية لن تتجاوز السنتين في سجن خاص، عبارة عن إقامة، ليُطلقَ بعدها سراحُه، فيهنَأ بماله، وتكون الغنيمة قد استحقّت ذلك العناء.

كان صدره مكسوّاً بزغب أبيض. بدا مسترخياً وبصحّة جيّدة، وبعينين مغمضتين، أسلم جسده لمهارة كارن وتركها تتكفل بإسعاده. قريباً ستعود المياه إلى مجاريها. صار يداعب فروة رأسها بأنامله وهي تتكلّف الابتسام.

- ماذا كنت ستفعلين بكلّ تلك الأموال لو كانت ملككِ؟ سألها دون أن يتوقف عن مداعبتها.

هزت كارن كتفيها في ضجرٍ ملحوظ.

- كنت لأقع في مشكلة كبيرة، قالت وهي تصطنع ابتسامة.

- لكن، ما الذي كنت ستفعلينه؟

- سأرحل بعيداً.

- يمكنك الرحيل بعيداً والقيام بأشياء عديدة، فالمال كثير جدّاً.

- تصوّرْ، لطالما رغبتُ في قضاء وقت مع حبيبي في مسبح راقٍ، قالت كارن وهي تقف فجأة، في محاولة لتغيير الحديث. هل سبقَ وقمتَ بذلك مرّة؟

- ليست بالفكرة المثيرة، ردّ عليها راميلي، لكن، إذا كانت هذه رغبتك يمكننا القيام بذلك الآن في أحد مسابح الإقامة، ليتحقّق أخيراً استيهامك.

ابتسمت كارن.

- أم تفضلين أن آخذك لحضور إحدى حفلات هالوين الكثيرة؟ أضاف إدواردو.

- أكره الحفلات التنكرية، قالت كارن. تعال، هيّا بنا، أضافت وهي تضع يدها في يده.

أن يأخذها إدواردو من يدها، ويذهب بها إلى المسبح من أجل أن تحقق واحداً من أحلام فترة المراهقة، فكرةٌ حرّكت مشاعرها كثيراً. فإلى غاية ذلك اليوم، لم تكن ترتادُ غير المسابح المكتظة بالمستحمّين.

خرج الاثنان من المصعد، نزع كلاهما رداءه، ثم دخلا حوض المسبح الساخن. عايَنا معاً، من خلال زجاج النافذة العملاقة، منظر أضواء المدينة المُتلألئة، على شكل هالة ضخمة تمتدّ في اتجاه الغرب.

- ما طبيعة هذه العلاقة التي تربط بينك وبيني؟ قال لها إدواردو بعد أن قبّلها قبلة طويلة.

- أنا مَن يحتفظ لك بحقيبة أموالك، قالت له كارن، ثم أطلقت صرخة فزع عندما رأت امرأة في سن متوسطة تدخل فضاء المسبح، حيث نظرت إليهما بطرف عينها، قبل أن تنزع رداءها وتضعه فوق أحد المقاعد، ثم تلج حوض الماء.

- هذا ليس يوم حظنا، قالت كارن وهي تعدّل وضع حمّالة صدرها.

- هل تصدقين أنني طيلة مدة إقامتي هنا، منذ ما يربو عن السنة، لم يسبق لي أن تشاطرت السباحة مع أحد هنا؟ قال لها.

وقبل أن يخرج، أمسك بها من خصرها وقال لها وهو ينظر في عينيها:

- تعجبينني كثيراً.

طفقت كارن تقهقه.

- يا لكِ من عديمة الإحساس، قال إدواردو.

- عفواً، أضافت دون أن تتوقف عن الضحك.

أمسك إدواردو بذراعها وقرّبها بالقوّة من صدره:

- أريدك إلى حدّ الجنون.

صمتت كارن، ثم خرجت بعدها من المسبح. جفّفت نفسها بمنشفة كبيرة وهي تنظر إلى المرأة ذات الساقين الأبيضين المستديرين، والتي كانت منهمكة في سباحة على الظهر.

- لقد تأخر الوقت، قالت فجأة وبنوع من القلق.

- تشير الساعة إلى حوالي الثامنة.

- لذلك أضحى الوقت متأخراً.

- لنصعد قليلاً إلى الشقة.

- لقد كان يوماً طويلاً ومرهقاً، أودّ العودة إلى البيت، قالت.

- طبعاً، ستذهبين لتعُدّي الأوراق الموجودة في الحقيبة، هذا إذا لم تكوني قد عددتِها بالأمس.

دخلا المصعد معاً، فصعد بهِما حُفاة ذلك البيتُ الزجاجي المطلّ على مدينة بوغوتا. أحسّت كارن بنفسها بعيدة، فاقدة لأيّ اتصال. انتابها شعور بالغثيان مشفوع بجفاف في الفم والخفقان. أحسَّت بألم في صدرها وتصاعدت وتيرة تنفسها. منذ مدة لم ينتبها إحساس مماثل. عاين إدواردو طويلاً جروحاً لها في منطقة الكاحل، ثم نظر إلى رسغيها، بدا وكأنه يرى ذلك للمرة الأولى. أخيراً، فُتحت أبواب المصعد، كانت يداها تتصبّبان عرقاً. ساعدها إدواردو للدخول إلى الشقة، مدّدها فوق السرير، ثم ذهب إلى المطبخ، ليحضر لها كأساً من الماء. لم تستعد كارن تنفسها الطبيعي بسرعة. اتصل هو بالدكتور بينيغاس عبر هاتفه المحمول، وسأله ما الذي يمكن فعله.

- هل أحتاج إلى وصفة لشراء هذا الدواء؟

- أشعر الآن بتحسن، قالت كارن، رغم استمرار خفقانها الشديد.

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً، عندما قرّر إدواردو الذهاب للقاء الدكتور بينيغاس، والذي كان سيسلّمه دواء لكارن.

- سأعود بسرعة، لا تتحرّكي من هنا.

شغّلت كارن التلفاز، لتتفاجأ بعرض صورة قديمة لإدواردو: **«تُشير كلّ المعطيات إلى أنّ مَن يقف وراء كل عمليات النهب هذه ليس شخصاً آخر غير المؤلف الشهير في مجال التنمية الذاتية»**.

عادت كارن لتتصل به عندئذٍ، ولتُخبره هذه المرة بأنها تشاهده

في نشرة الأخبار، غير أنها لم تتلقّ أيّ ردّ. وحينما اتصلت به للمرة الرابعة ردّ عليها ضابط شرطة، وسألها عن علاقتها بالفقيد.

- بمنْ قلتَ حضرتك، سيدي الضابط؟ قالت كارن وهي تهبّ من مكانها.

- علاقتك بالقتيل، آنستي. عذراً لِإخبارك بهذه الطريقة، فصاحب الهاتف الذي تتصلين به وُجد مقتولاً رمياً بالرصاص في تقاطع شارع 76 مع الزنقة 05، بجوار ضحية أخرى تمّ التعرّف على هويتها. يتعلق الأمر بالطبيب الجرّاح روبيرتو بينيغاس، الذي يشتغل بمستشفى سان بلاس.

تجاوزت الساعة حينها العاشرة ليلاً بقليل. استمرّ الضابط في الحديث، وكانت كارن قد توقّفت عن الاستماع إليه.

36

كانت المرة الثانية التي تحضر فيها قدّاس جنازة خلال أربعة أشهر. كان لها انطباع بأن حياتها كلها يمكن تلخيصها في تلك الفترة من الزمن. ارتدت أحسن ملابسها، رغم ما كانت تشعر به من إحباط. استجمعت ما تبقّى لها من قوّة لأجل تسريح شعرها، ووضع أحمر شفاه بلون بنّي، واختيار حذاء مناسب وفستان طوقه مفتوح بشكل معتدل، ثم وضعت معطف ماسيمو دوتي، وحقيبة اليد السوداء الصغيرة من ماركة كارولينا هيريرا، هديّة إدواردو، والتي لم تكن قد استعملتها من قبل. لقد التقت بإدواردو أول مرة في جنازة صابرينا غوثمان. لو أنها انتبهت للإشارات، لفهمت ربّما ألّا خيرَ يُرجى من علاقة تربطها برجل تعرّفت عليه في مأتم. لم يكن قد مرّ وقت كبير على تلك المناسبة، ومع ذلك حاولت تذكر ذلك اليوم الماطر الذي ذهبت فيه إلى قدّاس جنازة زبونتها. أحسّت عندئذٍ بأن مَن حضر اليوم إلى الكنيسة كان شخصاً آخر غريباً.

كانت كنيسة الحبلُ بلا دَنَس مكتظة عن آخرها. اختارت كارن الوقوف في مكان جانبي بالصف الأخير. كان الفضاء يعجّ برجالٍ أنيقي المظهر، وحراس شخصيين كثر، وسيارات رباعية الدفع مصفّحة عند مدخل الكنيسة، بزجاجها الحاجب للرؤية. كان هناك

أطفال قليلون، وبعض الشبّان، وجحافل كبيرة من المعجبين. حلت بالمكان شبكة الإذاعة والتلفزة الوطنية، كانوا يرغبون في استجواب لوسيا، والتي بدت غير متحمّسة لإعطاء تصريحات صحفية. إنه يوم تشييع «**المرشد الروحي الكولومبي الكبير، أمل اليائسين والمنكوبين عاطفياً**»، كما وصفته إحدى الصحف. لم تكن كارن تتابع ما يقوله الراهب، ولم تسمَع هتاف ذلك الجندي بلباسه العسكري، عندما ردّد كلمة «حب» ثلاث مرّات، وهو يرفع قبضة يده إلى السماء. بين الفينة والأخرى، كان صدى سعال رجل مسنّ يتردد على جدران الكنيسة، أمّا جوقة المُرتِّلين، فلم تكن متجانسة، وبدا كلّ شيء في نهاية المطاف مرتبكاً وغير منسجم.

لعلّ بشاعة الطريقة التي نُفِّذ بها اغتيال راميلي كانت سبباً لذلك التنافر المُعمّم؛ فرغم ما عُرف عنه من أناقة، أو هكذا كان ظنُّه بنفسه على الأقل، فاجأهُ القتلة وهو يرتدي بذلة رياضية، فأطلقوا عليه وابلاً من الرصاص عن قرب، عند زاوية أحد أزقة حيّ روزاليس الرّاقي، حيث تركوه مرمياً هناك ككلب، على مرأى من الفضوليين، إلى أن تطوّع فاعل خير واتصل بالشرطة. كان كلّ شيء عبارة عن سوء فهم فظيع. عندما أنهى العسكري كلمته، تقدّمت سيّدة بوجه محروق بالأسيد وصعدت المنصّة لتبقى على مرأى من الجميع، ثم أخذت الميكروفون وقالت إن إدواردو علّمها التشبّث بالحياة، وبفضله لم تُنهي حياتها برصاصة في رأسها، فصفّق لها بعض الحاضرين في خجل. كانت زوجة دياثغرانادوس تبكي من دون توقف، ولمّا رأتها كارن، واكتشفت أنها زبونتها روساريو تروخيليو، شعرت من جديد بانسداد حنجرتها.

ستحكي لي كارن لاحقاً بأنها، بينما كانت كلّ تلك الوقائع

تجري بالكنيسة، كانت تشعر بحرّ شديد، حرّ ذكّرها بزوال يومٍ قائظٍ في كارتاخينا، وهي تقبع داخل حافلة ركّاب، بينما يُعلن عبر مكبّر الصوت عن محطّات الوقوف: «ماريا أوكسيليادورا»، «بلاس دي ليثو»، «كاستيانا»، وعبق فاكهة البشملة والسمك المشوي يسافران بها، تحت أشعة شمس تذيبُ الفوارق بين الأشياء، وتضفي على كلّ شيء لوناً ذهبياً شاحباً، مقشوداً كحليب جوز الهند، أو كعصير المَنْدَرين، بينما يبيع رجلٌ عناقيد موزٍ بألف بيزو للفتاة الرّاكبة بجوارها، وآخرُ يبيع قواميسَ مدرسية إسبانية إنجليزية، بينما طفقت امرأة مسنّة تقول لحفيدها إنها لن تؤدّيَ ألفي بيزو من أجل اقتناء قاموس، فصار الحفيد يحملقُ في أقلامٍ كان يعرضُها للبيع رجل أسود صعدَ بدوره إلى الحافلة الكبيرة العتيقة، والتي بدت كحوت ضخم خارج مجاله الحيوي. حافلة يفوق دخانها بكثير عمرها المتبقّي، ويقلّ عدد ركّابها عن عدد الباعة المتجوّلين بها، فتجد صاحب أقلام التسطير الفوسفورية، وَمُوزّع روزنامة ألْمَاناكي دي بريستول، وبائع الماء البارد، وأصحاب ماء جوز الهند، وحمّالات المفاتيح، وأغلفة الهواتف الخلوية، والصور اللّاصقة، والمجلّات، والتمائم، والبسكويت، وحين تهمُّ كارن بالنزول، يعود أحد الفتيان إلى رفع عقيرته معلناً أسماء المحطّات، وسط حرّ شديد تمتلئُ على إثره الأظافر سريعاً بالأوساخ، ويُصعِّبُ عملية التنفس. يشعر بهذه الحرارة أيضاً ركّاب الحافلة المجاورة، التي تقصد الوجهة نفسها، وتسافر بدورها بركّاب قليلي العدد. فكلّ الحافلات التي تؤمِّن الخط نفسه، والتي تُقلّ ما بين الستة والثمانية ركّاب على أقصى تقدير، هي حافلات مُهترئة، تعوّل في استجلاب الركّاب على أيقونات عذراء جبل الكرمل، والطفل الإله، وعذراء غوادالوبي، والمسيح

المخلّص. . . هكذا، وبكلّ شراسة، تتنافس حافلة «المسيح حي» مع حافلة «عذراء جبل الكرمل»، لأنّ كل واحدة منهما تريد أن تصل هي الأولى، بَيْدَ أنّ الطريق واحدة وبها أشغال، ثمّ إنه لم يتبقَّ إلّا ممرّ واحد من ذلك الطريق المزدوج، لأن الممّر الثاني قد تمّ إغلاقه بسبب إنشاء محطة للحافلات هناك، رغم أنها هُجرت سريعاً، وأضحى زجاج نوافذها مكسوراً، فصارت مرتَعاً للنفايات. وإذا تجوّلتَ بسوق بازورتو، ستجد في الأروقة لافتات خُطّت عليها عبارات من قبيل: «هذا المحل يحميه الرب»، «عصائر دم المسيح»، «لحوم ليرافقك الرب»، وفي الأجواء مزيج روائح أموات، ورئة، ولحم، وسمك، وأحشاء، وأمعاء منثورة على الثرى، وجيف أبقار وخنازير يدوسها بأقدامهم رجال سودٌ حفاة، وهم منهمكون في تنظيف أحشاء الحيوانات، بينما تمرّ بالقرب منهم عربة أطلق عليها صاحبها لقب «الطفلة كارن»، فتتساءلُ ما الذي قد يعنيه لصبيّةٍ أن يكون لها أب يشتغل في سوق، أو في أيّ مكان آخر، ويطلق على عربته لقب «الطفلة كارن»، أب يجيد إعداد أكلة أريبا بالبيض، والكاريمانيولا، وَشراب البيتو الطازج مع كثير من القرفة، والآن في كارتاخينا، صارت كل البنايات بيضاء وزجاجها أزرق، فـ«حيثما ولّيتَ وجهك ترى زجاجاً أزرق»، كما تقول أمها، «كما لو انعدمَ وجودُ الزجاج الأخضر والأصفر والأحمر والشفّاف»، تردّ عليها كارن، فتوافق الأم بقولها «صحيح»، لتؤكد كارن «أجل صحيح»، لكن هذه الحافلات كلها، والتي تقصد المكان نفسه، وزحمة المرور تحت القيظ الشديد، ورائحة تراب البحر هاته، أو عرق البحر، أو ماء البحر بالأحرى، وأهازيج التشامبيتا، في بلدة لابوكيبا، بشمال كارتاخينا، في أحد مراقص حي إلبُوسْكي، ومعاينة كيف ينفجر الحيّ

رقصاً على نغمات جهاز البّيكو الموسيقي، ونوم القيلولة على الكرسي الهزّاز، بينما تُعِدُّ الأم كُوَيْرات التمر الهندي في مدخل البيت، ثم تصرخ في وجهها: «لا تستفزّيني، يا طفلة، وإلّا فَستجدينني»، لأنه لم يعُد أحد يناديها بالطفلة، أو يبحث عنها، أو يعثر عليها بالأحرى، حتّى إنها لم تعُد تعثر على نفسها، أو تعرف مكان وجودها بالأحرى، فيوماً عن يوم، صارت مفقودة، ويوماً عن يوم، أضحى وجودها هنا أكثر منه هناك، ووجودها هناك أكثر منه هنا، ومع ذلك، لا وجودَ لها في أيّ مكان، في الآن نفسه، فلا أحدَ هنا يلعب الورق تحت ظلّ شجرة المانجو، ولا وجود هنا لشجرة التوتومو، ولا للكنيسة الخمسينية، بشجرة المانجو عند مدخلها، ولا للحديقة، ولا لكنيسة المسيح المخلّص الجديدة، ولا لمحلٍّ نظيف لبيع فطيرة البويو بالذرة، هنا، لا وجود لشيء على الإطلاق، خطر ببال كارن، هنا لا وجود لإميليانو، ولا لأمّها، هنا مكان النّاس الحانقين، والموت المحدِق، تحت سماء من رصاص، وهي تحسّ بالحر الشديد، وتتفصد عرقاً، لأنّ طعم التمر الهندي علقَ بفمها، لكن، ليس ذلك التمر الهندي الجاف، بل تلك الكُويرَات اللذيذة التي كانت جدّتها تُعِدّها بدورها، عندما كانت طفلة وكانت لها جدّة، عندما كانت طفلة وتريد أن تصير ملكة جمال، قبل أن يأتي زمن التشامبيتا وطقس المناولة الأولى، قبل أن تفكرَ في الجنس وتعرفَ أنّ ممارسته قبل الزواج خطيئة، قبل أن تذهب إلى كنيسة الحي للمرة الأولى، وقبل أن تشرعَ في رسم إشارة الصليب كلّما مرّت أمام إحدى الكنائس، بغض النظر عن مذهبها، قبل أن تصيرَ من أنجبِ الطّالبات، وترغبَ في أن تكون خبيرة تجميل (مع فرضِ أنها رغبت في ذلك في يوم من الأيام)، ثم ستأتي مرحلة

حُمى الجسد، من خلال الاستماع إلى أغاني هاري فلُو، قبل أن تعلَقَ في شِباك ذلك الأسود سيّئ الذكر، وتحبلَ منه، وتصبحَ على ما هي عليه، فتدركَ أنه لا يمكنها الهروب من ذاتها، وأنها لن تضيف شيئاً لِما أصبحت عليه، أي ذلك الجسد الفارع الطول كنخلة، الرشيق كغزالة، ذلك الوجه المفزوع، ذلك الحزن المقيم، ذلك الشموخ المنكسر، ذلك الكبرياء الذي لم يجد له ظهيراً في هذا العالم، تلك الرغبة في الوصول من دون معرفة إلى أين، كطائر آخرَ بلا شجرة، في مدينة من إسمنت، لا مكان فيها لدكان الحي الصغير، وتجار التقسيط الصغار، وماكينات لعب القمار، ولا لمدينة موازية تُحيط بها الأسوار، حيث يقضي العطلة أمراء موناكو ونجوم هوليوود، تلك المدينة المسيّجة التي لن تصير لها إطلاقاً، لأنها فقط من نصيب السياح، وقلّة من العائلات الثريّة، التي لا تزال تقطن هناك، لا وجود هنا كذلك لحفل موسيقي كلاسيكي يُقام في الشارع، ولا لعربة تجرّها خيول، يتجوّل على متنها عاشقين كنديين، ولا لخنزير في فناء منزل، وكأن شيئاً لم يقع، ولا لحبل غسيل عليه ملابس مبلّلة في مهب الريح، مربوط في سياج الحديد، كما أنه لا وجود لأسيجة حديد، تلك التي بقدر ما تحمي من الأخطار الخارجية، تصير سجناً لمن في الدّاخل، ولا وجود كذلك لحافات السطوح المغطّات بالزجاج المكسور، لأجل إبعاد اللصوص، ولا لكلاب الحراسة، مع أنه «إذا أطعمتَ كلبَ البلاد غير الحارة سمَكاً يُصابُ بالجرب»، على حدّ قول أمها، كما لو سبقَ أنْ كان لها كلبٌ من بلاد باردة، أو أنها عاشت فترة في بلاد باردة، أو أن لها معرفة مَا بالكلاب أصلاً. خطرَ ببال كارن أنها حيوان من بلاد حارة، وتعود لتسائِل نفسها، ما الذي تفعلهُ في تلك الثلاجة، وما الذي أتى

بها إلى بوغوتا، لتتعلّم التكلم بتثاقل وتملّق، وتكلُّفَ الابتسام، واللطافة المصطنعة، وأكل فطيرة الموخابانا بدلاً من الكاريمانيولا، ونسيان من تكون أصلاً، حتّى أضحى طفلها إميليانو أبعد ما يكون عنها، صغيرها إيمي، الذي كان يقول إنه لا أحد يتقن تدليك قدميه مثل «ماميتا»، أمّه الحنون، لأنه كان يناديها «ماميتا»، وحين كان يريد التملق لها يناديها «ماميتيكا»، هي التي لم تلمس قدميه منذ ما يقرب من السّنة، ما يمثل رُبعاً من عمر إميليانو، تقول أمها، «ربع عمر صغيرك قضيتِه غائبة عن هنا، يا ابنتي». تنظر كارن مشدوهة إلى بوّابات المعبد، حيث بقي حشد من الناس في الخارج، يحملون لافتات تقول: «لن تموت ذكراك أبداً، أيها المعلّم الكبير»، «احفظ لي مكاناً بالقرب منكَ في السماء»، من بين شعارات أخرى كُتبت لتشييع راميلي. كانت كارن تنظر إليهم في شرود، كما لو كانت مغيّبة، تتذكر أن راميلي قد فارق الحياة، فَيُعاودها الشعور بالغثيان، وتلك الحافلة التي تقطع جادة بيدرو دي إيريديا بسرعة جنونية، وأمها تقول لها: «حظ السمراوات بيع الفاكهة في شاطئ البحر»، كما لو لم تكن هي نفسها «سمراء»، ولِمَ الخوف من قول إنها «سوداء»؟ لقد شرع الناس في الخروج، وتسارَعَ هطول المطر، وارتفَعَ زعيق السيّارات الرباعية الدفع، المركونة على طول الشّارع، وهي تستعد للانطلاق، بينما ظلت كارن جالسة تراقب الوضع، دون أن ينتبه إليها أحد، أحسّت بالتعرّق واللزوجة، وبرائحة التمر الهندي، لكنها الآن من جديد تحت زخات المطر، المطر والدخان لا يبرحان هذه المدينة الرمادية، والغبار الرّمادي، والسحب الرمادية، وبدلات الموظفين الرمادية، والغيمة الرمادية الكثيفة التي تعلو أجواء المدينة، فهذا الطابع الرمادي اللعين، الذي يغشى المدينة، ويلفّها في حزن

شديد، هوَ ما سيقضي عليها لا محالة، لكن: ماذا لو كان لها أب؟. . . هل نقول رمادية، أم طابعاً رمادياً، أم صبغة رمادية؟ لو كان لها أب، لعَرِف الإجابة ربّما، لكنّها هكذا لن تحظى بجواب، اللعنة، لو كان لها أب، لما شعرت بأنها تموت بالتقسيط، أو أنها قد ماتت فعلاً، وَإنما تمشي الآن في الشوارع كما يفعل الأشباح، ولذلك فإنهم يدوسونها بأقدامهم، ولذلك فهم يضربونها بمرافقهم، ويُشبعونها رفساً في حافلات ترانسميلينيو، لأنهم لا يرونَها، أما إدواردو، فمن المؤكد أنه رآها، فما دام قد داعبها إذاً فلقد رآها، وأدّى لها أجرها، ومارس معها الجنس كما يفعل الأحياء، لكنه صار الآن من الموتى. أخرجَت لسانها، فأحسّت بالهواء كريهاً، ثقيلاً وَموبوءاً، وبزخّات المطر كالإبر. استقلّت حافلة صغيرة، وهي ممسكة بالعمود المعدني، عادت لاشتمام رائحة العرق المُركّز. لعلها على قيد الحياة إذاً. هي حية لأنها تشتمّ تلك الرّائحة الكريهة، هي حية لأن سبعاً وأربعين نفراً تناوبوا على جسدها خلال ستة عشر أسبوعاً، هي حية لأن شخصاً سميناً مقرفاً وحاقداً اغتصبها، هي حيةٌ حقيقةً، لكن ليس لدواعٍ موضوعية.

37

كادت مكالمة كوياك أن تقطع أنفاسها. اتصلت بادئ الأمر بخورخي، وطلبت منه أن يلحق بها في منزلها على استعجال.

- أنا في أباستوس.

- ليكن، لكن تعال، أرجوك، وبأسرع ما يمكنك.

- اطمئنّي، سآتي إليكِ على الفور، ردّ على طلبها قبل أن يقفل الخط.

في أثناء انتظارها، وبيدين ترتعشان، فتحت كونسويلو أجندتها، واتصلت بالمحامي، فلم يردّ عليها. بعد ذلك بحثت عن رقم الجمعية الوطنية للتحليل النفسي، حيث حصلت على رقم هاتفِي. ركّبت الرقم بسرعة وحين لم تتلقَّ جواباً، تركت رسالة صوتية على المجيب الآلي: «أتَّصِلُ بحضرتكِ بإيعازٍ من كارن بالدس، أنا أمّ صابرينا غوثمان. أرجو أن تتفضلي بالاتصال بي»، قالت كونسويلو باريديس ثم تركَت رقم هاتفها. عادت لتتصل بالمحامي.

- أنا مضطر للتخلي عن المرافعة في هذه القضية.

- ماذا؟ الآن وقد صارت الأمور تتحرك؟

- نعم، أرجو المعذرة.

- لكن، لماذا؟

- لظروف القوة القاهرة، سيدة كونسويلو.

- لا تفعل بي هذا، حضرة المحامي، قالت كونسويلو قبل أن ينقطع صوتها.

- صبيحة هذا اليوم وصلني تابوت موتى صغير إلى بيتي. في داخله، وجدتُ اسم ابني مكتوباً على ورقة، واسم ابنتكِ على الصفحة الأخرى. أرجوك أن تتفهمي وضعي، من فضلك، قال قبل أن يقطع الخط.

حاولت كونسويلو أن تتصل به من جديد، لكن من دون طائل.

بحثَت عن رقم رجل المباحث الجنائية الذي سبق أن تحدَّثت معه في مناسبتين:

- أهلاً، سيدة كونسويلو، كنت أفكر في الاتصال بحضرتكِ، هناك شخص ما يحاول قرصنة حساب ابنتك على الفيسبوك، هذا كلّ ما استطعتُ الوصول إليه، ولقد أُخبِرتُ مؤخراً بأنهم عيّنوا نائباً عاماً آخر لمباشرة البحث في القضية. هذا يعني أنه سيشكّل فريق بحث جديد، ومن المؤكد أنهم سيُلحقونني بفريق آخر.

- لكن، لماذا؟ هو لم يُخبرني بشيء...

- لا علم لي بشيء، سيدتي. حسناً، لديّ اتصال الآن.

- لماذا يتصرفون بهذا الشكل الرسمي؟

- لعلّهم يريدون إلصاق التهمة بشخص بريء، ونفيها عن المجرم الحقيقي. أُعذريني، سيّدتي، لكن عليّ أن أقفل الخط.

بقيت كونسويلو متسمّرة في مكانها، وسماعة الهاتف إلى أذنها، كالمنوّمة مغناطيسياً.

38

دخلَت بيت الجمال، وقد تركت بقعة بَللٍ عند المدخل، ثم دلفت إلى بيت حمّامٍ في الطابق الأرضي، تحت نظرات آني الوَقِحَة. شبكتْ أصبعيها، واضعة السبّابة تحت الوسطى، لمعاكسة حظها السيّئ خلال فترة بعد الزوال المتعبة تلك، رغم أنّ اليوم كان يوم ثلاثاء، وحتّى لا تضطر للاستماع إلى حديث زميلاتها. اشتاقت لسوزانا. استغلّت صوت مجفف اليدين لتشفي غليلها انتحاباً، قبل أن تقطع وصلة البكاء، وتخرج لملاقاة مجموعة صغيرة من النساء بَدونَ لها أكثر شيخوخة وشحوباً.

كانت تتحرك كإنسان آلي، والفزع يهاجمها في كلّ لحظة وحين، بينما استبدّت بها الرغبة في إيذاء نفسها. صورتُها وهي تقطع شرايين ربلة ساقها أضحت لا تفارقها، إلّا لتحل محلّها صورة أخرى لها، وهي تبترُ أصبعاً أو أذناً. بعد حين، عندما نظرت حولها، رأت جرحاً في كاحلها، وآخر في مرفقها، فلم تتذكّر أنها أقدَمَت على ذلك بنفسها.

كانت تصعد الدرج عندما سمعت صوت كارن أرديلا الأَنفي المَخرج، والذي لا يخفى عليها، يقاطعها:

- بوكاهونتاس، أهذه أنتِ؟

واصلت طريقها من دون توقّف، لكن، لم تكدَ تغلق الباب من ورائها حتّى رن الجرس، فأخبرتها آني بأن دونيا كارن في الطريق إليها.

نزعت كارن أرديلا ملابسها وتركتها تسقط على الأرضية. فقط سلّمَتْ لكارن السترة والحقيبة يداً ليد، ممّا جعلها تشعر بالامتعاض، غير أنها فضلت تجنّب المواجهة.

- ما نوع الخدمة التي تطلبين حضرتك؟ سألتها وهي تلتقط التبّان وحمّالة الصدر والتنّورة والحذاء من على الأرضية.

- بيكيني شامل.

- امنحيني حضرتك لحظة، حتّى أسخن الشمع.

طفقت تتحرك بسرعة. أعدّت ضمادات الشاش، وقرّرت تفادي استعمال البطّانية الكهربائية، لأنها فضّلت أن تسرع في عملها، لمصلحتهما معاً. بَيدَ أن ذلك الجسد العاري، بكلّ شوائبه، أشعَرَها بالغثيان.

نادت عليها دونيا كارن باسمها:

- كارن، هل من مشكلة؟ فأنتِ تتعرّقين.

ودّت كارن لو أمكنها أن تردّ عليها، لتشكرها على مناداتها عليها باسمها للمرة الأولى، لكن أوان ذلك كان قد فات، فلقد رمقت بطرف عينها في المرآة حالة شعرها المجعّد، فشعرت بحنق شديد، بعد كلّ ما بذلته من جهد. لم يمهلها الغثيان لتردّ على دونيا كارن، فلم تجد بدّاً من مغادرة المقصورة، في مخالفة صريحة لضوابط العمل في المحل، وجَرَت مسرعة إلى الحمّام، حيث تقيأت وهي تشعر وكأن كرة من القرف تملأ معدتها.

رشّت وجهها بالماء، ثم أخرجت من جيبها ماكينة حلاقة.

أمسكت بها بقوة وأحدثت جرحاً في ساعدِها. أحست بشحنة كهربائية خفيفة تسري في جسدها. أعادت الكرّة ثلاث مرّات، فرابعة، ثم . . . سابعة. كانت كلها جروحاً سطحية. هي تريد جرحاً أكثر عمقاً. صارت تنزف. فتحت حقيبة الإسعافات الأولية، وضعت ضمادة، وأنزلت جوربيها، ثم أحدثت جرحاً غائراً في منطقة الكاحل. تنفست الصعداء. وضعت ضمادة إضافية، واحتفظت بماكينة الحلاقة في منديل ورقي. صار النزيف قويّاً، فتلطخ على إثره جوربُها، وحذاءُ لباسِها الموحد، ذي اللون الأبيض الناصع. فتحت صنبور الماء وبلّلت شعرها بعصبية، سعياً منها لترطيبه بيدها، لكن من دون جدوى. بات أكثر بللاً وأشدّ تجعّداً. شرعت في الصراخ. هي الآن لوحدها في مرحاض بيت الجمال، تحاول أن ترطّب شعرها بالماء، وتصرخ. نزعت الجوربين وغسلتهما بالماء في المغسل، بينما استمرّ صدى أغنية لوس ديابليتوس يرنُّ في مسمعها كأسطوانة مشروخة: «حلّق عالياً، غيّر طريقك، واحلم كثيراً، فالعالم لك». بعد انتهائها من غسل الجوربين، وحين كانت تهمُّ بارتدائهما من جديد، دون أن تكترث لِبلَلِهما، لاحظت وجود دم في أرضية المقصورة، فانحنت لتنظِّفه بأحد الجوربين، وهي تردّد مع الكورال لازمة الأغنية: «حلّق عالياً، غيّر طريقك، واحلم كثيراً، فالعالم لك». سمعَتْ عندئذٍ قَرْعاً بالباب، أعقبَه خطوٌ، ثم صوت دونيا خوسيفينا، وجلبةٌ، وكرٌّ وفرٌّ لِأناسٍ خلف الباب. استمرت كارن في الغناء وتنظيف الأرضية، بيد أن جُرح كاحلها الغائر واصل النزيف، وكذا ذلك الذي أحدثته في ساعدها.

- كارن، افتحي الباب.

كان ذاك صوت دونيا خوسيفينا. لم تتذكّر شيئاً بعد ذلك.

عندما فتحت عينيها، وجدت نفسها في مقصورتها، وقد غادرتها الزبونة. رأت ضمادة تلتف حول كاحلها، وكذا حولَ السّاعد والرسغين. بعد بضع دقائق، ظهرت دونيا خوسيفينا في باب المقصورة:

- ما أن تتحسّن حالتكِ أريدك في مكتبي.

أغلقت كارن عينيها وغطت في نوم عميق.

39

طلبت خوسيفينا دي بريغارد من كارن أن تغادر المحل على الفور، ونصحتها بأن تخضع لعلاجٍ نفسي.

- أنت مريضة، عزيزتي. لا يمكنك البقاء هنا. من الأفضل أن تطلبي من أحد أن يأخذك إلى بيتك.

حاولت كارن أن تتصل بسوزانا، لكنّها لم تردّ، ولن تردّ أبداً على اتصالاتها بعد ذلك. ثم اتصلت بي، فوجدتني بمعيّة لوسيا نشرب قهوة. طمأنتُها بأنني سآتي إليها حالاً. رافقتني لوسيا. ساعدناها على جمع أغراضها. ألحَّت كارن على اللقاء بسوزانا، فوعدْتُها بأنني سأساعدها على تحديد مكانها.

عدنا إلى شقتي. كانت المرّة الأولى التي دخلت فيها كارن إلى عيادتي. مدّدناها على الأريكة. أخذَتْ لوسيا بطانية من صوف الألباكا، ودثَّرت لها ساقيها. أوشكت الشمس على المغيب. كان يوماً بارداً، كسائر الأيام.

- معَك حق، كلير، هي حسناء فعلاً، قالت لوسيا.

ظلت كارن نائمة، وصار شعاعٌ من الشمس يشطر وجهها إلى شطرين، واحد في الضوء، والآخر في العتمة. قمت بإعداد الشاي، وشغّلنا النافورة الموجودة في الشرفة، والتي كانت تطلّ على قاعة

العيادة عبر نافذة كبيرة. يساعدني خرير الماء عادة في تهدئة أفكاري، ولذلك رغبت في أن يحدثَ الأثر نفسه على كارن. شرعت لوسيا في قراءة إحدى مجلات الطب النفسي التي كانت بيدها.

- وددتُ لو أفتح عيادة نفسية، أتظنّينَ أنني صرتُ بعمر لا يسمح بذلك؟

- بَلَى، ستكونين طبيبة جيّدة، قلتُ لها.

سهرنا على راحة كارن لما يقرب من الساعة. عندما فتحت عينيها، كان الليل قد أرخى سدوله.

- أنتِ لوسيا، قالَتْ أخيراً.

- هو كذلك، ردّتْ عليها، مع الابتسامة.

هي سيّدة تبعثُ على الاطمئنان والثقة. كان وجهها بشوشاً، هادئاً للغاية، وكانت ابتسامتها صادقة، بَيْدَ أنّ كارن لم تلحَظ ذلك. لقد أمعنت النظر في خصلات شيبها، وتجاعيد «رجْلِ الغراب» حول عينيها، وأسنانها المصفَرّة، ثم أغلقت عينيها من جديد.

- هل ترغبين في المبيت هنا؟ سألتُها.

- لماذا تقومان بهذا معي؟

- لأننا نريد ذلك، قالت لوسيا. أنتِ بحالة سيّئة.

فتحت كارن عينيها من جديد وطفقت تنظر إليهما.

- ماذا تريدان منّي؟ قالت كارن.

- نرغب في كتابة قصتكِ. لذلك، نودّ أنا وكلير أن تحكي لنا كلّ التفاصيل.

- ما رأيكم أن أعدّ طبق معجّنات؟ ألا تشعران بالجوع؟ سألتُ.

- أنا لا، قالت كارن.

ذهبتُ إلى المطبخ ووضعت السباغيتي في طنجرة، ثم أخرجتُ صلصة بومودورو من المجمّد، قبل أن أضعها لتسخن في الطنجرة. تركتُ السباغيتي تنضج لمدة لم تتجاوز نصف الساعة، وعندما صار الأكل جاهزاً ذهبت للمناداة عليهما. قبل أن أقرع الباب، سمعتُهما تضحكان، ولمّا كنا على طاولة الأكل، شربَتْ كارن كأسَ الخمر بنهمٍ شديد، كما لو كانت تشرب ماءً، ثم طلبت المزيد. أعادت الكرّة مع الكأس الثانية، ثم طلبت ماء، قبل أن تشرع في الكلام.

- سأفعل، قالت أخيراً.
- ماذا؟ قلتُ لها.
- سأحكي قصتي.
- ممتاز، هذا أمر يستحقّ أن نشرب عليه نخباً.

تناولتْ كارن مزيداً من المعكرونة، والتزمتْ بأن تأخذ منوّماً بعد أن نوصِلها إلى بيتها. كانت في حاجة إلى النوم العميق، لكي تستعيد عافيتها. قالت إنها أخذت بعضاً من الأقراص التي سبقَ أن سلّمتُها لها، وإنها نامت جيّداً. لقد تكلّفتُ منذئذٍ بدوائها وكذا بعلاجها النفسي. أخذناها إلى شقتها، وضربنا موعداً لإجراء أول اجتماع في اليوم الموالي، من أجل الشروع في تأليف الكتاب. طلبتُ منها أن تتصل بي إذا احتاجت أي شيء، وتركتُ لها علبة أخرى من زولبيديم، ومعها رقم هاتفي، ثم افترقنا بعد أن تعانقنا عناقاً طويلاً.

مرّ الوقت بسرعة خلال عودتي إلى البيت. بين زحمة المرور والطقس الماطر، وصلتُ حوالي الساعة التاسعة. كنت متعبة للغاية، هيأتُ شراب بابونج، وخبزاً محمّصاً، وجلست أمام التلفاز. بعد وصلة إعلانات تجارية، جاء الخبر الذي سيغيِّر مجرى الأحداث:

«هناك معطى جديد سيلقي مزيداً من الضوء على مقتل الأستاذ إدواردو راميلي. كشفت صحيفة «أخبار اليوم» أن مؤلّف «السعادة أنت» و«أقدِّرُ ذاتي» كان على علاقة غير شرعية بكارن بالدس (التي تظهر صورتها على الشاشة)، وهي مومسٌ يُشتبهُ بتورّطها في مقتل عميل الوكالة الأميركية لمكافحة المخدرات دي.إي.أي، المدعو قيد حياته جون تول، والذي لقي حتفه دقائق بعد لقائه بالفتاة، على يد سائقِ سيارة أجرةٍ لاذَ بالفرار بمجرّد أن سلبَه حقيبته وأطلقَ عليه الرصاص. وكان تول قد قضى الليلة مع الفتاة التي تشتغل خلال النهار كمتخصِّصة في التجميل بالصالون الشهير «بيت الجمال»، الموجود بقطاع زونا روسا ببوغوتا، حيث اشتغلت هناك إلى يومنا هذا، قبل أن يتمّ فصلها عن العمل بسبب اختلالاتها العقلية وسلوكاتها العدوانية. هذا وتبحث السلطات المتخصصة في ارتباطات بالدس المحتملة بمَقتل راميلي وجون تول، وكذا بحالة وفاة أخرى تمّت بدورها في ظروف غامضة، هي لصابرينا غوثمان باريديس، فجر يوم 23 يوليو الفارط. وكانت بالدس آخر شخص رأى الفتاة القاصر حية، حيث قدّمت لها خدمات تجميلية ذلك المساء. من جهة أخرى، كانت الحقيبة المسروقة من طرف سائق سيارة الأجرة تحتوي على جهازٍ يتضمن معلومات استخبارية بالغة الخطورة. ولقد انضمت الْ دي.إي.أي إلى السلطات الكولومبية من أجل استجلاء حقيقة ارتباطات كارن بهذه الجريمة، ولم يتم إلى حدود الآن تحديد مكان السائق».

شعرتُ بضيق في صدري، وصار ذلك الإحساس يشتدّ أكثر فأكثر كلما تقدّم المذيع في سرد تفاصيل الخبر. ليس من عادتي أن أكون اندفاعية، لكنّني لم أتردّد تلك المرة ولو لِثانية. وَكما لو كنت

طيلة حياتي أستعدّ للقيام بهذا الدور، وثبتُ ناهضة من مكاني. أخذتُ المفاتيح والحقيبة وخرجتُ أقصد سيّارتي. في الخارج، كانت تمطر كما هو الحال عادة. وأنا أقود في اتجاه بيت كارن، كنت أشعر بخفقان شديد. لعلّه مفعول ذلك الدواء المخدِّر، فعادة ما يكون قويّاً، لدرجةٍ جعلَتْ إحدى مريضاتي تعترف لزوجها بأنّ لها عشيقاً منذ خمس سنوات، ثم استدارَتْ للجهة الأخرى ونامَتْ، وكأن شيئاً لم يقع، ولمّا استيقظت في اليوم الموالي ولم تجده بجنبها، استغربَتْ من ذلك. لقد نَسِيَتْ اعترافها تماماً. في حالات أخرى أكثر مأساوية، قتَل رجلٌ يتناولُ زولبيديم أمَّهُ، في السنة الماضية ببوغوتا. هذا يحدث في كلّ مكان، وحتّى وسط العائلات المحترمة. في اليوم الموالي، اتصل الرجل نفسهُ بالرقم 123، ليبلّغَ عن الجريمة، وهو يصرخ: «إن أحدهم قتل أمي طعناً بسكين!»، ولمّا فُتحَ تحقيق في الحادث، ذُهِل الرجل لمّا عَلِمَ بنتيجته، وللمفارقة، اعتُبِر «غير مذنب». فعادةً، نعتبرُ مذنباً مَن يرتكبُ جريمةً، غير أن تحقق الذنْب يحتاج إلى توفر شرط الإرادة، وفي هذه الحالة، كان ارتكاب الجريمة، وتحقق الذنب، شيئين مختلفين. المشكلة تكمن في أنّ هذا الأمر، إذا أخذ بعين الاعتبار في مجال القانون، سيقلُّ يوماً عن يوم عقابُنا جرّاء ما نرتكبه من جرائم وخطايا. فنحن لا نعي اندفاعاتنا ورغباتنا وتمثلاتنا، ولا نعدو كوننا خيالات ظل تتحرّكُ داخل سرداب عميق.

فتح لي البوّاب باب المرأب، إذ سبق له أن رآني أدخل بمعية كارن قبل حوالي ساعتين.

- تفضلي دكتورة، قال لي مُرحّباً، كما لو كان يعرفني، ذكّريني باسم حضرتك.

- كلير، كلير دالفارد.

- تفضلي، من فضلك، الشقة رقم 402.

استعملتُ المصعد، وعندما وقفت بباب شقتها، ضغطتُ على زر جرس الباب مرّات عديدة. في الأخير، فتحت كارن. كانت تبتسم بعينين مفتوحتين، والشعر يغطي وجهها. لقد أخذَت المنوّم لا محالة، حيث كانت تبدو كمُسرنمة. يبدو أنها ستُجيب بصدق عن أيّ نوع من الأسئلة.

- تفضلي، قالت لي، وهي تقف بجسد مستقيم.

جلستُ ، ثمَّ بعدَ بضعة أسئلة تمهيدية وجّهتُها لها، حول ما إذا كانت قد تناولَت وجبة العشاء، وحول برنامجها لليوم الموالي، أدركتُ أنها مستعدة للإجابة بعفوية، على طريقة الربّان الآلي.

- هناك شيء أريدكِ أن تحدثيني عنه، كيف تمّ التخطيط لعملية الجولة المليونية، لسرقة جون تول؟

شغّلتُ آلة تسجيل استقدمتُها معي، وكنت أستعملها أحياناً لتوثيق حصص علاج بعض المرضى.

- ويلمر هو مَن قام بذلك.

- ويلمر؟ هل تعرفين لقبه؟

- ديلغادو.

- ومنذ متى وأنتم تقومون بذلك؟

- نقوم بماذا؟ سألَت، ثم طفقَت تضحك.

- بالجولة المليونية، قلت محاولة ألّا أفقدَ الخيط الناظم.

- لا ، ليس لوقت طويل، في مناسبة أو مناسبتين، اتصل بي وسألني أين أوجد، ومتى غادر زبوني، وكنت أكتفي بالرد على

أسئلته، كنت أعتقد أنه يسألني بدافع الغيرة. لم أتفق معه يوماً على إيذاء أحد. هذا لم يحدُث أبداً. ولم يكن لي علم بالجولة المليونية.

- وهل كنتِ ترغبين في مساعدته؟

- إنه متزوج من صديقتي.

- كم مرّة قدّمتِ له معلومات عن زبنائك؟

- أربع أو خمس مرّات. قمت بذلك تحت الإكراه، لأنه كان يهدّدني بأنه سيكشف لِماريوري عن علاقتنا. لم أفكر. . .

- هل كانوا يُجبرون الضحايا على إخراج الأموال من الشبابيك الآلية؟

- لا علمَ لي بذلك، كما سبق وقلتُ لحضرتك، كان يطلب منّي فقط أن أخبره بمكانِ وزمنِ خروج زبنائي.

- وإدواردو؟

- ماذا؟ قالَت.

- هل علاقتك به كانت من أجل المال؟ سألتُها.

- أي مال؟ هل تقصدين ذاك الموجود بالحقيبة؟

بعد أن سألَت سؤالها ذلك، استلقَت على السرير، متخذة وضعيةَ الجنين، ثم نامَت. بحثتُ في خزانة الملابس، فعثرتُ على حقيبة صلبة داكنة اللون. فتحتها، فإذا بِها كمٌّ خرافي من الأوراق النقدية، على شكل حزمات بسُمك خمس سنتيمترات. أرجعتُ الحقيبة إلى مكانها، ثم نهضتُ من مكاني وخرجتُ. كان المطر يهطل بغزارة. في طريق عودتي إلى البيت، لم أستطِعْ تجنّب الإحساس بنوع من الإثارة. فجأة، صار لي دور البطولة، وصرت أرى الأمور بوضوح شديد. تجاهلتُ كلّ الإشارات التحذيرية، وكما

يحدث لبعض مرضاي المدمنين، صرتُ أشعرُ وكأنني أعيش تجربة تجلٍّ مقدّس. فكرتُ أنني، لِتعاطفي الكبير مع كارن لربّما، لم أضعها موضع المساءلة، أو لعلّي كنت أنظر إليها بنوع من التضامن والشفقة، أو انطلاقاً من ذلك الإحساس بالذنب الذي يشعر به بعضنا، ممّن نتوفّر على كلّ شيء. لم أَعُدْ كوني ضحية لتفوّقي المزعوم. لقد شعرتُ بنوع من الغرور، لكوني كنت مَودِعَ أسرار إحدى الحسناوات من بنات الشعب، متواضعة المظهر ومتحفظة في طبعها. لقد حملني أنَاي على مواصلة الاستماع إليها، والسؤال عنها ومساعدتها، دون أن أعي أنني صرتُ شخصاً مُتحكمّاً فيه من حيث لا أدري. كان دوري المفترض، كطبيبة نفسية، أن أنزع الحجاب عن مرضاي، ذاك الحجاب الذي يبنيه كلّ منّا في داخلِهِ حولَ العالم المحيط بِهِ؛ فتشوّهاتُ الواقع تتيح لنا اتّقاءَ الألم، لكنها تحجب عنا الرؤية في الآن نفسه.

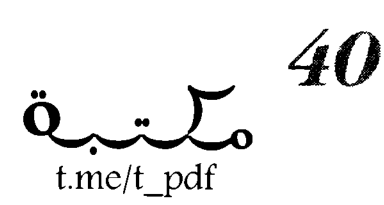
لم يكُن حدسي في محله هذه المرة. كنت أرى كارن فتاة حساسة، واعية بأفعالها وتصرّفاتها، ولطالما بدَت لي ناضجة بما فيه الكفاية، متيقّظة، حذرة، حنونة، عفوية وطيّبة؛ غير أنّ كلّ ذلك لم يكُن صحيحاً. لم تكن كارن سوى سفّاحة تنفذ جرائمها بدمٍ بارد، امرأة قتلت زوج صديقتي، حتّى أنها تجرأت وحكَت لي عن أحد ضحاياها، وتقمّصت دور الشهيدة. لقد استدرّت عطفي، وقدّمت لي رواية مناقضة تماماً للواقع: لم تكُن كارن في حقيقة الأمر إلّا مومساً فاسدة، أعماها الجشع، وجعلها مستعدّة للقتل من أجل المال.

وصلتُ إلى البيت في منتصف الليل. قرّرت ألّا أتصل بلوسيا. أخذتُ حبة منوم، وحاولتُ أن أغمض عيني. كان ذلك من دون جدوى، إذ صرت أتقلّب في فراشي، ثم نهضتُ. أَنَرْتُ الغرفة.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلاً. أخذت حبة منوّم أخرى وأطفأت النور. لم تُفارق ذهني صورة كارن، تلك الفتاة الطيبة، وهي تتحدّث عن ابنها إميليانو. كارن، التي كانت في البدء ترتدي ملابس رخيصة الثمن، مشتراة من سان فيكتورينو، ثم بعد أشهر صارت ترتدي معطفاً غالي الثمن، وحذاء طويلاً، وحقيبة جلدية من ماركة شهيرة. لكن، كيف لم أنتبه لذلك؟ كيف فاتني أن ألْحَظَ تلك المؤشرات؟ كارن تشتكي من غلاء المصاريف، كارن تؤْذي نفسها، كارن تمرّر يدها على شعرها، كارن تبتسم، منظر كارن من الجانب، وهي تضعُ يَدَها على وركها، كارن تداعبُ ظهري، كارن تستفزّني، تُفقدني صوابي، بلمسة كفّيها النّاعمة الباذخة. مع ذلك، كانت تتحرّى الدقة في عملها، كأيّ عاملة مبتدِئة. كانت كارن تعاني اضطراب الشخصية المعادي للمجتمع، فلا غروَ إذاً أن تكون مستعدّة لفعل أيّ شيء. لا بدّ أنها قالت في نفسها، يومَ رأتني أدخل مقصورتها لأول مرة، إنني الشخص الذي تحتاجه، فصرتُ هدفَها. لذلك أَوْلَتني اهتمامها. كنت طريدَتها دون أن أستشعر ذلك، لأنّ لِكارن تلك القدرة العجيبة، وهي تعرف جيّداً ما تقوم به. سلاحها كان جمالها. لذلك كانت تنظر إليّ بتلك الطريقة، ولذلك كان تماسُ كفّيها بجسدي يروم قصداً الاستقرارَ فيه، احتلالَه. كان عليّ أن أحذَر من حواراتي معها، من ضحكاتنا المتبادلة، من تلك المشاطرة المزّورة التي صارت تنمو يوماً عن يوم بيننا داخل المقصورة. أشعلتُ المصباح من جديد. كانت الساعة تشير إلى الخامسة، وكنت في حاجة إلى النوم، كان تفكيري مشوّشاً، وأحسستُ بلزوجة في فمي. نهضتُ من فراشي مرة أخرى، وسقيتُنِي كوب ماء، ثم كرعته بجرعات كبيرة. عادت

صورتها لتشغل تفكيري. رأيتها بوجه طفولي شاحب، مقطّبة الحاجبين، وهي تسخّن الشمع، ببطن مستوية، ونهدين منتصبين، وقوام ممشوق، ميّاسٍ كسنبلة، وذقن مدبّبة، ثم ثغرها... ذلك الثغر الباذخ، الشهيّ كفراولة بريّة.

40



عندما أيقظتني لوث، كان أوّل مرضايَ قد حلّ بالعيادة. كان عليّ أن أغسل وجهي بماء كثير، وأغيّر ملابسي بسرعة، قبل أن أدخل العيادة. كنت بالأحرى شاردة الذهن. لم أتمكن من طرد صورة كارن من مخيلتي. استقبلتُ مريضين إضافيين، وعند منتصف النهار، أخذتُ أجندتي، وأجريت اتصالات لإلغاء مواعيد بعد الظهر. اتصلت بعد ذلك بالشرطة، وأخبرتهم بتوفّري على معلومات عن قضية تول. طلبوا منّي أن أتّصل برقم آخرَ دَلّوني عليه، وبعد كثير انتظار، وَصَلُوني في النهاية بالنائب العام المكلّف بالقضية. قال لي إنه حديث التكليف بالقضية، وإن النائب السابق قد تمّت ترقيتُه. يبدو أنهم كانوا مستعجلين للوصول إلى نتائج، لذلك ضربَ لي موعداً للقائه في مكتبه مساء ذلك اليوم نفسه.

كان النائب العام رجلاً طاعناً في السن. وددتُ معرفة ما جرى مع سلفه، إلّا أنه مرّ بالموضوع مرور الكرام، واكتفى بأن قال إنها أوامر من فوق. لم يكن مخوّلاً لإطلاعي على التفاصيل.

أدرِكُ اليوم أنني تصرفتُ بدافع الحنق، وبرغبة في الانتقام. كنت أشعر بالغدر، لذلك لم أفكر كثيراً في ما كنت سأقدِمُ عليه. ذهبتُ رأساً إلى صلب الموضوع. تحدّثت لما يقرب ساعة من

الزمن. سلّمته الحوار المسجّل، وكذا عنوان كارن، وأطلعته على مخبأ الحقيبة. وعدَني بأن يظلّ اسمي مجهولاً، فشكرتُه. أحسستُ عندئذٍ بنوع من الارتياح، المؤقت على الأقل، لأنني، عندما ركبت سيّارتي، وقفلت راجعة إلى البيت، بدأ الشك يُساورني. لم يكن تصرف النائب العام يوحي بالثقة إطلاقاً. فلقد قال لي: «إن الفرضية الحالية التي نشتغل عليها تشير إلى أنّ كارن اتفقت مع أحد الأشخاص على الاتصال بصابرينا عبر الفيسبوك، واستدراجها لموعدٍ في مكان معين، بغرض إيذائها». بحسب هذه الرواية، كانت كارن مغرمة بإدواردو، وكانت صابرينا غريمتها التي تُنافسها على الفوز بقلبه، فخطَّطت لتنحيتها.

- إنها قصة الحب الثلاثية التقليدية، أضاف النائب العام.

«الفرضية الحالية؟»، تساءلتُ مع نفسي، «مَن وضعَها؟ من كان وراء فرضية سخيفة كـ«قصة الحب الثلاثية» هذه؟».

- لقد أكّدَتْ زميلاتُها في العمل نظرية تخلُّفها العقلي؛ ومن دون شك، كما قلتِ بنفسك يا دكتورة، يتعلق الأمر بشخصية غير سويّة، ألح النائب العام في القول.

استبدّتْ بي الشكوك، وكنت حينها على وشك الوصول إلى البيت.

حينما سألتُه عمّن أخبرهم بعلاقة صابرينا غوثمان براميلي، أجابني النائب العام بأنهم تلقّوا المعلومة من «مُخبر مجهول». ماذا لو كان ذلك المخبر المجهول هو دياثغرانادوس؟ وماذا لو كان هو نفسه مَن وراء هذا المونتاج؟ تركتُ السيارة في قبو العمارة، واستعملتُ المصعد. بمجرد دخولي إلى الشقة، رنّ هاتفي المحمول. كان المتصل لوسيا. لم أقوَ على الرد. طلبتُ من لوث

أن تعدّ لي منقوعَ أعشاب مسكِّنة، ورغبت في التمدّد قليلاً فوق السرير، في محاولة للاسترخاء، قبل القيام بأيّ شيء. عندما هممتُ بالجلوس، رأيت ضوء الهاتف يغمز في الجهة الأخرى من الغرفة، معلناً عن وصول رسالة. اقتربتُ من الهاتف، ضغطتُ على الزر، فسمعتُ صوت كونسويلو باريديس تقول إنها تريد ملاقاتي. «طلبَت مني كارن بالدس أن أتصل بحضرتكِ، لديّ معلومات عن وفاة صابرينا غوثمان، أنا أمُّها». اتصلتُ بها على الفور، وضربنا موعداً للقاء مساء ذلك اليوم، بالمطعم الإيطالي إلبوميريدجيو. مرّ الوقت ببطء شديد منذئذٍ. صرتُ أسترجع شريط الأحداث التي وقعت في الأيام الأخيرة، المرة تلوَ الأخرى، وأنا أقصدُ مكان اللقاء سيراً على قدميّ، إلى أن وصلتُ. وجدتها جالسة عند مدخل المطعم. كانت تضع نظارتين كبيرتين بإطار ذهبي، وتُخفي وجهها بشعرها المسدول.

- هل حضرتك السيدة كلير؟ قالت لمّا رأتني.

- نعم، أنا هي، كيف عرفتني حضرتك؟

- أتصوّر أن هناك تناسباً بين الاسم والمظهر، قالت، قبل أن تنزع النظارتين وتضعهما فوق رأسها.

كان محيط عينيها الحمراوين داكناً، ممّا سبَغ عليها ضرباً من الشحوب والعياء.

- تشرّفت بمعرفة حضرتك، أنا كونسويلو باريديس.

- كلير دالفارد.

كنت أشعر بارتعاش في اليدين. جلسنا قرب نافورة ماء. كان المطر قد توقف، إلّا أن طقس ذلك اليوم ظلّ بارداً. كان برداً قارساً ينفذُ إلى العظام.

- كارن هي مَن حدثك عنّي حقّاً؟ سألتها.

- أجل، يبدو أن حضرتك متفاجئة.

- نوعاً ما. ماذا قالت لك؟

- قالت إنها تثق في حضرتك.

شعرتُ بقلبي يعتصر من شدة التأثر.

- سيدة كلير، أظن أن كارن في خطر. انظري، حضرتك، بلغ إلى علمي أنهم غيّروا النائب العام المكلّف بالقضية. لقد تحدثتُ مع ضابط في الشرطة القضائية، وشرح لي أنهم يقومون بذلك أحياناً، عندما يرغبون في «التلاعب» بقضية من القضايا، كما يعرف الجميع.

- لم أفهم جيّداً.

- هناك مَن يحاول تغيير مجريات البحث في القضية، لذلك قاموا بتغيير النائب العام، وضابط الفرقة التقنية للأبحاث، وهؤلاء البدلاء يتمّ شراءهم مسبقاً، أي قبل الشروع في عملهم، ويأتون مهيّئين، بفرضية مخدومة، ومتهم ضحية، وحجّة براءة للمجرم الحقيقي.

- ومَن يقف يا ترى وراء كلّ هذا؟ سألتُها، مع أنني كنت أعرف الإجابة.

- أنيبال دياثغرانادوس. هل تعلمين حضرتك أنه والد مَن نعتقد أنه قاتل صغيرتي؟

- ليس لدي أدنى فكرة عن هذا الأمر، قلتُ كاذبة. وهل لحضرتك دليلٌ على هذا الاتهام؟

- لأجل هذا تحديداً وددتُ أن أحدّث حضرتك.

اقترب منّا النادل.

- ما طلباتُ حضراتكما؟

- أريد كابوتشينو، قالت كونسويلو باريديس.

- جِينْ تونيك، من فضلك.

- هيّا، حدّثيني عن كلّ شيء، من فضلك، قلت لها، وأنا أشعر بجفاف في حنجرتي.

- حتّى لا أطيل على حضرتك، استأجرنا خدمات محقّق خاص له تجربة طويلة في الميدان، فَتمكن من العثور على تدوينة مخطوطة على ورقة صغيرة بغرفة صابرينا، موقَّعة بحروف ل.أ.د.

- لويس أرماندو دياثغرانادوس؟

- هو ذاك. ولقد توصّل المحقّق بنموذج من خط الشاب وقام بإجراء خبرة تحقيق الخطوط.

- وهل كانت النتيجة إيجابية؟

- نعم، ردّت كونسويلو باريديس.

- وهل من أثر لهذه الحجة في ربط المشتبه به بقضية وفاة ابنتك؟

- ذلك ما سنحاول القيام به، رغم أنّ المشرفين على القضية لن يأخذوها على ما يبدو بعين الاعتبار، إذ يقولون إنه لا قيمة لها ما دام الحصول عليها قد تمّ بطرقٍ غير شرعية.

- مستحيل، قلتُ.

- حتّى المحامي الذي كلّفناه بالدفاع عنّا انسحب من القضية. سيدة كلير، إنّ ما يقع أمر خطير للغاية. هناك مَن يريد توريط كارن في موت ابنتي و، بالتالي، حماية ظهر دياثغرانادوس.

- ما الذي يجعلك تفكرين هكذا؟

- لقد تعرض حساب ابنتي على الفيسبوك للقرصنة، بحسب ما تأكّد منه كوياك على الأقل، وقامت بذلك وحدة البحث الجديدة التي

تمّ تكليفها بالملف. يريدون تغيير موعد اللقاء الذي جمعهما ليلة وفاتها.

- مَن هو كوياك؟

- المحقّق الخاص.

- هل يدعى كوياك، كبطل السلسلة التلفزيونية؟

- نعم، قالت كونسويلو، وقد فرغَ صبرها.

- جيّد، قلتُ لها، وأنا أرشفُ رشفة كبيرة من شراب الجينْ، إذ لم أجد ما أضيفه.

- كنت أنتظر من حضرتك دعماً أكبر، بصراحة. أجد حضرتك غير مبالية نوعاً ما، والحال أنّ كلّ ما يفصل عن تلفيق تهمة ثلاث جرائم قتل لكارن هو العثور على دليل يربطها بالملف، هذا كل ما في الأمر، بينما يوجد لويس أرماندو حرّاً طليقاً، هو وتعيس الحال الآخر، المسؤول عن وفاة جون تول. أتعلمين أنه قد تتم محاكمتها في الخارج؟ فالوكالة الأميركية لمكافحة المخدرات لا تدّخِر جهداً من أجل ذلك، وترغب الحكومة في تسليمهما أحداً، وستكون الفتاة التعيسة كبش فداء عن مقتل صابرينا وراميلي والعميل تول، رغم براءتها.

شعرتُ بدوار شديد.

- صار وجه حضرتك ممتقعاً، قالت لي كونسويلو. هل حضرتك بخير؟ قبل أن تضيف:

- سيدة كلير، لماذا ترفضين مواجهة الحقيقة؟ إذا كان لكارن من ذنب في كلّ هذا فهو كونها بائعة هوى، لكن ذلك لا يجعل منها قاتلة!

- وما أدراك بذلك؟

- علمتُ ذلك من كوياك. لقد اتصل بسوزانا، وهي زميلة لكارن بالصالون، فأخبرته أنّ كارن كانت تمارس الدعارة، وأنها كانت بالفعل على علاقة بويلمر ديلغادو، لكنها نفت علمها بأنّ هذا الأخير كان يسرق زبناء كارن، أو ما إذا كان بين الاثنين اتفاق على ذلك، في مقابل ذلك، أكدت علمها فقط بأن ويلمر يملك سيارة أجرة، وأنه زوج إحدى صديقات كارن، وقالت إنها على يقين بأن زميلتها ليست فتاة منحرفة. المشكلة تنحصر في نفوذ أنيبال دياثغرانادوس؛ فإذا كان من وراء هذا المونتاج، سيسهل عليه توريطها في القضايا الأخرى.

- وماذا عن السائق الذي أقلَّ صابرينا إلى مستشفى سان بلاس؟ هل بحثوا عنه؟

- لقد كان لِكوياك موعد معه قبل أيام في إحدى قاعات لعب كرة الطاولة، غير أن الرجل أخلَفَ الموعد، ثم علمنا بعد ذلك بأنه اختفى عن الأنظار، وتمّ تسجيله مفقوداً.

- عليّ أن أغادر.

- سأتكفّل بالحساب، قالت كونسويلو بنوعٍ من الحدّة، وقد بَدَت منزعجة. إذا رغبت حضرتكِ بالمغادرة، اِذهبي إلى حال سبيلك، أضافَت.

- هل يملكون دليلاً لتلفيق التهمة لكارن؟

- بحوزتهم فيديو يُظهرها وهي تلج مع جون تول إلى الفندق الذي تواعدا فيه، وهو ما ليس في صالحها، لكنه ليس دليلاً قاطعاً على تورّطها في جريمة القتل. أنا شخصياً لا أعتقد ذلك.

- وماذا الذي تعتقدينه حضرتك؟

- من المؤكد أنها استقبلت ابنتي بصالون التجميل، وأنها كانت

على علاقة براميلي وكذا بويلمر، لكنها لم تقتل أحداً قط، هذا ما أعتقده.

صمتُّ لِبرهة قبل أن أسألها:

- لكن، لا يمكنهم إدانتها إذا لم يجدوا دليلاً قاطعاً.

- بَلَى، يمكنهم ذلك. فلكي يكون أحدهم مذنباً لا بد من توفّر ثلاثة شروط: المصلحة والدافع والفرصة، ولقد أعدّوا ملفّ كارن بناء على هذه الثلاثية المقدّسة، لذلك، لا تتفاجئي حضرتك إذا ظهر دليل قاطع في النهاية.

بعد صمت طويل بحثاً عمّا يمكنني قوله، نهضت من مكاني بصعوبة كبيرة.

- في الحقيقة، أنا متفاجئة لموقف حضرتك، كلير. لقد قالت كارن إنها تعتبرك أماً لها، وطلبت منّي أن أتصل بحضرتك إذا ساءت الأمور؛ وأنا الآن أؤكد لكِ أنها على وشك أن تُحاكَمَ ظلماً، وأنها قد تودَع السجن عن جرائم لم ترتكبها، ومع ذلك لا أجد من حضرتك أية ردة فعل.

- ماذا جرى مع سوزانا؟

- أوَهذا كلّ ما يهم حضرتك معرفته؟

- اعذريني، آسفة لعدم قدرتي على مساعدة حضرتك، عليّ أن أغادر.

41

اليوم الأول

استيقظتُ على وقع أصواتٍ غريبة وَرائحة مزيجِ عرقٍ وبول، ومع أنّ الوقت كان ليلاً في ما يبدو، سمعتُ صوتاً ينادي:

- هيّا أسرعي، أنتِ أيتها الوافدة الجديدة، وإلّا فستضيّعين وجبة الفطور.

وأنا ممدّدة على الأرض، عاينتُ امرأة تتخطّاني، وقد مرّرَت نعلَها بمحاذاة أنفي. كان بجانبي كأس وإناء معدني في كيس بلاستيكي. وجدتُ صعوبة في النهوض من مكاني، وكنتُ أشعر بصداعٍ في رأسي. أخذتُ الكأس والإناء المعدني وتبعتُ النزيلات. كنت بالكاد أتبين ملامحهن. وصلنا إلى ممرّ مظلمٍ محاطٍ بالقضبان، ثم نزلنا عبر السلالم لطابقين اثنين. عبَرنا سياجاً حديدياً، لنصل إلى ممرّ آخر، ثم إلى ساحة بها صفّ طويل. بعد أن التحقنا بالصف، صرنا نتقدّم شيئاً فشيئاً، ثم وصلنا أخيراً إلى قاعة كبيرة، أرضيّتها من إسمنت، وجدرانها من سيراميك أبيض، شبيهة بجدران غرف الحمّام. صار الصفّ يمتد أكثر فأكثر، ولشدّة انخفاض سقف القاعة، كان رجع صدى أصوات النساء يرتد عبر الجدران. تبعتُهن. كان الصف طويلاً وبطيئاً. في أحد الجدران، كانت هناك كواتٌ

تمتد عبرها أيادٍ بلا وجهٍ، ممسكة بمغارف. من الكوة الأولى، ناولوني خبزاً صلباً استقرّ في الإناء المعدني، ومن الثانية سقط شيء شبيه ببيضٍ حليبيّ ممزوج بقطع لحم وردية اللون، بينما صبّتْ يد الكوة الثالثة في كأسي قهوة مائعة وفاترة، بها قطرات من الحليب. صارت النساء تخرجن بعد ذلك إلى الممر، وتحت ضوء خافت، صرن يجلسن في مجموعات صغيرة. كانت رائحة الأكل فظيعة، لذلك لم أرغَب حتى في تذوّقه. اقتربتُ من مكان جلوس امرأة ذات عينين زرقاوين، كانت الأخرياتُ يلقّبنها بالعميدة. سألتها عن مكان وجودنا، فأجابتني بأننا في سجن «الرّاعي الطيّب». طرحتُ عليها أسئلة أخرى، إلّا أنها قامت من مكانها وتركتني. بقيت هناك متسمّرة في مكاني كشبح، وسط الممرّ، وبين هدير الأصوات. «لقد وصلتُ، قلتُ في نفسي، أخيراً وصلتُ إلى المَطْهَر».

خلف ظهري، كانت هناك امرأتان تضحكان. سقط منّي الإناء والكأس، فكاد نفَسي يتوقف. جرَتْ إحدى النساء مسرعةً، والتقطت قطعة الخبز وبقايا الأكل، بنوع من العدوانية. بعد ذلك، لم أذكر شيئاً ممّا حدث لي ذلك اليوم، لا بكائي الذي لم ينقطع، ولا تبوّلي في ملابسي، كما أخبروني لاحقاً. عندما اسيقظتُ، كان الوقت عشاء وأنا ممدّدة على الأرض مرة أخرى. بالزنزانة أربعة أسِرّة، وكنا نحن ثمانية نساء. رأت المرأة التي بجانبي كابوساً في منامها فصرخَت. فتحتُ عينيّ، فشعرتُ مرة أخرى بالاختناق. كنت خائفة جدّاً، فلم أجرؤ على الصراخ.

اليوم الثالث عشر

منذ أن جيءَ بي إلى هنا وأنا لا أعرف طعم النوم، وهذا أفضلُ

على كلّ حال، لأنني عندما أستيقظ أتذكر مكان وجودي، فأشعر بالاختناق، وبعدئذٍ لا أتوقف عن النحيب.

لقد استبدّتْ بذهني ذكرى وحيدة أليمة، وجلّلَت فكري كدثار خانق: ذكرى منديل صغير مزركش بأزهار البنفسج، كانت أمي لا تستعمله إلّا في حفلات عيد الميلاد. أتذكر ذلك المنديل الصغير، فأجهش بالبكاء.

اليوم الواحد والعشرون

شيئاً فشيئاً، صرت متعوّدة على رائحة العرق القوية، وطقس التنقل اليومي عبر الممر لأخذ وجبة الفطور، حاملة إنائي المعدني وكأسي البلاستيكي، وسماعِ نوبات الصراخ كلّما أخبروا إحدى النزيلات بعقوبتها، وصرتُ أستأنسُ يوماً عن يومٍ بفكرة وجودِ إلهٍ يضيّقُ الخناق إلى أقصى حدّ دون أن يُزهق الروح، وبحفلاتِ الوداع الحزينة، عندما تحصل إحدى السجينات على حريتها، وبعدم رؤية القمر والنجوم، أو التمكّن من شرب كأس ماء رغم الشعور بالعطش، وبمقاومة الرغبة في التبوّل لساعات، وانتظار دوري في الطابور، طابور المرحاضِ، وطابور الأكل، وطابور الاستحمام، وبالأرق. . . غير أنّ هذه الرغبة في الموت التي استبدّت بي، هي ما لم أتعوّد عليه البتّة.

اليوم السادس والثلاثون

حاولت في ثلاث مناسبات أن أكتب رسالة إلى إميليانو، وفي كل مرة، كنت أمكث لوقت طويل أنظر إلى الورقة البيضاء وأذرف الدموع.

اليوم التاسع والأربعون

أحياناً، يغمرني إحساس بأنني أعيش في حديقة حيوانات.

اليوم الثالث والسبعون

أكتبُ نزولاً عند رغبة كلير. لقد انتهَت من تأليف الكتاب، وتقوم لوسيا الآن بمراجعته، وتقدّمُ لها بعض الملاحظات أحياناً، لأجل أن تضيف شيئاً أو تنقصه. كلتاهما تريدانِ منّي أن أقرأه، لأبدِيَ رأيي فيه سلباً أو إيجاباً. لا أرى أنّ لرأيي أهميّة كبيرة، ما دامتا تؤكّدان أنّ من شأن الكتاب أن يساعد على إظهار براءتي.

غير أن الأجل قد فات، ومكوثي هنا صيَّرني مذنبة لا محالة.

اليوم الثالث والتسعون

منذ أن حللتُ بهذا المكان صرتُ بارعة في الفِراسة. لقد جاءت كلير لزيارتي مرّة أخرى، وهي محمّلة بالاعتذارات والهدايا. كانت تعبق برائحة الورد والخزامى. طفقتُ أنظرُ إلى يديها، فلاحظتُ عليها نوعاً من التعب. أخبرتني أنها ستعود إلى فرنسا، لأنها لم تستطِبْ العيش في كولومبيا، وأنها تشعر بالأسف لأنه لم يعُد في جعبتها ما تقدّمه من أجلي. هذا ما قالته بالحرف، ثم أردفَت أنه قبل بضعة أيام، تمّ اغتيال لويس أرماندو دياثغرانادوس، رمياً بالرصاص، في أحد الشوارع. تذكرتُ صابرينا غوثمان، فانفرج غمّي للحظات. تساءلتُ مع نفسي، من أضحى مكلّفاً بكلير، في حصص إزالة الشعر بالشمع، ومن بات يُجري لها التدليك؟!

اليوم التاسع والتسعون

في الأسبوع المقبل، ستزورني كلير لأسلِّمها هذه الصفحات، وهكذا سنضع نقطة النهاية لقصتي هذه.

لا يهمّني أنهم أجّلوا جلسة محاكمتي، ولا أن سوزانا جاءت لزيارتي، وقد صارت الآن متزوّجة ومتديّنة، ولتقول لي إنها تسامحني. لم أعُد أرغب في التفكير في عالم ما وراء هذه الأسوار، فلقد تخلّى عنّي ذلك العالم، كما تخلّت عنّي الرغبة في أيّ شيء، بما في ذلك رغبتي في الكتابة إلى إميليانو. كل تلك الرغبات الصغيرة التي ظلت متبقّية لدي غادرت جسدي، فلم يعُد معي غير الحزن يجري في عروقي. أنا مكلومة، وأفضِّل الموت معتقلة هنا على العودة إلى العيش خارجاً.

سمعت بتلك القصة ذات ليلة. يحكون أنّ امرأة شنقت نفسها باستخدام ملاءة سرير، وفي اليوم الموالي، وجدوا حذاءً بكعب أحمر عالقاً بقدمها. منذ ذلك اليوم، تمّ منعُنا من استخدام الملاءات، وصارت غادةُ نُذر الموت «لاتاكونيرا»، كما تحكي الأسطورة المكسيكية، تتجوّل بكعبها العالي، ويُسمعُ وقع أقدامها قبل موعد وفاة أية نزيلة. عند موعد الفطور، أخبرتُ النزيلات بأنني سمعتُها. لم يصدّقنني بدايةً، ثم صرنَ بعد ذلك يُجرين الرهان حول من سيحينُ أجلها في المرة المقبلة، مع أنه منذ مجيئي إلى هذا المكان، شهِدتُ وفاة نزيلة واحدة، وتقول السجينات إنّ عدد الوفيات بينهن قلّما يتجاوز الحالتين. لعلّ تلك طريقتهن الخاصة في حساب الزمن، ولعلّ «لاتاكونيرا» ستحلّ اليوم بحثاً عنّي أخيراً. مَن يدري، لعلّ اليومَ يوم سَعدي.

رسائل شكر

أتقدّم بشكري الخالص وامتناني الكبير لكلّ مَن ساهمَ من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخصّ منهم بالذكر الأشخاص المعنويين والذاتيين الآتية أسماؤهم:

- جامعة سانتَا فِي للفن والتصميم، بمدينة «سانتا فِي» بولاية نيو مكسيكو (الولايات المتحدة الأميركية)، لما وفّرته لي من وقت ومجال للكتابة، مع عربون تقدير مضاعف لِماريا أليكساندرا بيليث، لتسهيلها مهمّتي.

- السيدات والسادة: سانتياغو سالازار، غييرمو بويانا، ساندرا ناباس، لاورا إسكوبار، جون خايرو مونيوث، لما وفّروه لي من معلومات قيّمة ساعدتني في إحكام بناء العمل.

- كلّ مَن ساهم في إنضاج هذا النص: كاميلا سيغورا، باولا كاباييرو، لاورا إسكوبار وَكارلوس كاستييو كينتيرو.

- السيد ريكاردو سيلبا روميرو، لكونه من أوائل مَن استمعوا إليّ بانتباه وأنا أتحدث عن قصتي هذه.

- السيد أندريس بورغوس، لأنه سلّمني مفاتيح شخصية «كلير» وساعدني في إيجاد حلّ لعقدة الرواية.

- السيد مارسيل بينتورا، لما اتّسم به من صرامة ووضوح رؤية

وكياسة، في تمريننا الشاق لتشذيب النص وإعادة صياغته، إلى غاية الوصول إلى الصيغة النهائية.

- قريباتي وأخواتي، لما قدّمنه لي من مساعدة في إيجاد الوقت والمكان المناسبين للكتابة.

- أمي الحنون، ميريام دي نوغاليس، لاهتمامها المفعم حبّاً بعملي.

- ريكاردو آبيلا، النجم والمحرّك.

بوغوتا، 12 ديسمبر 2014

- يتقدم المترجم بأصدق عبارات الشكر والامتنان إلى المركز الثقافي العربي، نظراً إلى الثقة التي وضعها فيه من أجل ترجمة هذه الرواية، والتي أنجزت في خريف سنة 2018.



ميلبا إسكوبار

بيت الجمال

بيت الجمال هو أحد مراكز التجميل الفخمة في منطقة زونا روسا الراقية بمدينة بوغوتا، وكارن إحدى عاملاته الماهرات. إلّا أن كارن ليست بخبيرة تجميل فحسب، بل هي موضع أسرار زبوناتها، تعرفُ عنهنّ كل صغيرة وكبيرة، من جراحات تجميلية، وعطلات باذخة، وطلاقات وغراميات...

في ظهيرة يوم ماطر، تدخل صابرينا بيت الجمال وتطلب أن يُعتنى بها بشكل خاص، من أجل مناسبة مهمّة. في اليوم التالي، يُعثر على الفتاة جثّة هامدة، وقد كانت كارن آخر من رآها على قيد الحياة. فمَن هو الشخص الذي ذهبت صابرينا لملاقاته؟ وما هي الأسرار التي باحت بها المرأتان في لقائهما الأخير؟

لئن كانت ميلبا إسكوبار تقدّم لنا في هذا العمل الرائع فرصة للقراءة الممتعة والمشوّقة، فإنها تطرح أيضاً نقداً لاذعاً لبلدٍ ينخره الظلم، والتفاوت الطبقي، وحب المظاهر، والفساد المستشري في جميع طبقات المجتمع الكولومبي.

✂ ✂ ✂

«هي في آن واحد رواية اجتماعية، وتحليل عميق، وقصة تشويق موضوعها الفساد السياسي. هي روعة بكل معنى الكلمة».

صحيفة إلْ تيمبو

«صاعقة ومؤثِّرة في آن، تُعدّ **بيت الجمال** رواية قويّة تطرح أسئلة جوهريّة حول أحوال النساء في مجتمع ذكوري».

الناشرة البريطانية آنا كيلي

✂ ✂ ✂

ميلبا إسكوبار، خرّيجة كلية الآداب بجامعة الأنديز في بوغوتا، تكتب في صحيفة **إلْ باييس** المحلية. **بيت الجمال** هو عملها الرابع، روايتها الثانية، والأولى التي تُرجمت إلى اللّغة العربية.



المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-930-2
9 789953 689302